

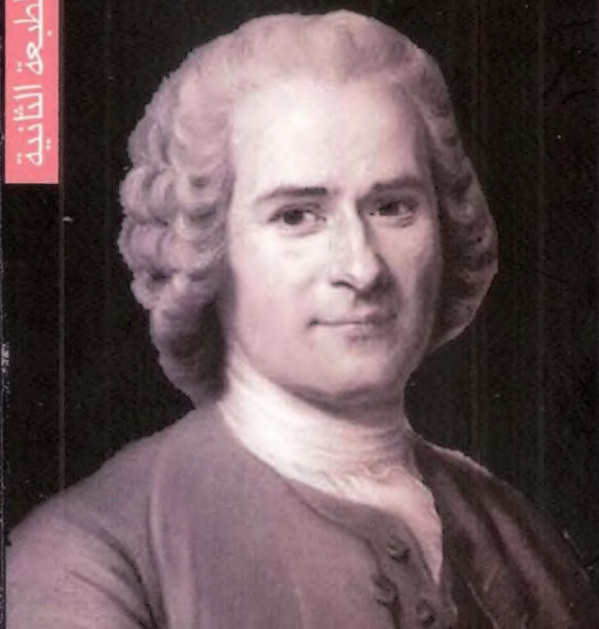
جان چاک روسو

ميراث الترجمة

أحلام يقظة جوال منفرود

ترجمة وتعليق: ثريا توفيق
مراجعة: صالح جودت

الطبعة الثانية



أحلام يقظة جوال منفرد

تأليف: جان چاك روسو

ترجمة: ثريا توفيق

مراجعة: صالح جودت



٢٠٠٩

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ٢ / ٩٤٥

- أحلام يقظة جوال منفرد

- جان چاك روسو

- ثريا توفيق

- صالح جودت

- ٢٠٠٩

هذه ترجمة

Les Rêveries du Promeneur

Par: Jean - Jacques Rousseau

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

رقم الإيداع: ١١٦٥٣ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: 1 - 389 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تمهيد

يشير «جورج سارتون» (١) George Sarton الى انه « مما أفسد فهم العلم القديم كثيرا من الاحيان ظاهرتان من الاهمال الذي لا يمكن التسامح فيه: أما الظاهرة الأولى: فتتعلق باهمال العلم الشرقي فمن سذاجة الأطفال ان نفترض ان العلم بدأ في بلاد الاغريق ، فان « المعجزة اليونانية » سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرها من الأقاليم ، والعلم اليوناني كان احياء أكثر منه اختراعا . والظاهرة الثانية: اهمال الاطوار الجغرافي الذي نشأ فيه العلم ، لا الشرقي فحسب ، بل اليوناني ذاته كذلك وكفانا سوءا اننا أخفينا الاصول الشرقية التي لم يكن التقدم الهليني مستطاعا بدونها » .

والواقع أن « سارتون » لم يحد عن جادة الصواب ذلك لان مشعل الحضارة في الشرق الادنى القديم كان يرفعه ساعدان : بلاد ما بين النهرين من يمين ومصر من يسار ثم معبر في الوسط . . هو سورية ازدوجت فيه الحضارتان وامتزجتا فأشعنا على العالم القديم دهرا طويلا حتى أذن الله أن تنتقل الشعلة الى يد اليونان الذين نقلوها بدورهم الى أوروبا . .

وقصة العلم - اذن - قصة واحدة طويلة لانستطيع أن ندرك فصولها الأخيرة ما لم نتفهم تماما المراحل التي مرت بها منذ البداية فتستوعبها ونتابع تطورها . وهي ليست قاصرة على قطر من الاقطار أو بلد من البلدان بل هي مشاع للانسانية قاطبة تنتقل بين شعوبها بواسطة الحروب حيناً وعن طريق الهجرات والارتحال أو التجارة أحيانا أخرى ومن ثم كان «نقل العلوم على هذا الوجه وترجمتها من لغة الى لغة الوسيلة المشتركة دائما الناجحة أبدا» (٢). وقد شهد تاريخنا الثقافي ثلاث موجات من الترجمة

(١) راجع « تاريخ العلم » . الجزء الاول - التمهيد ص ٢٠ و ٢١ ترجمة الاستاذ محمد خلف الله أحمد وآخرين .

(٢) تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ص ٥ : الدكتور جمال الدين الشبال .

الى العربية اولها في العصر العباسي .. وثانيتهما في القرن الماضي وآخرها وهي التي نخوض غمارها اليوم .

اما الاولى (في العصر العباسي) فقد جاءت على دفعتين متلاحقتين ، اولهما : قبل عصر المأمون وكانت تتضمن مجهودات فردية ، وثانيتهما : من عصر المأمون وخلفائه وقد تمت الترجمة خلال هذه المرحلة تحت رعاية الدولة عن اليونانية والسريانية والفارسية ، وكان ما نقل عن الاخيرتين مترجمة أصلا عن اليونانية والسنسكريتية (الهندية) - كان معظم ماتمت ترجمته علم وفلسفة ، ولم يظفر الادب الا بقسط ضئيل لعل أبرز ما فيه كتاب «كلية ودمنة» الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية (وهذه بدورها عن السنسكريتية) ولعل السر في أن حركة الترجمة لم تبدأ قبل العصر العباسي - بصورة واضحة على الأقل - انه حين بدأ الاسلام ينتشر في أنحاء العالم المعروف في القرن السابع الميلادي بدأ العرب يتزاجون مع الشعوب جميعا جنسا ولغة وحضارة ولم تحدد معالم العصر الذهبي للحضارة الاسلامية الا في عنفوان الدولة العباسية حين أقبل العلماء على الترجمة عن اللغات الاجنبية (١) وعند هذه المرحلة بدأت معالم الحضارة الاسلامية تتضح وبدأت شخصيتها تبرز فنشأت علوم اسلامية نتيجة لذلك أضافت للعلم المعروف في هذه المرحلة الشيء الكثير وثبتت من دعائم ما كان موجودا منه فعلا أو عدلت فيه طبقا لمتطلبات الظروف .. وعلى أثر ذلك أخذ العلم الاسلامي - بفضل بروز المسلمين على العالم - يمد أشعته في كل الآفاق حتى نهلت منه أوروبا فكان مبعث نهضتها .. وأما وسيلة ذلك مرة أخرى فكانت الترجمة عن العربية ذلك لان مؤلفات المسلمين في مختلف العلوم ترجمت في هذه المرحلة الى اللاتينية بخاصة (وهي لغة العلم في أوروبا اذ ذاك) ، بل ودرست كتب العرب في جامعات أوروبا واعترف بها كمراجع علمية لها قدرها .. هذا الى أن بعض علماء العرب كانوا يقومون بالتدريس فعلا في بعض هذه الجامعات وبخاصة في ايطاليا - وبرزت الاندلس بعلمائها قبيل هذه المرحلة وخلالها فظهر بها الكثيرون من العلماء والمترجمين والناقلين الذين ترجموا من العربية الى مختلف اللغات الاوربية وبخاصة اللاتينية كذلك .

وأما مصر فقد كان لها شأن آخر .. ذلك أنها كانت تمر - وبخاصة في أعقاب الفتح العثماني - بمرحلة تدعو الى الأسى فضعفت الحركة العلمية - أو خمدت - ويرجع ذلك الى أن القوة العثمانية - حالت بلا شك

دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الأجنبية عموماً وبالحضارة الأوروبية خصوصاً « (١) لا عن قصد بل لأن الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الإعياء لم يكن الحكم العثماني قادراً على أن يزيله عنها ، فالعثمانيون كانوا قوماً يأخذون ولا يعطون .. وكان تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح مما أضعف الصلة بين مصر وأوروبا في هذه المرحلة إذ لم يعد يتردد عليها إلا قلة من التجار همهم الأكبر كسب المال .. وأما نقل العلوم فقد توقف نهائياً .. وقد دعا هذا كله إلى أن يسود الجهل جميع نواحي الحياة فلم يبق سوى الأزهر يقوم على رعاية الدين وما يتصل به من علوم .. وهي ضئيلة قليلة بالغة التأخر مختلفة عن نظائرها في أوروبا .. بل أخذت تسيطر الخرافات على العقول حتى أصبح الإيمان بالمعجزات يقوم عند الشعب - بل وعند العلماء مقام الدين ..

وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وضاحت الدولة العثمانية بهذا الأمر وانزعج المماليك فقاوموا مقاومة المستنصر .. ولكنهم غلبوا على أمرهم .. ثم تدخلت إنجلترا حين عز عليها أن تترك مصر للفرنسيين لقمة سائفة .. وأما الشعب فقد تحرك كذلك فثار على الحكام الجدد ممن لا يعرفون حرمة الدين ويمعنون في ارتكاب المساوي والشرور .. وقاوم الفرنسيون مدى ثلاث سنوات ثم اضطروا للانسحاب .. ولكن هذه السنوات الثلاث كانت بالغة الأثر في حياة مصر :

صحبت الحملة مجموعة من العلماء توافرت على دراسة مصر وكانت ثمرة هذه الدراسة كتابها المشهور Description de l'Egypte واستطاعوا أن يجذبوا إليهم بعض شيوخ الأزهر ويطلعوهم على جانب من علومهم وبحوثهم وأدواتهم وآلاتهم ثم عقدت بعض أوامر الصداقة بين بعضهم وبين بعض المستشرقين من علماء الحملة ومن أشهرهم الشيخ العطار الذي كان « من أكبر علماء مصر الممتازين والذي لم يكن تضلعه في العلوم الدينية كتضلعه في الدراسات الأدبية » (٢) والذي قال عنه علي باشا مبارك (٣) « واتصل بناس من الفرنسيات وكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم ويفيدهم اللغة العربية » وهو صاحب الفضل على تلميذه رفاعة الطهطاوي

(١) دكتور جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ص ١٣ نقلاً عن مقدمة كتاب « الشرق الإسلامي في العصر الحديث » للدكتور حسين مؤنس وهي المقدمة التي كتبها الأستاذ محمد شفيق غربال .

(٢) Lane: The Manners and Customs of the Modern Egyptians, P. 27

(٣) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٢٨ .

زعيم النهضة العلمية الحديثة . وهو الذى قدمه لحمد على ليكون امام البعثة المصرية الى فرنسا ثم هو الذى أشار عليه أن يسجل مشاهداته فى هذه البعثة التى أخرجها رفاعة فيما بعد فى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » .

كانت الحملة الفرنسية اذن - برغم قصر أمدها - نقطة تحول فى الحياة المصرية وكانت تحمل معها مطبعة هى « المطبعة العربية » أو « مطبعة جيش الشرق » أو « مطبعة الجيش البحرى » - كما كانت تسمى وهى فى طريقها الى مصر - وبدأت عملها والحملة تشق طريقها الى مصر بطبع منشور نابليون المشهور . . بالعربية . . وسميت هذه المطبعة فيما بعد بالمطبعة الاهلية وكان مقرها الاول دار عثمان بك الأشقر بالازبكية ثم نقلت الى الجزيرة فالقاعة وأخذها الفرنسيون معهم عند ارتحالهم وحلت محلها فى عهد محمد على مطبعة عربية أخرى فى بولاق .

كانت الترجمة فى خلال الحملة أمرا ضروريا لضرورة التفاهم بين رجالها وبين المسئولين من قادة الشعب ورجال الديوان . وكان المترجمون من المالمطين أو المغاربة أو السوريين كما تعلم بعض شبان الاقباط الفرنسية وصحبوا الحملة فى عودتها ومن بينهم الياس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى (١) .

وكان من رجال الحملة متخصصون فى الترجمة وكانت مكتبة المجمع عامرة بالآلاف الكتب ومن بينها كثير من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم وقد طبعت بمطبعة الحملة مجموعة من الكتيبات القليلة المترجمة هى « وصايا لقمان الحكيم » وقد طبعت بالعربية ومعها ترجمة بالفرنسية ثم « محضر محاكمة سليمان الحلبي » وكذا « أجرومية اللغة العامية » ورسالة فى مرض الجدرى لكبير أطباء الحملة وترجمة الأب « رفائيل زاخور » وقد طبعت كذلك بالفرنسية والعربية .

وابتداء من عام ١٨٠٥ بدأت مصر تمر بمرحلة كانت ثمرة اليقظة الجديدة - وتمثل الموجة الثانية - فأنشئت المدارس ودعى المتخصصون لنشر العلم الاوربي كما أنشئت المدارس الفنية وبدىء فى ترجمة الكتب المدرسية من الايطالية والفرنسية . ثم أنشئت مدرسة الألسن وعين رفاعة الطهطاوى أول ناظر لها وكان أول أهدافها القيام بأعمال الترجمة وتخريج مترجمين ليعملوا فى إدارة الحكومة ثم أوفدت البعثات الى فرنسا بخاصة

(١) الشبال : المرجع السابق ص ٦٣ .

ليعود منها المبعوثون ويتوافروا على ترجمة خيرة الانتاج العلمى هناك الى العربية .. وفى عهد عباس الاول حدثت نكسة فأغلقت مدارس الطب والهندسة واللغات لكما ألقى مكتب الترجمة .. وبعد موته تابعه خلقه سعيد فى فكرته من ناحية « أن الشعب الجاهل يسهل حكمه » فألقى كذلك وزارة المعارف ومدرسة الهندسة ثم مدرسة الطب بعد ذلك بقليل لفترة ما ... ولم يكن ليشجع حركة الترجمة ... ودفعته الظروف بعد ذلك الى اعادة تعيين رفاعة الطهطاوى مديرا لقسم الترجمة بوزارة المعارف ثم لم تعد مدرسة الألسن مستقلة فأدمجت مع مدرسة الادارة التى عرفت فيما بعد باسم مدرسة الحقوق .. وكانت اللغة الفرنسية فى هذه المرحلة هى اللغة الاوربية التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية والخاصة وكانت ترجمة الكتب العلمية مهمة عاجلة فأنشئ مكتب للترجمة ووضع قاموس للمصطلحات الفنية بالعربية والفرنسية والانجليزية .. وأنشئ مكتب للترجمة بوزارة الحربية مستهدفا ترجمة القوانين العسكرية الفرنسية كما تمت ترجمة مجموعة كبيرة من كتب الطب .. ولعبت مدارس الارساليات الدينية الاجنبية دورا هاما فى حركة الترجمة فى مصر وكان خريجوها يعملون فى الشركات والبنوك والادارات الحكومية ..

وقد بلغ عدد الاجانب المقيمين فى مصر عام ١٨٧٩ مائة ألف مما دعا الى انشاء مكتب للاربيين عين به عدد من المترجمين المصريين .. وأسهمت المحاكم المختلطة فى حركة الترجمة مما دعا الى ترجمة القانون المدنى والتجارى وقوانين الاجراءات والعقوبات .. وترجم رفاعة الطهطاوى - قطب رحي هذه المرحلة - كتابا فى الجغرافيا وآخر فى الرحلات وثالثا فى القانون التجارى الفرنسى وغيرها .. وترجم غيره كتباً فى الرياضة والشئون العسكرية أو مختلف العلوم كالكيمياء والطبيعة والحيوان والتاريخ ثم الروايات والمسرحيات .. وترجمت قصص لافونتين La Fontaine الى الشعر العربى كما ترجمت رواية بول وفرجينى لسان بيزر Paul et Virginie de Bernardin de Saint-Pierre وروايات مولير Molière وروايات راسين Racine ولو أن ذلك كان تعريبا أكثر منه ترجمة دقيقة ..

ويلاحظ أنه بعد عام ١٨٨٠ سارت حركة الترجمة بخطى واسعة فتناولت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والادبية والعلمية ..

وقبل الاحتلال الانجليزى كان التعليم فى المدارس بالعربية وكانت مدرسة الألسن مفتوحة الابواب لمن يريد اتقان اللغات الاجنبية .. وفى ظل الاحتلال أغلقت مدرسة الألسن وتوقف ارسال البعثات الى الخارج وتحول التعليم الى تعليم باللغتين الانجليزية أو الفرنسية وقل الاهتمام

بالعربية ثم نجح الإنجليز فى إلغاء اللغة الفرنسية كلفة رسمية للتعليم فى المدارس الابتدائية ٠٠ وان ظلت كذلك فى مدارس الارساليات الدينية الاجنبية .

وظل الأمر كذلك حتى انكشفت الفمة قليلا فعادت اللغة العربية الى مكانها من التعليم كما ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى مجموعة من الأدباء دأبت على النقل من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية فترجمت مئات الكتب فى مختلف العلوم والفنون والآداب مما تتطلبه حالة الدراسة بالمدارس أولا ، ومما تحتاجه الثقافة الشعبية ثانيا . وبرز فى هذا المضمار جماعة ممن أتيح لهم حظ السفر الى الخارج فعادوا يقدمون للبلاد ثمرات دراساتهم .

وكان انشاء الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ خطوة جديدة فى هذا المضمار فدأب أساتذتها على محاولة اللقاء دروسهم باللغة العربية رغم ما لقوا فى سبيل ذلك من عنت حتى أصبحت الكليات النظرية تقوم الدراسة فيها أساسا بلغة البلاد .

وبقيام الثورة دخلت البلاد فى مرحلة جديدة من هذا التطور الفكرى والثقافى فكان من بين ما استحدثته فى هذا المضمار مشروع « الألف كتاب » الذى يستهدف نقل أمهات الكتب الى العربية وتشجيع الترجمة على أوسع نطاق وإعادة فتح مدرسة الألسن لتعليم اللغات الاجنبية ثم التوسع فى إيفاد البعثات الى الخارج، وأخيرا تكوين لجان من أساتذة الجامعات لترجمة أمهات الكتب فى مختلف العلوم والفنون توطئة لتعميم التعليم فى الكليات العملية باللغة العربية ٠٠ وشجعت البلاد أخيرا حركة الترجمة اذ أنها أمر ضرورى ولان العالم وحدة متكاملة وأن علينا أن نطلب « العلم ولو فى الصين » وأن الشعوب التى تطمح الى المجد يجب أن تكون على اتصال وثيق بمختلف ألوان الحضارات وأن هذا لا يكون ميسورا الا بمطالعة ما ينشر باللغات الاخرى وهكذا نجد المطابع لا تفتأ تقدم ألوانا من الثقافات والمعرفة تيسرها أحيانا للعامة من ذوى الثقافات المتوسطة فى كتيبات رخيصة غزيرة المادة ميسرة الاسلوب وأحيانا أخرى للخاصة فى مجلدات ضخمة تنشر نواحي العلم الحديث حتى يفيد منها المجتمع بمختلف طبقاته .

ولكن اذا كانت ترجمة العلوم فى العهد الحاضر لم تكد تخطو خطوة الا على أيدى أساتذة الجامعة الذين أرادوا أن يقدموا لطلابهم موادهم العلمية مطبوعة فى كتب ، والا عن طريق وزارة الثقافة التى من أهدافها الكثيرة الكبيرة نقل أمهات المصادر العلمية كلها فى خمس سنوات ٠٠ فان ترجمة

الآداب لم يكن، هذا شأنها دائما اذ نهض بجزء كبير منها هواة .. وهو أمر طبيعي .. فلا ينقل الادب الا محبوبه .. ومع ذلك فالفارق واضح بين ترجمة أدبية يقدمها محب لها شغوف بها وبين ترجمة أدبية تجيء عن تكليف فتخرج باردة ، أو فاترة على الاقل ، ومن ثم اختلفت الموازين في ترجمة كتب الادب بخاصة اختلافا بينا ...

والترجمة من لغة أوروبية الى أخرى أيسر من غير شك من الترجمة من لغة أوروبية الى لغة شرقية ذلك لان أصول اللغات تتقارب في الاولى وتتباين في الثانية فالترجمة من الفرنسية الى الاسبانية أو الايطالية مثلا أيسر من الترجمة من الفرنسية الى الانجليزية أو الالمانية وكلاهما أيسر من الترجمة الى العربية .. ذلك لان الفرنسية والاسبانية والايطالية يمكن ارجاعها الى أصول لاتينية حتى أن مفرداتها تكاد في أحيان كثيرة تكون واحدة بل وكذلك التركيبات والصياغة .. والانجليزية تجمع بين الأصول اللاتينية والجرمانية . وأما مجموعة اللغات الغربية فبعيدة كل البعد عن مجموعة اللغات الشرقية من ناحية الالفاظ ومن ناحية التراكيب معا .

واللغة العربية لغة عرفت بأنها غنية بمفرداتها غنى يستلفت النظر وهذه صعوبة جديدة لان تحديد اللفظ المناسب الدقيق في هذه الحالة من العسر بمكان كبير في أحيان كثيرة ومن الاستحالة في أحيان أخرى ولكن برغم وفرة الالفاظ نلتقى في اللغة العربية بصعوبة بارزة فإلنواحي المعنوية الفنية أو العملية تشح فيها الالفاظ حتى لتكاد تستحيل التفرقة بينها . وبرغم ذلك فقد حرصت تماما وبقدر ما وسعني ذلك على المحافظة على روح النص ومعناه بل ومعناه أيضا وهو قصده في هذه الترجمة فهي ليست ترجمة حرة أقدم بها النص على الصورة الميسرة التي قد يلجأ اليها المترجم أحيانا بل هي ترجمة مقيدة بروح الكاتب ملتزمة بأسلوبه بقدر الإمكان .

هذا الى أن روسو نفسه يميزه عن غيره من الكتاب أسلوب خاص به ومفردات معينة .. فأسلوبه يتسم بصيغ فعلية يدأب على استعمالها أحيانا حين لا تدعو الضرورة الى ذلك .. وهو أسلوب تنعكس عليه في مظهر واضح العاطفة والحساسية المرهفة التي هي من خصائصه ككاتب . كما أنه ينحو ناحية التعبير عن الماديات بالفاظ معنوية أحيانا لا تتفق مع المادية التي يتناولها في تعبيره عنها أو هو يسوق أحيانا صفات بعيدة كل البعد عن المنطق التحليلي للفكرة التي يقدمها وما تستلزمه من ألفاظ محدودة حتى نلتقى ببعض هذه الالفاظ

التي تبدو متعارضة مع بعضها لأول وهلة أو التي تقدم صفات لا يمكن أن تعطى صورة حقيقية - بمعناها اللفظي - لما يراد التعبير عنه . وقد حرصت برغم ترجمتي لهذه الإلفاظ على الصورة التي أوردها الكاتب على أن أنتقى أقربها مما يحقق ما يريد التعبير عنه بقدر الامكان .

وأرجو بذلك أن أكون وفقت لترجمة « أحلام يقظة جوال منفرد » على الوجه الذي يرضى روح الكاتب وأن أكون بذلك قد أضفت الى (الترجمة العربية) صفحة من الادب الفرنسى لم تسبق ترجمتها من قبل .

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب جان جاك روسو
Jean-Jacques Rousseau الجولة العاشرة من
« أحلام يقظة جوال منفرد » ولم يقدر له أن يكملها .
كان ذلك في الثاني عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ .
في يوم « عيد الفصح المزهر » ٠٠٠ أى قبل وفاته بما
يقبل عن ثلاثة شهور اذ أنه قضى في الثاني من شهر
يوليو من العام نفسه .

هذه الجولات اذن هي مؤلفه الاخير وآخر ماسجل من
خواطر وخلجات سجلها ابتداء من ربيع عام ١٧٧٦ .

كتب الاربعة الاولى منها في عامي ١٧٧٦ و ١٧٧٧ (١).
وكتب الاربعة التالية في عام ١٧٧٧

وكتب الجولتين الاخيرتين فيما بين يناير ١٧٧٨ حتى
الثاني عشر من ابريل من العام نفسه .

(١) اختلف من تناولوا التعليق على حياة روسو في التحديد

الزمنى لكتابة هذه الجولات ولكنى ارى ان ما أورده M. Monglond
في كتابه Vies Préromantiques P. 30 برغم محاولة L. Courtois
Chronologie de Rousseau تصحيح بعض هذه التواريخ
بتفق وما أورده Henri Roddier في كتابه عن جان جاك روسو
(وهو آخر ماظهر في هذا الصدد) على الاقل من ناحية تاريخ البدء
في كتابة هذه الجولات وتاريخ الانتهاء منها .

وترجمة هذه الجولات والتعليق عليها من ناحية الظروف التي أحاطت بكتابتها ومن ناحية موضوعها ومغزاها ومن ناحية أهميتها كعمل أدبي هو ما أعرض له في هذا البحث .

لما كانت « أحلام يقظة جوال منفرد » *Les Rêveries du Promeneur* آخر ما كتب روسو في حياته تتصل اتصالا وثيقا بهذه الحياة وتبين عن مبادئ نفسية الكاتب الكبير بما فيها من قوة وضعف ، من بساطة وتناقض ، هي خلاصة خمسة وستين عاما قضاها بين مد وجزر يتأرجح بين السعادة والشقاء ، يتنوق حلاوة الاستقرار حينما ويتشرد ضاربا في الأرض أحيانا كثيرة ، تسلط عليه أضواء الشهرة والمجد مرة وسيطأ الاضطهاد والاذلال مرات ، فقد وجدت لزما على ، اذ أقدم للقارئ العربي هذا المؤلف مترجما الى اللغة العربية ، أن أستعرض معه مراحل صاحبها المختلفة بحلوها ومرها ، بما تخللها من أحداث شكلت ذاته وتركت انطباعاتها غائرة في نفسه عميقة الاثر وبما أنتج خلالها من كتابات هي وليدة تلك الانطباعات وتلك النفس .

حياة روسو وأثرها في إنتاجه الأدبي

نشأته وطفولته :

أما طفولته فمريرة قاسية : منحته أمه الحياة ثم لقيت ربها بعد ذلك بشمانية أيام حتى أن روسو كان يقول فيما بعد « كان مولدى أولى تعاساتى » فكفله أبوه اسحق روسو Issac Rousseau وكان صانع ساعات فكان يرى في طفله صورة زوجه التى فقدتها بذرف الدموع سخية كلما قبله وكلما ذكرها . ولما بلغ روسو السادسة أخذ أبوه يعوده القراءة فكانا يقرآن الروايات والقصص يصرفان الليل كله في ذلك حتى شروق الشمس فينهض الأب خجلا من نفسه ويعتذر لابنه في استحياء بأنه « أشد منه طفولة » . كان لتلك القراءات غير المنتظمة ومن بينها قراءة بعض مؤلفات مولير Solitaire وتاريخ الأباطورية والكنيسة وحياة مشاهير الرجال لبسوتارك (١) Plutarque كان لها أثرها في اذكاء خيال روسو الطفل وبخاصة كتاب « بلوتارك » الذى تأثر به فيما تأثر وأورد ذكره في مستهل « الجولة الرابعة » اذ يقول « من بين الكتب القليلة التى لا أزال أقرأها

(١) بلوتارك مؤرخ يونانى قديم كتب عن حياة مشاهير الرجال وترجمت كتبه الى اللغة الفرنسية .

أحيانا كتاب « بلوتارك » الذى يشدنى اليه ويستغرقنى أكثر من غيره لقد كان أول ما طالعت فى طفولتى وسيكون آخرها فى شيخوختى . وهكذا كان قلب روسو وعقله يتفتحان على عالم عظيم يجده فى ثنايا تلك الكتب العظيمة فى حين الصغار من سنه يمرحون ويلعبون . وكانت له عمة أيضا تحنو عليه تعنى به وتغنى له وكانت « ذات صوت عذب رخيم » فكان لانغماسها الرقيقة الحنون وأثرها فى ارهاف حسه بل انه يقول : ان ذلك كان مبعث ولعه بالموسيقى فيما بعد . وهكذا شب روسو وقد تهيأت له عوامل تذكي خياله وتوقد حساسيته : قراءات وأنغام وحنان ، فظل طيلة حياته يبحث دون طائل بين الناس عن المثالية والفضائل العظيمة التى طالعتة فى إبطال « بلوتارك » ويفتقد حنانا دافئا تفتحت حواسه وقلبه عليه .

ولكن كان الأب على شئ من الاستهتار بالمسئولية وعلى شئ من النزق فارتكب مخالفة جسيمة أن يسجن على أثرها فاضطر الى الهرب من جنيف Genève بعد أن عهد بالطفل الى خاله برنار Bernard وهكذا حرم الطفل المسكين أباه وأمه . ولكن ذلك الحال ما لبث أن ضاق بروسو فعهد به وبابن له كان يناسب روسو سنا الى معلم يدعى لامبرسييه Lambercier وهو قسيس بروتستانتي يقيم بالريف فى قرية بوسى Bossey

قضى روسو فى كنف ذلك القس عامين يعدهما أسعد سنوات طفولته تعلم فيهما كيف يصلى لله ويمجده الى جانب مبادئ الدين التى ميزته فيما بعد عن فلاسفة القرن الثامن عشر الملحدون . وفيهما أيضا استيقظ فى نفسه الموهبة حب الطبيعة الحلوة المنعزلة ذلك الحب الذى جعل منه « أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى نهاية القرن الثامن عشر » (١) فكتب فيها أجمل صفحاته وأخلدها لاسيما فى أحلام اليقظة Les Réveries

وكان للقس أخت تخطت سن الثلاثين كانت تعنى بهتذييه وتعهد الى الضرب أحيانا ولكن روسو كان يجد فى عقابها على هذا النحو لذة فتعلق بها تعلقا لا يدرك هو نفسه له تفسير كما كتب فى الاعترافات Les Confessions بعد خمسين عاما من ذلك . أفكان يبحث فى شخصها عن الأم وحنانها ولذة عقابها وقد حرم ذلك كله ؟ أم هى حواسه تفتحت واستيقظت قبل الألوان ؟

وعلى أية حال فان ذلك النوع الخيالى من الحب ، ذلك النوع غير المحدد منه ، هو الذى تخلل حياة روسو وكان له أثره فى علاقاته مع النساء وفى كتاباته على السواء .

لكن لم يطل مقامه هناك بعد أن اتهم بكسر مشط للآنسة « لامبرسييه Melle Lambercier وكان ذلك نذيرا بتسركه للذار اذ أصر على الإنكار فاعتبر ذلك كذبا من ناحيته واضطر الى العودة الى خاله وكان ذلك مبدأ نحس طويل . . ظل فترة دون عمل ولم يكن هناك من يهتم به ويرعاه . ثم أرسله خاله الى أحد الكتبة العموميين لكنه لم يفلح ، ثم وجهه الى حرفة النقش على المعادن ولكن معلمه كان قسيسا غليظ القلب بثت معاملته القطة للطفل فى نفسه بعض الرذائل كالغش والكذب والسرقة ، كان يعاند ويغالى فيها كلما زادت تلك المعاملة سوءا . . وفى ذلك الوقت أيضا أخذ يتجه من جديد نحو الكتبة : الطيب منها والخبيث على السواء ويتفق فى ذلك ما يحصل عليه من معلمه من تقود زهيدة كما كان يخرج للتنزه مع رفاق له خارج المدينة كان يعود منها متأخرا فيشبعه معلمه لظما ولكما . ولكنه لم يصبر على الضيم والمهانة وأخذ يتحين أول بادرة للخلاص . . فما أن غاد يوما من الغابة ليجد أبواب المدينة وقد أوصدها الحراس حتى أقسم ألا يعود ، وقضى الليل خارج الاسوار . . وفى الصباح قرر الفرار الى غير رجعة . . وفى تلك اللحظة إنتهت مرحلة من عدم الاستقرار . . طابعها التشرد والحرمان . . حرم فيها الابوين وحياة الأسرة . . وذاق من متاعب الفاقة والنحس ما ينوء به رجال أشداء . . وهو لا يزال فتى طرى العود فى عامه السادس عشر . .

ها هو ذا روسو وحيد فى بيداء الحياة . . أما خاله برنار Bernard فقد ارتاح لخصه منه وأما أبوه فقد شرع فى البحث عنه لكنه كف بعد قليل كرجل لا يهتم من الدنيا الا أمر نفسه .

أفمن الغريب بعد أن قاسى الفتى ما قاسى أن يرتكب فيما بعد ما ارتكب من هفوات حيناً ومن أخطاء جسيمة أحيانا . . أو ليس ظلما أن نحاسبه عليها كما نحاسب من تهيأت له سبل الحياة وسارت به سهلة ميسورة فانحرف ؟ أليكون ذلك عدلا منا ازاء من ترك لنفسه فى تلك السن البكرة بلا هاد ولا مرشد أمين يتيما فقيرا شريدا خاوى الوفاض الا من قلب ذكى وحس مرهف ؟

ساقته قلبها عبر الريف الى قس يدعى دوبونتفير De Pontverre فتلقاه مرحبا وأكرم وفادته ثم حدثه عن «الكاثوليكية» ودعاه الى اعتناقها مبينا مزاياها ومساوى البروتستانتية ، دين أهل جنيف ثم بعث به الى سيدة محسنة كانت قد تحولت هي الأخرى الى الديانة الكاثوليكية وأخذت على عاتقها « انقاذ بعض الارواح المخطئة »

تلك كانت مدام دو فواران Mme De warens التي خصها روسو بـ « الجولة العاشرة » من « أحلام اليقظة Les Rêveries والتي اعتبر روسو الإقامة في كنفها وبخاصة في « الشارميت Les Charmettes » أسعد فترة في حياته ، بل أيامه التي عاشها حقا .

ويعتبر ذلك اليوم الثاني عشر من ابريل من عام ١٧٢٨ . كما يذكر روسو في تلك الجولة « يوم عيد الفصح المزهري » نقطة البداية .. بداية كل شيء .. بداية الشباب وفورته .. بداية الآمال .. بداية الآلام .. أى بداية تعلم الحياة ومعرفتها ..

ذهب إليها كما أوصاه دوبونفير De Pontverre متوقعا أن يلقي عجزا متعصبة لكنه ذهل اذ أبصرت عيناه سيدة في الثامنة والعشرين ذات حسن وضاء وعينين زرقاوين جميلتين ولون باهر وعنق ساحر .. ذات ابتسامة ملائكية وفم صغير وشعر نادر نوع جماله .. وعندئذ اعتقد في يقين ان « دينا يدعو اليه مثل أولئك الرسل لابد مؤد الى الجنة .. »

أما هو كما يسجل في « الاعترافات » فيما بعد فكان يومئذ في « منتصف السادسة عشر من عمري ومن غير أن أكون شابا جميلا كنت منتظم القامة جميل القدم دقيق الساق حى الوجه صغير الفم فاحم لون الشجر صغير العينين غائرها ولكنهما كانتا شديدتى البريق تقذفان كل ما فى دمي من حرارة »

علق روسو بالسيدة منذ النظرة الأولى وارتاح إليها ورغب من صميم نفسه لو انه أقام لديها لكنها لم تتركه سوى أيام نصحته بعدها بالتوجه الى تورين بإيطاليا Turin الى دير يجد فيه الملاذ .. فقصد الى هناك مزودا بنصح السيدة وبمبلغ يسير من المال .. ما لبث أن نفذ بعد قليل فدخل الدير ليفقد ثقته بالوعاظ ورجال الدين لما لقيه من غرائب تنفر منها النفوس فكرهم كرها نضحت به كتبه وخاصة « الاعترافات » Les Confessions « وأحلام اليقظة Les Rêveries » واعتبر الدير

سجنا لايد من الافلات منه وفعلا انطلق منه ولم تتجاوز اقامته فيه شهرا واحدا بعد أن كفر بتعاليمه وبمن فيه .

خرج من الدير باحثا عن مأوى وعن مورد يعيش منه . فتدرج في ألوان من العمل منها الخدمة في المنازل ومنها خدمة سيدة ايطالية جميلة تدعى مدام بازيل Mme Basile سرعان ما أعجب بها وأحبها فلما أحست منه ذلك صرفته ، وبعدئذ انتقل الى دار سيدة تدعى مدام دوفرسلين Madame De Vercellis وهناك أخفى شريطا ألقى تهمة اخفائه على خادم تدعى ماريون Marion ، وهذه احدى الحوادث التى ظلت تؤرقه طيلة حياته حتى ليذكرها فى الصفحة الأولى من « الجولة الرابعة » اذ يسميها « الأكنوبة الشنعاء التى ارتكبتها فى شبابى الباكر والتى ظلت ذكرها تذكر صفوى طوال حياتي . » وكان من نتائجها أن طرد هو وتلك الخادم من تلك الدار . . .

ومن بعدها التحق بخدمة الكونت دو جوفون Co mtre De Gouffon فى مدينة تورين Turin مالبث أن غدا صديقا لابنه وكاتب سره وساعده ذلك على اتقان اللغة الايطالية وعلى اكتساب معلومات كثيرة نافعة . . وكان موضع الرعاية فى تلك الدار فعادت اليه ثقته بنفسه حتى أنه أضحى يدرك أنه لم يخلق ليعمل فى المنازل . . فترك عمله به عائدا أدرجه الى آنسى Annecy بسويسرة فاستقبلته مدام دو فواران فى ود مرحبة فقر قراره عندها تدعوه صغيرى ويدعوها « أمى Maman » يلاطفها ويحبها بل ويقدها ولا غرو فقد أصبحت له أما وحبيبة على السواء . . وعوضته حنانا فى أمه فقدوه وحبا ملأ عليه فراغ شبابه وحسه .

عاش روسو مع « أمه » يتعلم الموسيقى وينهل المعرفة من الكتب من جديد . . ويراه قس هو قريب لمدام دوفواران فيقضى بأنه لا يصلح الا أن يكون « قسا فى قرية » فترسله الى معهد دينى فى البلدة ليخرج منه بعد قليل دون فائدة تذكر ثم تعهد به الى رئيس موسيقيى كاتدرائية البلدة ويدعى ماسيو لومتر M. Lemaitre ولم يستفد منه كذلك وكانما لم يقدر لروسو أن يتلقى العلم على معلم طوال حياته . . وحدث أن اختلف لومتر Lemaitre مع رجال الكاتدرائية فاضطر الى السفر . . الى باريس وصحبه روسو فى سفره يعينه على نقل متاعه لكنه تخلى عن أستاذه فى منتصف الطريق على أثر نوبة عصبية كانت تعاود الموسيقى نتيجة لأذمانه السكر . . ويعد روسو حادثة تركه له جريمته الثانية بعد حادثة سرقة الشريط ، أنه ضميره طويلا عليها . . وهكذا كان روسو

متضاربا في تصرفاته يأتي الخطأ ليُعذبه بعد ذلك نفس ذلك الخطأ .. وهو يفسر ذلك بقوله : « يجتمع في شيئان متضادان أو يكادان ، لا يستطيع أن أعقل اجتماعهما : فاحساس شديد وعواطف قوية وشهوات متحركة تقابلها أفكار بطيئة التبين لا تظهر الا بعد زمن فكأنما في قلب رجل وعقل رجل آخر » . ويعود بعد ذلك الى آنسي Annecy فلا يجد « مدام دوفواران » فيأخذ في التجول وسط الطبيعة مستغرقا في أحلام لا تنتهى .. ويتعرف بفتيات وبنساء لم يكن لهن أثر قوى في حياته .

ويهم روسو في الحياة طارقا أبوابها ، فقيرا خالي الجيب ، فيعمل مترجما لقسيس ايطالي ثم سكرتيرا لأحد الشبان المشتغلين بالوظائف العسكرية ثم ناقلا للموسيقى . وأخيرا يعلم بمقام مدام دوفواران تشامبرى Chambéry فيعود اليها ملتقيا في الطريق بفلاحين بلغ بهم البؤس أقصاه ، أثقلتهم الضرائب وظلمهم نظام اجتماعي فاسد فتأثرت نفسه وقدر لهذا التأثير أن يجد متنفسا في كتاباته فيما بعد ..

عاد روسو « أمه » ليجد عندها كلود آنيت Claude Anet خادما وخليلا .. ومع ذلك فقد أقام عندها سنوات ، يموت أثناءها كلود آنيت ويصبح هو الصديق والمدير لشئونها بعد أن وهبته نفسها ، « درعا له عما قد توقعه فيه سنه عندئذ في هاوية الشهوات » على نحو ما قال .

كان روسو في تلك الفترة سعيدا بقرار العين .. وكانت حياته بالريف داعية لاستسلامه للطبيعة والاحلام وحب النباتات الى جانب سعيه في ميدان الموسيقى والعناية بدراساتها .. ولعل الصفحات التي كتبها عنها هي من أبداع ماسطر خياله وقلبه معا فهي « جنته التي عاشها على الأرض » وكذلك في « الاعترافات » : هنا تجيء اللحظات السعيدة الهادئة التي تجعلني أقول انني حييت .. ايه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها .. الا عودي فيعود معك الهناء . انسابي في ذاكرتي ان استطعت أكثر بطلا مما كنت في سرعة مرك . ما عساي أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الأشياء نفسها ولا يمل قارئ من اعادةها كما لا أمل أنا من استعادة ذكرها .

واستقر رأيهما بعد ذلك على الاعتزال في الريف فأقاما في الشارميت les Charmettes في ربوع الطبيعة التي أحبها ينهل من محاسنها فتغذى خياله واحساسه ، يجنى الزهور ويرتاد الغابات والوديان كما يقرأ في الفلك والنجوم والطب والفلسفة .

لكن انغماسه في تلك السعادة لم يمنع عنه زائرا بغيضا .. وهو

المرض .. وهو لما يزل فى الخامسة والعشرين انتابته بعض العلل الحقيقية وبعض الآخر توهم أنه مصاب به ، كمرض القلب ، فسافر للعلاج .. وتقابل فى الطريق بدمام « دولارناج » Madame De Larnage وهى سيدة فانتة عظفت عليه فأصاب عطفها القلب فهام بها حبا وقال فيها « لولا مدام دولارناج لمت من غير أن أعرف الملمات » مما أنساه مرض القلب فكر راجعا بعد أن نسي حبه أو تناساه ، وهكذا حال الفنانين لا يثبت لهم حال ولا يقر لهم قرار .. عاد ليرى مدام دوفواران وقد استبدلته برفيق آخر وتقابل بهيرود وجفاء لكنه بقى حتى لقي من الاغضاء عنه والامتعاض ما نفذ معه صبره فسافر مزودا بتوصية منها الى ليون Lyon بفرنسا حيث عمل مربيا ثم استقال ليعود الى السيدة ليجدها وقد تدهورت حالتها المالية وتراكمت عليها الديون . ففكر فى مشروع جديد يعبر فيه عن السلم الموسيقى بالأرقام لعله بذلك ينال مالا يعين به «أمه» ثم سافر الى باريس حتى يعرضه على الأكاديمية هناك .

روسو فى باريس :

كان فى التاسعة والعشرين عندما قدم باريس مزودا بخطابات توصية الى جماعة من كبرائها ولم يكن يملك سوى خمسة عشر جنيها واقتراحه بشأن رقم الموسيقى ورواية مسرحية سماها نارسيس Narcisse ... فشل مشروع الموسيقى بعد أن فحصته لجنة من أكاديمية الفنون .. لم يدر عليه مالا ولكنه جعله يتعرف الى عدد من رجال الادب المشهورين مثل ماريفو Marivaux وديدرو Diderot وفونتنيل Fontenelle ثم عرف طريقه الى نساء المجتمع لعله ينجح عن طريقهن كما اوصاه البعض فتعرف على مدام دوبين Mme Dupin التى كتب باسمها رواية موسيقية أسماها عرائس الشعر الرقيقات Les Muses Galantes ثم شق طريقه بوساطة صديقاتها الى العمل بالبندقية فى سكرتيرية الفنصلية هناك ولكن لم يرق له العمل فعاد الى باريس ليلتقى فى نزل بامراه جديدة هى « تريز لوفاسير Thérèse Levasseur » التى شاء سوء طالعه أن تعاشه وترزق منه بأطفال ، فى بعض الآراء .. كانت تمتهن تنظيف الملابس وغسلها وكانت أمها تاجرة صغيرة فى أورليان Orléans وكانت لها بساطة أهل الريف وسداجتهم .. ومن عجب أن جان جاك روسو وجد فيها من تكمله وهى التى قال عنها « ولست أخجل حين اعترف أنها لم تحسن أبدا القراءة وان كانت تكتبه كتابة مقبولة .. ولما أقمت فى شارع (٥٠) كان مقابل نوافذى ساعة كبيرة جهدت أكثر من شهر لأعلمها

فيها معرفة الوقت وهي الآن لا تكاد تعرفه .. وما استطاعت يوما أن تفهم نظام الاثنى عشر شهرا السنوية .. وهي لا تعرف رقما واحدا برغم المجهودات التي أنفقت لفهامها الأرقام .. فلا تعرف عن النقد ولا ثمن شيء ما .. والكلمة التي تنطق بها هي في أغلب الأمر عكس ماتريد أن تقوله على أنها برغم مبلغها هذا من الغباء بل ومن البلاهة ، اذا شاء القارئ، فلها نصائح ثمينة في أخرج الاوقات .. »

تلك هي المخلوقة التي شاء القدر أن يضعها في طريق روسو لتعاشره ما بقي من حياته وليعزى اليها أنها هي التي ساقته الى ما بلغه من اضطراب نفسي وذهنى وأنه لولاها لما بلغت حاله تلك من السوء ما بلغت .. وكانت أمها تستغل علاقتها بروسو فلا تكاد تحس بالمال بين يديه حتى تغير على البيت مع أخوتها وبناتها وأبائهما وحفدتها لتستنفد رزقه الضئيل .. وقد رزقت تريز بخمسة من الابناء ألقى بهم في ملجأ اللقطاء ، واعتذر روسو عن جريمته بمعاذير شتى منها .. أنه كان يخشى أن ينشأوا في كنف أم هي تريز ، وبين عائلة هي عائلتها فتساء تربيتهم وذلك لعجزه عن القيام على تربيتهم بنفسه ، كما دافع عن نفسه في « الجولة التاسعة » من « أحلام اليقظة » ، اذ يسرد مثلا ما فعله محمد مع سعيد ولكننا لا نعرف من هو سعيد هذا ولم يرد في السيرة النبوية ما ينسب بأن محمدا صلى الله عليه وسلم حرض شخصا يدعى سعيدا على اتيان ما يخالف الشريعة والأخلاق .. لكن محمدا ظلمه الكتاب المتعصبون فكتبوا عنه مفترين ويبدو أن روسو الذي استقى كل معلوماته عن طريق القراءة السريعة بلا تمحيص ولا سعى وراء حقيقة .. يبدو أنه ساق المثل ، قاده اليه أباطيل وافتراعات ، محمد الرسول منها براء .

ومهما كان من أمر روسو ومن دفاعه عن نفسه في « الجولة التاسعة » وفي غير « أحلام اليقظة » كذلك فإن ذكره أمر أطفاله وأهماله الشنيع لهم وهو على شفا الموت يستعد لملاقاة ربه . كان بلا ريب صادرا عن أسف عميق وندم واحساس بالجرم الأليم ..

ولكن المؤرخين والنقاد لم يعفوه رغم ذلك .. بل ذهب البعض الى القول بأنه كان كاذبا لأنه كان مريضا باحتباس في المثانة ومن ثم فإن مرضه أعقمه فهو لم يتورط في هذه الجريمة ولم يرزق بأطفال .. وانما ألجأه للكذب شدة ميله للنساء اللواتي ان عرفن عنه العقم انفضضن من حوله .. وقال آخرون انه لم يشر في « الاعترافات » ولا في « أحلام اليقظة » الى أنه رأى أبناءه . وانما قال ان أم تريز هي التي كانت تخبره بحمل ابنتها

وتأخذ على عاتقها إنداع الطفل فى « ملجأ اللقطاء » .. ويعزز هذا القول أن واحدة ممن اتصلن بتريز لم تشر مرة الى حملها وانما كن يعلمن بأبناء روسو منه نفسه وليس من طريق آخر .. والرأى الثالث هو أن تريز حملت فعلا ولكن ليس من روسو ومن ثم فحريمته أقل تكرا .. ومهما يكن من أمر فان روسو نفسه يكاد يكون لقيطا .. لم يعرف أمه .. ولم يستظل بعطف أبيه فهو يتيم مشرد فى طفولته .. لم يحس بعاطفة أبويه .. فلئن صح أنه كان أباً فليس بعجيب أن يودع أبناء « ملجأ اللقطاء » لأنه نفسه لم يتنوق طعم « البيت » .. كما أنه يشير الى أنه كان يلقي شبانا فى مطعم الأوبرا فيفخر الواحد منهم بأنه « أكثر من غيره الهاما فى تعمير « ملجأ اللقطاء » .. وكان هؤلاء الشبان موضع الإعجاب .. فقلت فى نفسى : ما دامت تلك عادة البلاد فقى وسع الانسان اتباعها ما دام يعيش فيها .. وكذلك اخترت هذه الطريقة وصممت على تنفيذها بلا اكتراث ومن غير أن يعرفونى هم » .

ولكن من عجب أن حياة روسو انتظمت نوعا ما فى قرب تريز فاستسلم للعمل الجدى .. وأنتج أعماله الأدبية جميعا .

تعرف روسو بعد ذلك الى مدام دابنای Mme D'Epinay وكانت موسيقية قادرة .. وسهل له ذلك التعرف بـ مدام دودتو Mme D'Houdetot

كانت صلات روسو بهذه الطبقة الجديدة أمرا ذا أثر ملحوظ فى حياته .. كان الأدب الدينى قوام أمهات الكتب فى ذلك العصر وكانت الاشادة بالكنيسة هدفه وكان الملك رمزا للتدين وكان هم الشعراء والكتاب امتداحه والزلفى له .. ولكن لم يكد يمضى عصر الملك لويس الرابع عشر حتى دب الفساد فى البلاد بعد أن أزهقها الترف وداخل الكنيسة الضعف .. وجاء القرن الثامن عشر فى أعقاب هذه المرحلة معاديا للدين قاتلا لكل العقائد السابقة نائرا ضد سلطة الفرد .. غير أن البناء الاجتماعى لم ينله الانهيار فظلت « الصالونات » كما هى بل اتسعت دائرتها بعد أن انفض عن البلاط من كانوا يقفون عند بواباته .. وذهب روسو البروتستانتى الأصل الكاثوليكيى المتوقد الخيال الميال للوحدة العاشق للطبيعة البكر العاجز عن الظهور فى المجتمعات المصاب بالآفات والعلل وصل ليجد من حسن الاستقبال ما أذهب عن نفسه بعضا مما كان بها من اليأس وفتح أمامه متنفسا من الأمل فى الحياة .. وكانت صلته « بـ ديدرو Diderot قد توطنت فاتفق معه على نشر صحيفة هى « الساخر Le persifleur » لم يظهر منها سوى العدد الأول اذ سجن ديدرو بعدها على أثر كتابه فى

« الآثار الفلسفية » وكان روسو يتردد عليه سيراً على الأقدام .. لأنه لم يكن يملك أجر العربة .. وهو يطالع دائماً في كتاب ..

وبينما كان ذات يوم ذاهباً لزيارة صديقه .. فتح جريدة « مريكر دوفرانس » Mercure De France وهو مستند الى شجرة يستريح وإذا بنظره يقع على سؤال جاء بالصحيفة طرحه مجمع ديجون L'Académie de Dijon ومؤداه هل ساعدت العلوم والفنون على تطهير العادات Discours sur les Science et les Arts وانفعل روسو أشد الانفعال وعول على نشر رأيه وعضده في ذلك ديدرو .. فأدلى رسو بدلوه ونال الجائزة في يوليو عام ١٧٥٠ .

ويقول روسو بعدئذ في اعترافاته « ولكن ذلك كان سبب ضياعي طوال حياتي وكان سبب تعاستي » .. وذلك لأنه قضى حياته بعد ذلك يبحث عن الحرية والفضيلة والحق .

كان ذلك أول فوز لروسو في حياته .. وأول خطوة له نحو المجد .. ذلك المجد الذي وافاه .. كالتقدير .. على غير موعد - ودون أن يدبر له .. بعد أن بلغ الثامنة والثلاثين .

كان رد روسو يتضمن الطعن في المجتمع المدني والمناذاة بالرجوع الى الحالة الطبيعية واعتبار العلوم والفنون مصائب وأهوالاً انصبت على رأس الإنسانية، بل انها تقتل فراغ الرجال وتعودهم البطالة وهي المسئولة وحدها عن الانحطاط والفساد . والواقع أن هنذاً أمر طبيعي بالنسبة لروسو ، فالعلوم والفنون اثر من آثار المجتمع الذي لم يلق روسو فيه تجاحاً ، والفنون مصدر ثراء لبعض الناس وهو لم يلق منها سوى النحس والتعاسة . وقد نقد كثير من المفكرين مقاله ومنهم فولتير سنة ١٧٥١ فأجابه روسو على نقده .

وحتى يكون روسو منطقياً مع نفسه أدخل تعديلاً على طريقة عيشه وملبسه .. فعمد الى البساطة وتخلي عن كل زينة .. وانصرف الى التقشف .. وهو يشير الى ذلك في « أحلام اليقظة » في « الجولة الثالثة » : « هجرت الحياة الدنيا بمفاتها وزهدت كل زخرف فلم يعد لي سيف ولا ساعة ولا جوارب بيضاء ولا حلّ ذهبية ولا زينة شعر بل شعر مستعار بسيط جداً ورداء سميك من الصوف .. بل - وخيراً من هذا كله - نزعت من قلبي كل اشتهاة لجمع المال وكل مطمع في كل ماله قيمة ثم هجرت الوظيفة التي كنت أشغلها اذ ذاك والتي لم أكن خليقاً بها البتة وانصرفت الى نسخ الموسيقى نظير أجر معين للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديداً الميل اليه دائماً ،

ثم ألف بعد ذلك أوبرا عراف القرية Le Devin du Village مثلت أمام الملك ورضى عنها فطلب مقابلة روسو لكنه أبى مؤثرا حرته ومبادئه .. وهى لمحة أخرى من لمحات تلك الطباع الابية العزيزة الزاهدة .. ثم مثلت رواية « ناوليسيس Narcisse ففشلت كل الفشل .

وفيما هو يتأرجح بين الفشل والنجاح أعلن مجمع ديجون *ersifleur* de Dijon عام ١٧٥٤ سؤالا لمسابقة موضوعها « أسباب عدم المساواة بين الناس » *Discours sur l'inégalité parmi les hommes* - فكتب روسو وكانت كتابته هذه المرة أقوى وأبلغ : ومع ذلك فلم ينل عنها الجائزة .. صاح روسو صيحة مدوية فى وجه الملكية الفردية .. ودعا الفقراء الى التمرد على النظام الاقطاعى .. قال: « ان الحرية لا تكون مع عدم المساواة فمن عدم المساواة تنشأ الثروة والثروة تولد الترف والفراغ والترف أصل وجود الفنون ، والفراغ أصل وجود العلوم . واذا كان التخلف الحضارى يدرأ هذا الظلم فلنعد اليه راضين .. » - وكانت تلك جراحة نادرة وشجاعة تستحق الإعجاب من جانب روسو .. وهذا المقال يعالج مشكلة سياسية واجتماعية معاصرة .. مشكلة الانسان فى السعادة والشقاء .. فجاء عملا أدبيا رائعا اهتزت له أفكار القرن الثامن عشر .. وجاءت الثورة الفرنسية لتقدسه فقد كان مبشرا ونذيرا وداعيا الى الأسس التى قامت عليها .. وسراجا منيرا .

وفكر بعدئذ فى أن يزور وطنه جنيف Genève ومهد صباه .. فسافر تصحبه « تيريز » وخرج فى طريقه على « مدام دونواران » وكانت تتجوز حينئذ كأس الفاقة والشقاء .. فترك لها بعض ما معه من نقود .. ثم دخل جنيف محتفى به مستقبلا أجمل استقبال .. خرج منها يتيما .. شريدا .. كسير الخاطر .. ليعود ترمقه العيون فى اكبرار .. بعد أن غدا عبقريا طبقت شهرته الآفاق .

لبث روسو بجنيف أربعة أشهر يتمتع العين بالماء والخضرة .. ثم غادرها الى باريس فى خريف عام ١٧٥٤ راضيا عن مقامه فيها .. وشتان بين مغادرته ايهاها هذه وبين المرة الاولى .. تركها وفى قلبه حنين الى العزلة الهادئة .. الى الجمال الحق .. الى الطبيعة البديعة مرتع صباه وملهمه يراعه لذلك ما أن عرضت عليه مدام دابنای Madame D'Epinaى المقام فى الأرميتاج L'Ermitage على مقربة من قصرها ومن غابة مونفرنسى Mont Morency حتى قبل متلهفا سعيدا .. فترك باريس مرة أخرى فى ابريل عام ١٧٥٦ ولم يقدر له دخولها بعدئذ الا فى أواخر أيامه .

. وإذا كانت الأعوام التي قضاها روسو في « الشارميت » مرحلة دراسة وتحصيل فإن السنين التي قضاها في مونترنسي ستكون مرحلة تعبير وإنتاج غزير . عاش في صومعته راضيا قرير العين بنسخ الموسيقى لأنها مورد رزقه ويهرع إلى الغابة فتحنو عليه الطبيعة . . الأم . . التي تعطي ولا تأخذ . . الطبيعة التي تجرى دائما وأبدا على لسان عاشقها روسو . . الطبيعة التي تهدى المؤمن . . وتلهم الفنان . . وكذلك آلهته روايته الطويلة الخالدة « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse » ، وقد بلغ الخامسة والأربعين ، ولا عجب فقد عاش روسو معاش بقلب شباب وعواطف متقدة . . كانت الطبيعة بسحرها وخيالاتها ملهمته . . ولكن كانت هناك أيضا مدام دودتو Mme d'Houdetot زوج أخ مدام دابنای وصديقة سان لامبير الشاعر Saint-Lambert صديق روسو الحميم . . تعلق بها تعلقا بلغ حد الهيام . . تعلقا عذريا طاهرا . . ولكنه أوغر صدر مدام دابنای غيرة وحقدا . . فسعت للوقيعة . . وكانت صديقة « لجريم » Grimim وديدرو Diderot فتألب عليه الجميع واضطهدوه . . وانتهى به الأمر إلى الخروج من صومعته بعد أن طردته منه مضيفته في خطاب شديد اللهجة . . خاصة بعد أن رفض روسو السفر معها إلى سويسرا لزيارة الطبيب ترونشان Tronchin واستشارته . فشهرت به وناصرها في ذلك جريم وديدرو فأصبح روسو يعتقد اعتقادا راسخا في اضطهاد أصحابه جميعا له ورغبتهم في إلحاق الشر به .

خرج روسو اذن من صومعته على أسوأ حال بعد أن كان يحلم بالإقامة فيها ، يتخيل في عزلة ، وينصرف إلى التأليف . وكاننا أفاق مذعورا من حلمه فيرى فيمن حوله عصبية تتأمر على راحته وسمعته مستهدفة القضاء على صحته وحياته . . خرج منها وقد كفر مرة أخرى بالناس وبأصدقائه وبخاصة جريم وديدرو . . وأضحى شعوره بالاضطهاد يلزمه وينغص عليه حياته بل ويتفاقم كلما زادت الصدمات والمصائب مرة واحدة . . وما أكثرها في حياة روسو المسكين ، ومع ذلك فإن تلك الفترة كما قلنا كانت فترة إنتاج أدبي غزير كتب فيها قسما من هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse . وآخر من العقد الاجتماعي Le Contrat Social .

وأما هلويز الجديدة فهي في ذاتها « حلم بقطة » طويل . . رائع . . قوامه الحب العذري والطبيعة ، رسم روسو فيها الإحاسيس والمشاعر بدقة وحرارة فائقتين . فهي اعتراف وحلم وتعبير عن حياته الداخلية كما أن

فيها فلسفة لب الله على طريقة روسو . . وكان روسو وفيا لوطنه فجعل جوها بحيرة جنيف فهي من أجمل بحيرات العالم في نظره فعرف روسو الناس بسويسرا وربوعها وكان من أثر كتابته تلك أن وفد السواح من كل صوب على سويسرا ينهلون من مفاتها ويجتلون الطبيعة التي مجدها روسو فيها . . ومن أجلها أيضا استحق روسو لقبه الرائد الأول للعصر الرومانتيكي .

وكانت علاقة روسو بفولتير Voltaire حتى ذلك العهد طيبة ولكنها ساءت بسبب ما كتبه الفيلسوف دالمبير D'Alembert بإيعاز من فولتير في الانسيكلوبيديا عن وجوب بناء مسرح بجنيف إذ تصور روسو أن فولتير يريد اتعاس وطنه جنيف وافساده فكتب رسالة إلى دالمبير Lettre à D'Alembert معددا مساوئ المسرح مدلا على عدم حاجة جنيف إليه منددا بمسرحيات مولير Molière ، وهو أعظم كوميدي في القرن السابع عشر ، فهي مدرسة للردائل والعادات السيئة إذ لا تعتمد إلا على المكر والحيلة . . ولكن فولتير غضب من تلك الرسالة فكانت القطيعة بينه وبين روسو . . تلك القطيعة التي ظلت قائمة حتى الموت .

وهكذا كان أعداء روسو وحساده يتزايدون كل يوم . وفي تلك الاثناء كان روسو قد انتهى من كتابه «هلوز الجديدة» في شتاء ١٧٩٨ وبعث به إلى الناشر في امستردام فعرض عليه هذا وظيفة محرر في جريدة العلماء فرفض بقوله « لقد كنت أعلم أن امتيازي في الكتابة راجع إلى حرارة في النفس تحسن ما أعالجه من المواضيع وأنه حب العظيم والحق والجميل هو الذي يحرك عبقريتي . . لكنهم ظنوا أنني أستطيع الكتابة بالحرفة كما يكتب سواي من الادباء . . والحق أنني ما كتبت إلا تحت دافع شهوة الكتابة والفكرة » .

وفي ربيع ١٧٥٩ سكن في القصر الصغير الملحق بقصر الدوقة دو لوكسمبرج Duchesse de Luxembourg في طرف الغابة بناء على إلحاحها وساعدته الإقامة هناك على الاتصال بالمارشال زوجها وبجميع أصحابهم وأصدقائهم من الكبراء وأكسبه هذا الاتصال هناء داخليا كان منبته المتواضع يكبره في عينه .

وأما ثالث انتاجه في تلك الفترة فهو كتاب Emile انتهى منه وأودعه المطبعة ثم سقط مريضا في خريف عام ١٧٦١ وكان شديد الفلق على مصير ذلك الكتاب يخشى أن يتلفه أعداؤه وكأنما كان يستطلع الغيب .

وصدر بعد ذلك كتابه «العقد الاجتماعي» Le Contrat Social وكان قد بدأ كتابته منذ خمسة عشر عاما ٠٠ وإذا كانت هلويز الجديدة هي حلم الفرد في الحب والسعادة فإن العقد الاجتماعي كان حلم المواطنين جميعا في العدالة والسعادة ٠٠ يقول فيه : « ان ثمة عقدا بين أعضاء المجتمع هو للعقد الاجتماعي ، وقد ولد الانسان حرا وهو مع ذلك يرسف في القيود في كل مكان ، فلا بد للشعوب من رفض الاذلال ، فليس لرجل من سلطان على آخر بالقوة فالقوة ليست حقا ، وإذا استغنى الانسان عن حريته فانه بذلك يستغنى عن صفته كإنسان فيضيع حقوقه وواجباته ، والسلطة التي تنبعث عن حب الشعوب هي أعظم سلطة » .

ويعرج روسو على الدين فيقف في وجه النظريات المسيحية جمعا يناسب الكنيسة العدا قائل : ان الناس كانوا سعداء متساوين قبل حلول الاديان ٠٠ وأما الديانة الحققة فهي التي بين الخالق والمخلوق وعنها يخدم الاخير الاخلاق ويخدم الوطن ٠٠

كان روسو جريئا ثوريا في كتابته وهو وان كان في ذهنه اذ ذاك أن يكتب من أجل جنيف وحكومة جنيف إلا أنها صادفت فترة في فرنسا طابعها الاستبداد والمظالم وكانت حرية الكتابة معدومة ، لذلك اهتزت جنبات القرن الثامن عشر وارتعدت حين نهض ذلك الكاتب الجريء مطالبا بالحرية متعرضا للحكم وللكنيسة وكان ذلك الكتاب ضمن ما مهد لثورة فرنسا عام ١٧٨٩ من أمور . قال فيه ميرابو (١) Mirabeau « لقد علم روسو المبادئ النظيفة في الحرية » .

أما كتاب « اميل » Emile أو « أنجيل المعلمين » كما سماه الشاعر الالماني الكبير « جوته » Goethe فهو حلم الكاتب في تربية سليمة مثالية للطفولة ٠٠ ويعتبره بعض النقاد تكفيرا عن الجريمة التي ارتكبها روسو في حق أطفاله ٠٠ وسخر منه آخرون مستنكرين من روسو أن يعلم ويهذب ويكتب في التربية وهو الذي لم يحظ من كل ذلك بشيء وهو الذي أهمل أطفاله فأودعهم في قسوة « ملجأ اللقطاء » .

وأيا كان الجواب فإن الانسان كثيرا ما يستفيد من الاخطاء التي ارتكبها في حياته والا فما فائدة العقل والضمير اذن ؟ والكتاب في خمسة أجزاء يتبع فيها الطفل من ساعة ولادته حتى زواجه ٠٠ ويعنى في شتى المراحل من حياته بوضع أسس طبيعية يهتدى بها المربون ٠٠ ولعله بقوله

فى مستهل الكتاب الاول منه « ان كل شىء يخرج خيرا من يدى مبدع الاشياء ولكنه يفسر ويشوه بين يدى الانسان » لعله بقوله هذا يلخص طريقته تلك فى التربية.. تلك الطريقة التى تعتمد على العودة الى الطبيعة والبساطة والفضيلة ..

ولم يكن روسو أول من كتب فى التربية فقد سبقه من قبل مونتاني Montaigne وفنلون Fenelon الذى كتب فى تربية الفتيات ، ذلك فى القرن السابع عشر وأما الجديد هنا فى كتاب روسو الأمر الذى ألب عليه الحكام ورجال الدين وكان كما يقال « القشة التى قصمت ظهر البعير » فهو ما كتبه فيه عن الناحية الدينية فى تربية الطفل اذ الحق بالكتاب جزءا هو « اشهار عقيدة كاهن من سفوا » تناول فيه معجزات الرسل بأسلوب مشكك ، وكذلك « مسألة الاديان الثلاثة » ومسئولية البشر جميعا فى الأخذ بواحد منها دون الآخر ..

طبع الكتاب فى هولنده فى شهر يونيه ١٧٦٢ وظن الكاتب بذلك أنه بلغ هدفه .. ولكن نائبا بالبرلمان صرح بأن الكتاب خطر وأنه لا فائدة من احراق الكتب وانما يجب أن يحرق مؤلفوها .. فلم يكتثر روسوفى مبدأ الأمر اذ ظن أنه فى حماية الدوق دو لو كسمبرج Duc De Luxembourg ولكن صديقا معجبا هو البرنس دو كونتى P rince de Conti حذره بعد ذلك بأن من الجائز اصدار قرار بالقبض عليه ومحاكمته .

وفعلا أوقظ من نومه فى ليلة ٩ من يونيو ليتمكن من الهرب اذ كان القرار قد صدر فى اليوم نفسه وأصدرت حكومة جنيف أمرا مماثلا فى ١٨ من يونيو ١٧٦٢ وصادرت السربون La Sorbonne الكتاب وطعن فيه رئيس كهنة باريس وطعنه قرار من البابا وقضى عليه بأمر صادر من حكومة هولنده .. كل ذلك بحجة « نشر آراء تخالف العقيدة المحترمة فى المملكة » وساعد عليه وضع اسمه على الكتاب الذى نشر تلك الافكار فيه ولو أنه لم يضع اسمه عليه لما مسه أحد بسوء ولا تعرض له القانون .

هربه :

ركب روسو حتى الحدود وتغافل عنه الجنود الذين بعث بهم للقبض عليه ومر بباريس ونزل من عربته بعد أن عبر الحدود ثم قبل تربة بلاده سويسرة بعد غيبة عشرين عاما فى فرنسا دخلها شريدا يسعى وراء العيش وخرج منها طريدا بعد أن بلغ قمة الشهرة وأجيز عليها ... وحسب أنه عاد الى وطن الحرية ولكن وطن الحرية نبذه بل وأصدر أمره بحرق

« اميل » لانه ضد الدين وكذلك اتلاف « العقد الاجتماعي » لانه ضد الحكم
 .. فلم يكن الوطن أبر به من فرنسا .. وطلب اليه الرحيل عن البلاد
 فسافر الى جبال انجورا Jura وكتب يناقش الكثلكة وينقد البروتستانتية
 ومن بين كتبه ما سماه « رسائل من الجبل » Lettres de la Montagne كان
 ذلك في موتيه ترافير Motiers-Travers بعد طلب الحماية من فردريك
 الثانى Frédéric II وكان الفضل في ذلك يرجع الى صديق لروسو
 يعرف باسم ميلور مارشال Milord Maréchal وكان من أشد المعجبين
 بروسو وأكثرهم تقانيا في عونه .. وافق فردريك الثانى على ايواء روسو
 كلاجي اضطهدته حكومة لويس الخامس عشر Louis XV ولو أنه لم يكن
 يتفق معه في أفكاره بل على العكس كان الملك من المعجبين بفولتير Voltaire
 تقيض روسو في كل شيء .. وأراد ملك بروسيا أن يتعهد روسو بعدم
 العودة الى الكتابة .. لكن هذا أبى في أنفة وعزة نفس ، انما وعد فقط
 باحترام « القوانين والملك والنبلاء وكل ما تمليه عليه واجبات الضيافة »
 ولكن قدر روسو كان له بالمرصاد فعلى أثر مشادة له مع الراهب
 مونتولين Montmollin هجم الفلاحون المتعصبون على بيته فرجموه بالحجارة
 فهرب الى جزيرة « سان بيير Saint-Pierre » في قلب البحيرة من أراضي
 سويسرة وذلك سنة ١٧٦٥ .. وكان المقام في هذه الجزيرة ملهما للجولة
 الخامسة من « أحلام ليلة جواز منعزل » فقد قال في مستهلها : « لم تكن
 هناك من بين الديار التى أقمت فيها - وكانت لى من بينها ديار بديةة -
 واحدة أسعدتنى حقا وخلفت فى نفسى تلك الحسرات المرهقة سوى جزيرة
 سان بيير « Saint-Pierre » انه لم يسمح لى قط بأن أقضى سوى شهرين
 فى تلك الجزيرة وكنت أستطيع أن أقضى بها عامين بل قرنين بل والى
 الأبد دون أن ينال منى السأم لحظة واحدة .. »

حقا فان روسو المسكين الذى كتب عليه التشرد والملاحقة وعدم
 الاستقرار ، صدر ضده من مجلس شيوخ جمهورية برن Berne
 حرسوم طرده من تلك الجزيرة الساحرة التى ود لو ترك فيها بقية العمر
 .. كان ذلك فى شهر أكتوبر عام ١٧٦٥ .. ولم يقدر له أن يرى ثانية
 وطنه الجاحد منذ ذلك التاريخ ..

توجه روسو بعد ذلك الى ستراسبورج Strassbourg ووصل باريس
 فى ١٦ من ديسمبر من العام نفسه ليملك فيها أياما قليلة ضاق فيها
 بفضل الباريسيين الذين كانوا يحضرون ليشاهدوا الطريد المشهور
 فقادها فى أوائل يناير عام ١٧٦٦ الى انجلترا حيث استضافه الفيلسوف
 الانجليزى دافيد هيوم David Hume ولحققت به تميز وكتبه .. أعجبه

المقام فى بادئ الامر فليث فيه ثلاثة عشر شهرا يستعشب وينسخ الموسيقى .. ويكتب ذكرياته .. وهى سجل حياته « الاعترافات » .
Les Confession تصور فيها مآسى حياته الكثيرة وأفراحها القليلة .
ويكشف عن نفسه لا يخفى عيبا ولا ضعفا بل يسردها جميعا فى جراءة
وشجاعة مذهلتين .

ولكن روسو ما لبث - بما جبلت عليه طبيعته من عدم استقرار - أن مل طبيعة انجلترا .. تدفع بالكتابة الى نفسه بسماها يحجبها الضباب .. وبردها وأشجارها العارية .. اللهم الا بعض زهور البنفسج .. كما ذكر ذلك لصديق له فى شهر مايو ..

كما أنه ما لبث أن اختصم مع هيوم Hume ضديقه ومضيفه ولا عجب ، فقد ظل دائما فى خصام مع الفلاسفة ، ثم غادر انجلترا عائدا الى فرنسا وانتحل اسما مستعارا ، وظل شريدا مدى ثلاث سنوات تارة ضيفا على أصدقائه وتارة فى عزلة .. وعقد فى تلك الأثناء على تيريز أمام شاهدين مصححا علاقته بها .. فكافأ تلك التى تشردت بتشرده .. وقاسمته الحياة والمصير مريرا قاسيا .. ويعسد ذلك الزواج أول زواج مدنى فى فرنسا ، وكان ذلك بعد خمسة وعشرين عاما من تعرفه بها ..

العودة الى باريس :

وبعد أن هذه الترحال .. عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ليقطن فى شارع بلاتريير Platrière الذى حمل اسمه منذ ذلك الحين ..

بلغ روسو ذروة التعاسة .. ولا عجب فقد توالى الضربات على رأسه بلا هوادة ولا رحمة .. ففدا يظن العالم غاصا بأعدائه ، يحكون له المؤامرات ويدبرون الخطط للقضاء عليه .. وأحس بالظلم الفادح عليه وبرغبته فى الدفاع عن نفسه فما أن انتهى من كتابه « الاعترافات » حتى أخذ ينتقل من بيت الى بيت ومن صالون الى صالون .. يقرأها على مجموعات قليلة من الناس لعله يكذب ما يشاع عنه وليستدر عطف من يستمعون اليه .. ولكنه لم يلق آذانا صاغية بل حرمت عليه القراءة فقد كان صريحا جريئا فى « اعترافاته » فذكر ضمن ما ذكر أسماء الناس وبخاصة السيدات اللواتى كانت له معهن حادثات .. فخاب أمله وزاد عذابه .. واعتزل الناس فى يأس .. ينسخ الموسيقى .. ويهتم بالنبات ..

ولكنه مع ذلك لم يكف عن التفكير فى الحال التى انتهى اليها ..

وفى الناس وكيف ان « الاعترافات » التى قال فى أولها « ٠٠ لقد صورت نفسى على حقيقتها : فى ضعتها وزرايتها ٠٠ وفى صلاحها وحصانة عقلها وسموها ٠٠ تبعا للحال التى كنت فيها ، لقد كشفت عن أعماق أغوار نفسى كما كنت أنت تراها أيها الخالد السرمدى ٠٠ فاجمع حولي الحشد الذى لا خصر له من أبناء جنسى ودعمهم يصغون الى اعترافاتي فيثبون لخستى ويخجلون لمثالبى ٠ ثم ادع كلا منهم الى أن يكشف بدوره - وبعين الصراحة - أسرار فؤاده عند قوائم عرشك وليقل ان جرؤ » لقد كنت خيرا من ذاكَ الرجل « كيف أن هذه الاعترافات لم تكف لاقناع الناس بصلاحه وبأنه المظلوم المفترى عليه ٠٠ لذلك فكر فى طريقة أخرى ٠٠ عليها تكون أصوب وأنجع . . فأنشبت حوارا Les Dialogues أو « روسو يحاكم جان جاك » Rousseau Juge de Jean-Jacques وهو حوار وهمى يجرى بين رجلين هما جان جاك وفرنسى هو عدو لجان جاك دون أن يقابله مرة واحدة أو يقرأ سطرًا واحدا مما كتب ٠٠ أما روسو نفسه فيجهد فى أن يتبين الحقيقة وألا يكون متحيزًا ٠٠ وإنما كان جل همه - كما أسلفنا - أن يبرر مسلكه وأن يقدو انسانا خيرا صالحا فى أعين معاصريه .

كان يعتز بهذه المحاورات وكان كذلك لا يثق بأصدقائه ويتشكك فيهم حتى بأقربهم اليه فكتب منها نسخا عديدة من المخطوط ثم عن له أن يودعه مذبج كنيسة النوتردام Notre Dame فى ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ ٠٠ ليرفعه الى العناية الالهية ويؤكد أنه ظلم فى كل شيء قال فيه « يا حامى المظلومين يا اله العدالة والحق تقبل هذه الوديعه التى يضعها على مذبحك غريب تعس، وحيد من غير سند ولا نصير على الارض، معذب مضطهد . . » وما أن تقدم ليضع المخطوط حتى ارتد على أعقابيه وقد انتابته لومة هي أقرب ما تكون الى الجنون ٠٠ إذ اصطدم بالحاجز وقد أوصد ٠ فظن أن ذلك من عمل الله ٠٠ غير راض عن فعلته ٠٠ فخرج هائما على وجهه فى الطرقات طيلة النهار يقسم أن لن يطأ الكنيسة ثانية ما عاش ٠٠

ثم كتب مقالة يوزعها على من يصادفهم فى طريقه بعنوان « الى كل فرنسى لا يزال يحب العدالة والحق » A tout Français aimant encore la justice et la vérité. ولكن أضحكه أن المارة رفضوها بحجة أنها موجهة الى سواهم ٠

وهنا تحدث المعجزة ٠٠ فيشاء الله لهذه النفس المعذبة أن تهلأ بعد فورة وأن تدع عن مشيئته بعد ثورة هي الى الجنون أقرب ٠٠ وروسو عتله كالجندى الذى انتهى السلاح بعد أن أبلى وناضل ومل الكفاح ٠٠ ومن قمة الفزع

والهذيان الى سكينه مطلقة ساقته اليها فكرة طرات له وهى أن الله
جلت قدرته انما أراد بعدم ايداع روسو مخطوطه فى النوتردام Notre Dame
أن ينقذه من أيدي أعدائه المتربصين .

كتابة أحلام اليقظة :

وحينئذ وفى استسلام تشوبه مع ذلك المראה أخذ روسو يسجل
« أحلام يقظة جوال منعزل » وفيها يجتر الذكرى اجترارا ويعيش فيها وبها
ويسلم أمره للقوى المنتقم الجبار .

تلك الخطرات هى آخر ما كتب اذ أنه بعد أن ترك مسكنه بشارع
بلاثريير Platrière لعدم ملاءمته لصحته عام ١٧٧٧ استضافه مسيو
دو جيراردين M. De Girardin فى ارمفيل Ermenonville فى منزل بديع له
بالريف يحيط به الماء والخضرة . . الطبيعة التى أحبها روسو وعاش لها
. . ولكنه لم يستمتع بمقامه هذا طويلا اذ ما لبث أن قضى فى الثانى من
يوليه عام ١٧٧٨ غريبا فقيرا . . مريضا ، ودفن بارمنفيل فى جزيرة الحور
L'île des Peupliers وهى جزيرة ساكنة يلفها الهدوء الذى كان يحبه
فى حياته . . حيث زار قبره الزائرون ومن بينهم الملوك والعظماء والادباء
ورجال الدين .

نقل رفااته :

حتى كان يوم ١١ من أكتوبر سنة ١٧٩٤ فنقلت رفااته الى البانثيون
Panthéon فى احتفال كبير - فدفن أخيرا فى مدافن العظماء ليحج اليه
الناس من أقاصى المعمورة فيحيون ذكرى ذلك الكاتب العظيم . . رسول
الانسانية والداعى الى خريتها وخيرها . . مما أحله مقاما عاليا بين من
أسدوا الخير للبشرية .

هل الاحلام تنمى لـ « الاعترافات » و « الحوار » ؟

كانت قراءات روسو للروايات من كل نوع ولبلوتارك Plutarque
بخاصة فى طفولته أثرها فى حذق ذلك العالم المثالى الذى عاش فيه روسو
طيلة حياته فجعله عاجزا عن تقبل الواقع يرنو دائما نحو آفاق عالية
تتجاوزها . ولقد سجل روسو على اول البطاقات (١) التى كان يدون عليها

خواتمه « لم تكن حياتي كلها سوى حلم يقظة طويل تقسمه الى فصول جولاتي اليومية » .

والواقع أن كتب روسو جميعا كانت أحلاما ٠٠٠ كان روسو حساسا والانسان الحساس لا تترجم انفعالاته الى أعمال ولكنها تولد عنده طائفة من الخواطر والتأملات والأحلام وهذه - على ضوء ما يقوله رينيه لوسن René Le Senne (١) تولد في الروح طموحا الى الرفعة واستنكارا للوضع مما يجعله دائب البحث عما يبرر شعوره ذلك . وفي الواقع أن روسو الذي وصفه « لوسن » بأنه حالم حساس استخدم طموحه في الدفاع عن هذا العالم الخيالي المثالي الذي كان يعيش فيه منذ طفولته محاولا اشراك معاصريه في هذا الحلم جاءت كتاباته كنتيجة لذلك تستهدف المثالية وتدعو اليها واذن فانه يمكن القول بأن أحلامه لا تنقسم الى فصول بل الى كتب كل منها ثمرة لسلسلة من الجولات والقراءات . واذا نحن أخذنا مثلاً حديثه في « عدم المساواة بين الناس » أو حديثه عن « العلوم والفنون ودورها في تطهير أو افساد الاخلاق » أو « **العقد الاجتماعي** » Le Contrat Social أو « **اميل** » Emille نجد أن روسو فيها جميعا ينشد مثالية عالية فهو اذ يحلم بالقضاء على الظلم ويحلم بالعودة الى حالة الطبيعة الاولى التي تكفل وحدها اسعاد الانسان وتطهير روحه ويحلم بمجتمع سليم يقوم بناؤه على أسس صحيحة متينة من الاخاء والمساواة والمحبة ويخلو من تفاوت الطبقات ثم يحلم أخيرا في « **اميل** » بتربية مثالية للطفولة تلك التربية التي حرم منها أولاده منها فكفر عنها بهذا الحلم الطويل لاسعاد الاطفال جميعا .

وأما في « **هلويز الجديدة** » La Nouvelle Heloise فهو يحلم أيضا ، يحلم بالحب العنيف الصادق الذي لم يكن له منه في واقع الحياة نصيب ، فان روسو لم تكن له مع النساء جولات حقة لان طبيعته غير المستقرة وعدم قدرته على تنفيذ ما يصبو اليه في حياته بعد أن يكون قريبا منه جعله دائما عاجزا عن تحقيق ذلك الحب الذي صوره في « **هلويز الجديدة** » والذي يعتبر حلما من أحلامه الرائعة ٠٠ والانسان الخيالي الحالم يتحمس دائما لكل شيء جديد ولعل ذلك كان دافعه الى تحويل تعليم الموسيقى باستعمال طريقة رقمية .

الأحلام تمة للاعترافات والحوار :

كانت الظروف جميعا مهيأة لاسعاد روسو الا ظرفا واحدا ٠٠ فقد كان يظن أنه محاط بأعدائه يتابعون في عناد مؤامرتهم ضده ٠٠ ولهذا كتب

Traité de caractérologie : Presses universitaires de France, 1945' (١)
pp. 269 - 76 et 779 - 88.

« الاعترافات » و « الحوار » و « الاحلام » ليتخلص من تلك الفكرة التي استبدت به ،ذلك لان هجمات أعدائه -بالإضافة الى هجمات بعض أصدقائه القدامى - ولدت الشك في نفسه ولو انه كان يحس في قرارة نفسه بالرغبة في التأكد من ذلك الشك فكان يقول « اننى أخشى أن أكون مذبنا في قرارة نفسى » فى خطاب له الى « دافيد هيوم » Hume سنة ١٧٦٦ .

هذا ولم تجعله كتابة « الاعترافات » يعيش طفولته وشبابه فحسب بل أنها أعطته شيئا من الثقة بنفسه وبمستقبله انلك يصيح فى مستهلها قائلا « فليكشف كل بدوره عن قلبه عند قوائم عرشك وبنفس الصراحة أسرار فؤاده وليقل ان جرؤ لقد كنت خيرا من هذا الرجل » ولقد كان مقتنعا اذ ذاك بأن هذا الكتاب سوف يقشع الغيوم التي جمعها أعداؤه من حوله وبلغ اعتقاده حدا جعله يفكر فى شيء واحد هو العودة الى باريس تحت رعاية البرنس دوكونتى Prince De Conti آملا أن يدافع عن نفسه عن طريق اعترافاته . . ولما كان قد تعب من حياة كلها عدم استقرار منذ عودته من انجلترا فقد فكر أن يعيش فى بلد بعيد ولكن رأيه استقر أخيرا على الإقامة فى باريس اذ كان يأمل أن ينتصر على أعدائه فيستعيد هدوء نفسه . وفى ربيع ١٧٧٠ عاد الى باريس لينتصر على المؤامرة التي كان يعتبر نفسه ضحية لها . . فقام بقراءات خاصة لـ « الاعترافات » وكانت الستة الاولى منها لا تحوى تعريضا بأحد فمرت بسلام أما الكتب الستة الاخيرة فقد تناولت بعض ذوى المكانة من أمثال مدام ديانى بالتعريض وسعت هذه لدى السلطات المختصة لايقاف تلك القراءات وكان لهذا المنع عواقبه الوخيمة على نفسية روسو فأسلمته الى أزمة طويلة . . كتب خلالها الحوار . . بعد أن فقد الأمل فى تعريف الناس بالاعترافات فى حياته . . وهكذا نراه يلجأ الى طريقة أخرى يظهر بها انه ضحية ظلم صسارخ . . فتخيل ذلك الازدواج الذى كان يبرز جانبا من شخصيته فى « الحوار » . . . وهذا العمل الادبى الطويل ليس - كالاعترافات - سردا متصلا لتاريخ حياته بل هو يعرض ثلاث محاورات من جان جاك بين رجل فرنسى وروسو تشير الى أن هذا الفرنسى برغم أنه لم ير الكاتب فى حياته ولم يقرأ له فانه يكرهه لا لسبب الا لانه يثق ثقة تامة فى الفلاسفة وافتراءاتهم . . وما الآخر ولو ان اسمه روسو فانه ليس روسو تماما بل هو عقل مستقل ميزن لايعرف عن روسو سوى كتبه ويريد مع ذلك أن يدرس روسو نفسه . . وخلاصة الأمر أن روسو يحلل نفسه وأن روسو يحاكم جان جاك ويستمر الحوار حتى يبدو جان جاك نقى الصفحة طاهرا فى نهاية الامر . . وفى هذا شفاء لقليله عن تلك الصورة المشوهة التى صوره بها أعداؤه . .

وينتضح من ذلك أن كلا من « الاعترافات Les Confessions ومن
« الحوارات Les Dialogues كانتا تستهدفان تبرير تصرفاته وتوضيح موقفه
وكذلك كانت « الاحلام » ومن ثم فإن « احلام اليقظة Les Rêveries تعتبر
بحق متابعة لهما وتتمه ٠٠ انها تبدأ حيث انتهتا ٠٠ وهو يشير أكثر من
مرة في « الاحلام » الى ذلك كما يشير الى صدق « الاعترافات » أو يحاول
تصحيح بعض وقائعها أو يعتذر عن بعض أخطاء جاءت بها معللا إياها
بضعف ذاكرته ٠٠ لقد جهد روسو في أن يهرب من مخاوف الاضطهاد
وقد نجح الى حد كبير فقدت له بعد ذلك سذاجة الاطفال وبراءة مباحثهم
٠٠٠ كان ميالا بفطرته الى العزلة فطغى هذا الميل على نفسه حتى غدا غير
صالح للحياة في المجتمع ٠٠ بل ان مخالطة الناس أضحت بالنسبة اليه
شيئا كريها يحزمه أحلى المتع وهي التأمل في الطبيعة والانفراد بنفسه .

تقديم للجولات

« أحلام اليقظة » Les Rêveries هي آخر أعمال روسو الأدبية اذ كان لا يزال يكتب مستهل الجولة العاشرة في الثاني عشر من ابريل عام ١٧٧٨ قبل مغادرته باريس للمرة الأخيرة بزمان قليل . ويرى بعض النقاد أن الفكرة الاولى في تسجيل « أحلام اليقظة » ترجع الى خريف عام ١٧٧٦ بعد مضي بضعة شهور على الحالة الصحية والنفسية التي استبدت به وغدا فريسة لها حين حاول أن يودع مخطوط الحوار Les Dialogues في كنيسة نوتردام Notre Dame ولكنه لم يفلح اذ حالت الحواجز دون ذلك . .

وكان يعلم أن أحلامه في سبيل الأفول اذ كان يحسن .
« بالبرودة تسرى فيها » وأنه كان يقترب من النهاية . .

وعد كتب السبعة الاولى منها في خط صغير وان كان مقروا . . وشاء كرم صديقه المربي دوجيرارد De Girardin الذي استضافه في آخر حياته بارمونفيل Ermenonville حيث مات - أن يجمع في حرص وعناية كافة الأوراق التي خلفها روسو وسهل للناسرين بعد وفاة الكاتب الكبير نشر ثلاث جولات أخرى استخلصها من مسودات مجموعة في كراسة تشبه الاولى تماما . . هذا بالإضافة الى سبع وعشرين ورقة من أوراق اللعب مودعة في مكتبة نيوشاتل Neuchatel .

بمؤسسا كان يسجل عليها روسو افكاره خلال جولاته وتعد مرجعا
للأحلام كذلك .

ولقد تدرج روسو خلال اعوام حياته في مختلف الحرف والاعمال ..
واحتفظ لهذه الاعوام الطويلة بذكريات مريرة قاسية .. ثم أنتج خيرة
نماره العقلية .. وكانت له شهرة واسعة لها دوى .

كان ينسخ الموسيقى وكان يكتب وكان يربط الأوراق بشرائط
جميلة وكان يرتب النباتات بعناية كان يحيا بحواسه ولكنه الآن في
آخريات العمر أصبح يعيش على لون جديد من الحياة لم يمارسه في عمق
من قبل وان اعتاده .. بدأ يحس احساسا قويا بالاصوات الرائعة والسماء
الجميلة والريف البديع والبحيرات الفاتنة والازهار والعطور والعيون
الساحرة والنظرات الحلوة البريئة .. انه لا يزال يذكر زوايا مماثلة من
ماضيه البعيد .. تنتابه الحسرة أحيانا على فواتها ويشده الألم أحيانا
أخرى لانه لم ينهل منها بقدر ما يطيق أو لانه لم يدركها الا بعد فوات
الأوان ..

كانت الاستثارة الحسية تسلمه الى نشوة عاطفية .. وكانت الطبيعة
تبدو له وكأنها هي كائن حي يزخر بالجنان فيرتمي بين أحضانها ليجد
أجمل العزاء .. كان الخيال في صغره يلعب الدور الهام من حياته ، أما
بعد أن تقدمت به السن فلم يعد له سوى أن يستسلم للذكريات .

ولئن تخللت هذه الذكريات بعض مظاهر الشنوذ العقلي فانه كان
يستشعر فيها الهناء المطلق .. كان يحسه في هذه اللحظات القصصار
التي يجمعها فيها كما كان يحسها في أعماق عقله الباطن تتصاعد فجأة
في لذة غامضة تستدعيها أمور عدة ..

ولئن قصر خياله أحيانا فانه أدرك كيف يحيى الذكريات أحيانا
أخرى .. ولئن ضاعت الاحداث في غمار النسيان بفعل الزمن فان تداعي
المعاني وبعض صفات معينة وبعض مظاهر الحرارة والضوء كانت كفيلة
بإعادتها الى ذهنه .. والواقع ان « أحلام يقظة جوال منعزل » هي في مجموعها
ذكريات :

أهى ذكريات شيخ لماض بعيد غير كثيرا من نواحي الصورة فيه حتى
لتمتزج الاسطورة والخيال بالحقيقة ؟

أم هي اعتذار عن بعض أخطائه ومحاولة لتبريرها أو الدفاع عنها ؟

أم هي تفسير لبعض ما مر به ؟ أم هي تسجيل لخواطر وخلجات هي ثمرة تجارب وتفكير رجل قدر له أن يفرض نفسه على الفكر الانساني ؟

لقد كان يلذ لروسو أن يستمد من آلامه متعة وكان يردد أنه يعيش حقا في « أيام الاضطراب والقلق » ان أشد الساعات ألما تحل في النفس أعمق الآثار ومع الزمن تغدو ذكراها وهي تحمل فرحا لا ذعا . . . وتعاة مع ذلك » .

- ومن عجب أن ذاكرة روسو تتوقف كذلك طواعية عند أيامه السعيدة وليس في شيخوخته سعادة أكثر من الشهرين اللذين قضاهما في جزيرة سانت بيير Saint-Pierre وكذا في الشارميت Les Charmettes

لقد كف روسو بعد كتابة « الحوار » Les Dialogues عن الدفاع عن نفسه أمام مهاجميه وأعدائه فاستسلم لقرنه . . ثم مال . . كعادته . . الى العزلة . . الى الهدوء والاعتكاف . . كان يعلم أنه يقضي أيامه الأخيرة مستشعرا دنو أجله . . فظل ينتظر الموت في وقار ، يتجهز له ويعد ، للمرة الأخيرة حسابا يمثل به أمام الله ويستعيد ماضيه بما تخلله من لحظات سعيدة فيعيشها بذلك مرتين .

عاد اذن يمسك القلم ويعاود الكتابة دون أن يكثرث بالناس ودون أن يهتم بما يدبرون بعد أن اعتزلهم الى عالم هو عالمه وحده لانه من خلقه . . فسطر بذلك صفحات رائعة في موضوع جديد يتفق أولا ومزاجه الطبيعي ويعد أخيرا خيرة انتاجه قاطبة .

بل إن عنوان هذه الصفحات التي أتناولها بالترجمة والتعليق تكشف عن روحه تماما . . ان فيه لوما وعزاء . . لوما يوجهه الى من أكرهه على الانفراد والعزلة . . وعزاء له في تلك الاحلام الحلوة يخلق فيها في حله وتجواله فتعوضه في سخاء عما حرمة منه معاصروه من هناء وراحة .

لقد ضاق المسكين بقسوة الناس فاعتزلهم وباعد ما بينه وبينهم وراح يضرب في الخلاء منفردا بنفسه ، مستمتعا بالطبيعة مدركا للخالق مستغرقا في أحلام طويلة يسترجع بها بعض أحداث ماضيه ، مناقشا اياها في ضوء الهدوء الذي بلغه والسكينة التي تحيط به . . . لقد أعادت هذه الذكريات الشيخ الى نفسه فكانت تعبيرا عن حقيقة حياته . . وهي حياة حواسه وقلبه . . أما الاحداث والعالم الخارجى فلم تعد بعد شيئا مذكورا بالنسبة له ، انها لم تعد سوى فرصة للاستمتاع ووسيلة للتفكير . . وهكذا

تحققت له أخيرا الحياة المثالية التي طالما تاق لتحقيقها وهي العنالم الذي
صاغه لنفسه .. خياله ..

فالأحلام على هذه الصورة ليست موضوعا واحدا بل هي مجموعة
من الخواطر والخلجات ترابطت أحيانا وتباعدت أحيانا أخرى شأنها في
ذلك شأن الخواطر دائما حين تقوم على نبش بعض أحداث الماضي البعيد .
وهاك الجولات مرتبة كما جاءت في مختلف المراجع أقدمها معلقة على
فجواتها :

الجملة الأولى

تعد هذه الجملة مقدمة للكتاب كله . . فيها يبدو روسو راضخا لحكم الأقدار وقد عادت اليه السكينة والهدوء - وهما نسيبان اذا ما قورنا بما كان عليه من اضطراب ويأس . . . سيدافع مرة أخيرة عن نفسه ويبررها أمام مضطهديه ويدرس نفسه . وهو يسجل أحلام يقظته التي تعرض له أثناء جولاته المنفردة . ولكنسه يقرر هنا أنه انما يكتب رغبة في الكتابة ورغبة في قراءة ما يكتب فيما بعد فيجد متعة في ذلك ويحيي بذلك مرتين . . لا من أجل أجيال قادمة وفي ذلك تختلف في اعتباره عن الاعترافات Les Confessions وعن الحوار Les Dialogues ولو أن الاحلام Les Rêveries تعتبر ملحقا للأولى . .

« هانذا وحيد في هذه الدنيا لم يعد لي أخ أو قريب أو صديق أو صحبة سوى ذاتي » : بهذه الكلمات التي تفيض حسرة والمأبداً روسو بناء مؤلفه وهي تكاد تكون عتاباً يوجهه الى الانسانية التي ألجته الى الانفراد والعزلة . . انها صرخة نفس معذبة جريحة يتنازعها الألم والكبرياء . . ولكنها الآن

فى سكينته لم تخل تماما من آثار العاصفة ، فان تلك السكينة لم تمنعه من أن يتحسر على مصيره ومن أن يتذكر المحن التى قاستها نفسه المرهقة . . .
أما وقد انفصل عن الناس رغما عنه فهو يسأل نفسه « من أكون أنا
نفسى ؟ » أى أنه عن طريق أعدائه يود التوصل الى معرفة ذاته . .

ماذا كان ينشد لدى الناس ؟ لقد كان ينشد فى كل منهم اخا واذا لم يوجد هذا الأخ فقريب والا فصديق أو على اقل تقدير صاحب . . وهو اذا فقد كل أمل فى الصلح مع الناس يذعن ويرضخ للأقدار ولكن تتخلل هذا الازعان ذكريات أليمة تعود به خمسة عشر عاما الى الوراء ، ولما كان روسو يكتب هذه الجولات عام ١٧٧٧ فهو اذن يشير الى عام ١٧٦٢ أى الوقت الذى أحرق فيه كتابه اميل Emile وحكم بالقبض عليه والى ماكان من رجم بيته وهربه بعد ذلك وعدم استقراره . . وهى مرحلة كلها خوف وقلق وآلام واذلال لا يستطيع أن ينساها هنا . . هو الذى يزيد أن ينسى الناس وشروهم . . لقد جعلوا منه سفاكا وقائلا وأهالوا عليه كافة ألوان المهانات والاذلال . . هو من خلق أشد الناس حبا للناس . . ولكنهم بذلك استنفدوا كل حيلهم دفعة واحدة ولم يعد لديهم من مزيد . . لذلك هو مطمئن ما داموا « قد فعلوا كل شيء » بل انه سيهزأ بهم ومن بغضائهم . . فلا سلطان لهم عليه بعد . . ولكن من هم مضطهدوه ؟ أولئك الذين جعلوا الحياة فى عينيه سوداء قائمة . . وهل كان هناك حقا اضطهاد قبل روسو ؟ فى الواقع انه اذا ما كان للخيال نصيب فى هذا الاعتقاد فان نصيب الحقيقة فيه كبير فلا يجب أن ننسى ديدرو Diderot وتذيراته ، وجريم Grimm ومدام دابنساى Mme d'Epinay التى انسقت له والتى رمت روسو باليهود والانانية ، وفولتير Voltaire الذى كان ينتهز المناسبات لغزوه والتندر بأرائه والتشهير به . . والكنيسة فى جنيف Genève ومجلس شيوخ برن Berne والأطباء الذين عرض بهم فى كتاب اميل Emile والسلطات التى حرمت الاستمرار فى قراءة الاعترافات . . كل ذلك بذر الشك فى نفسه من ناحية كل من يحيطون به حتى أصدقائه . . وجعله يرى من حوله مؤامرة عريقة محبوكة الاطراف لهدمه والقضاء عليه . .

وهو يشير فى هذه الجولة الى أنه - فيما مضى - كان يأمل فى الناس ولكن قضى على هذا الأمل منذ شهرين حادث مؤسف غير متوقع . . مشيرا الى محاولة ايداعه مخطوط الحوار فى الكنيسة . . وفشله فى ذلك مما

أسلمه للهياج والاضطراب ثم أخيرا ، وبما يشبه المعجزة ، الى الهدوء
والسلام بعد أن أقنع نفسه أن الله تدخل لمنع وقوع مخطوطه فى أيدي
أعدائه المتربصين به ..

ولكنه يمتحن فى انفصاله عن الناس فيقول : « لم يعد هناك ما أمله
أو أخشاه فى هذه الحياة ، كائنا مسكينا تعسا لكن صامدا كالاله نفسه » .
أى انه فى غروره يشبه نفسه بالله تعالى .. وهو بعدئذ يشير الى الهدف
من كتابته .. السجل الذى يتقدم به يوم الحساب الى الله ... وهو فى
ذلك يختلف عن الفلاسفة المجددين .. انه يؤمن بالله وباليوم الآخر وهو
« يكتب لنفسه ليعيش مرتين » ولكن أصحح ما زعم ؟ اننا اذا سلمنا أن
أحلام اليقظة Les Réveries هي المتعة الحققة لروسو وأن التخيل سلوته
الوحيدة لكان من الممكن أن نرى روسو يكتب يوميا .. كتابة ينقصها
هذا التكامل والجمال والموسيقية التى امتازت بها الأحلام .. ولما كان
هناك الحذف والكشط والتصحيح ووضع كلمات مكان أخرى كما وجد
المخطوط الأصلي للأحلام نينوشاتل بسويسرا ، ولكنها الرغبة المستترة
التي دفعته الى الدفاع عن نفسه وتبرير مواقفه هي التى وجهته الى هذه
الناحية .. انها تكملة للاعترافات ولكنه لن يستطيع أن يعطيها العنوان
نفسه لانه لم يعد لديه ما يعترف به ومن يعترف اليه .. وقد انقطعت
صلاته بالناس جميعا .. لا .. بل انه سيجرى التجارب على نفسه ويسبر
أغوارها بعناية ويدرسها ويعمل مثل مونتاني Montaigne ولكن «مونتاني» كان
يكتب للآخرين أما هو فلنفسه .. وهو أخيرا لن يهتم بمصير هذا المخطوط ..
الأحلام .. كما اهتم بمصير الاعترافات Les Confession والحوار
Les Dialogues حينما اراد ان يخفيهما عن أعدائه ومضطهديه .

وهكذا نجد فكرة الاضطهاد ترد على لسان روسو مرات كثيرة فى
هذه الجولة . ان فيها من الحوار Les Dialogues الكثير ، تتردد فيها نفس
المعاني والافكار .. تلك حالة روسو النفسية فى هذه الجولة : أن الكاتب
الذى اعتزم أن يقضى بقية أيامه فى عزلة ووحدة والذى يؤكد أنه يكتب
هذه المرة لنفسه لا يستطيع أن يمتنع عن أن يبحث عن أسانيد وأسباب
تبرر هدفه .. وهو الذى بالرغم من جهوده فى مخالجة نفسه وعزمه ..
لافتقا ذكرى الناس وصور أحدهم تعاوده وتشقيه .

ومما يجعل للأحلام وبخاصة فى هذه الجولة هذه اللهجة المؤثرة هو
امتزاج الدفاع فيها بالتحليل النفساني وبالذكريات .

الجمولة الثانية

وأهمية هذه الجمولة كبيرة لامن ناحية قصة حادث منيلمنتان - وهو محورها - فحسب بل من ناحية الحالة النفسية لروسو على أثر الحادث .

أثناء عودة روسو من إحدى جولات الاستعشاب اصطدم به كلب دنمركي كبير بجميع جسمه وهو يجرى في سرعة فائقة فوق روسو على الأرض وأصيب إصابات جسيمة في وجهه ويديه .

كان ذلك الحادث في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٧٧٦ في ضاحية منيلمنتان Menilmontant من ضواحي باريس . أما هذه الجمولة فقد كتبها في ديسمبر أو يناير ذلك لان زوشنو ينوه بما كتب عنه في كورييه دافنيون Courier d'Avignon في يومي ٣ و ٢٠ من ديسمبر أي بعد الحادث ، بعد فترة نقاهة وبعد أن انقضت أسابيع طويلة لكنها مع ذلك ليست بعيدة جداً عن الحادث فهو يستطيع أن ينقل إلينا الحوادث بدقة

كما أنها بعيدة عن الضدمة نفسها بما يكفي لان يحلل روسو الانطباعات التي خلقتها وترتيبها وتنظيم كتابتها في هدوء .

بدأها من حيث تنتهي الأولى . . بمقدمة طويلة يصف لنا مدى استعداد نفسه للمشروع الذي عرضه في الجولة الاولى وهو ملاحظة نفسه « علميا » اذ ثبت « البارومتر » على أعماقها ولكنه يأسف اذ لم يفتن الى عمل ذلك من قبل ، قبل أن تختفي ملكته الخالقة وبعد أن بات يحس « بروح الحياة تدوى فيه تدريجيا » فهو يدرك أنه شارب تلك السن التي يضعف فيها التخيل لتقوى الذاكرة فالانسان يعيش اذن على رصيده من الماضي لعجزه عن أن يتجدد . وأن يخلق . . وهو يتحدى أعداءه ومضطهديه بل يمضى في سحرته بهم فيقول : انه لولاهم لما استمتع بتلك اللحظات من السعادة ومتعة التأمل وبالتالي لما نسى تعاسته وشقوته وهو يبدو هنا وكأنها يقول لهم « موتوا بغيظكم لن تنالوا منى بعد ولن آبه بكم » . .

ولكن لئن ترتب على ذلك الابتعاد عن الناس والاحساس بالهدوء بعيدا عنهم شيء من السكينة وشعور بالانتصار فإن فرحته بهما تمنعه من أن يلاحظ حالته النفسية كما أراد وعجزه عن الخلق والتجديد يجعله عاجزا أيضا عن أن يحلل نفسه . وهو يصف لنا تلك الحالة بدقة في جملة واحدة فيقول : « واني اذ أريد أن أسترجع أحلاما حلوة أراني أستسلم لها مرة أخرى بدلا من أن أضفها » وهو في ذلك يشبه رجلا يريد أن يسجل آثار الكحول عمليا مثلا فيشربه حتى لا يعود يتذكر شيئا بالمرة .

ولكن الجديد هنا هو تحليله لآثار الحادث وإشارة الى بعض ما قيل عنه بعده وما انعكس من ذلك على حاله المعنوية . انه يذكر كل شيء في كثير من الدقة ، يذكر خطر سيره ويذكر التاريخ كما لا ينسى أسماء الزهور وفصائلها ولا الانطباعات المختلفة التي سبقت الحادث والتي أعقبته وفي كل ذلك شيء من التعارض مع ماقرره لتوه من عجزه عن الملاحظة الذي يشكو منه .

ان حادث اصطدام روسو بكلب كبير ، نتجت عنه بعض الاصابات ، حادث عادي في ذاته لكنه ولا شك يحتل حيزا كبيرا هاما في ذهن انسان كروسو يحس اضطهاد البشر له فيعذبه ويظلم حياته . . ولعل المالبس تلك الحادثة من قصص وأقوال وكثير منها ان دل على شيء فانما يدل على روح شامتة ساخرة مما يزيد الطين بلة اذ يبلغ تشكك روسو ذروته فلا يعود يثق بأحد حتى بأولئك الذين يودون أن يقدموا له الخدمات ، فقد

أشيع أنه مات ، وقيل أنه أحسن إذ فعل كما اختلف الآراء في تفاصيل الحادث نفسها ولعل بعض الشامتين الساخرين كانوا أولئك الذين ينتظرون في قلق بالغ ظهور مؤلفه « الاعترافات Les Confessions وفيها الكثير مما يكشف نواحي يحرصون على إخفائها » .

نشرت جريدة الكورييه دافنيون Douviers d'Avignon في ٣ ديسمبر عام ١٧٧٦ خبر الحادث فقالت « لقد أوقع كلب دانركي روسو منذ بضعة أيام وهو مريض جدا نتيجة لسقطته » وفي العدد التالي كانت تكتب عن موته قائلة « لقد عاش فقيرا ومات فقيرا » ثم تصفه ككاتب فصيح لا يجب أن يتكلم الانسان عن مواهبه لأنه « أساء استعمال تلك المواهب » .

قد تثير هذه الكلمات أكثر الناس هدوءا فما بالنا بروسو وقد زادت صدماته واحدة بفضل كلب يملكه أحد الأغنياء .

أرسل له من يدعى ميسيو لنوار M. Lenior يعرض عليه خدماته عن طريق سكرتير له ومعجبة هي مدام دورمو Mme D'Ormooy بعثت اليه كتابا يتضمن مديحا لشخصه فرفض عروض الاول وكانت القطيعة بينه وبين الثانية .

وقد كان من الجائز أن تتغير نظرتة للناس ولو قليلا لو انهم أبدوا نحوه في تلك المناسبة شيئا من الود والعطف والرعاية فهو انسان حساس طيب القلب ، ولكنهم لم يشاءوا الا أن ينفروه بقسوتهم عليه . انه يتألم ولكنه يتقبل الألم . تقبل المؤمن بالله فيقول « ان الله عاذل ولكنه يريد أن أتألم وهو يعلم أنني بريء » .

ومع ذلك فقد كتب روسو لنا تلك الجولة المرتجة في أفكارها الصادقة في تحليلاتها إذ تعد نموذجا للانشاء القوى البديع المنظم

ال الجولة الثالثة

كما ان هناك فكرة تصل الجولة الاولى بالثانية ، هناك واحدة تصل هذه بالثالثة مما يجعل من هذه الجولات الثلاث موضوعا يكاد يكون مترابطا تماما . . وعنوان هذه الجولة «انى أشيخ ولا أزال أتعلم» يشير بذلك الى بعض ما جاء بها .

ونحن اذ نجد فى نهاية الثانية هدوءا لم يصل اليه روسو من قبل ولكنه انتهى اليه فى احساساته وذهنه واستمدته من استسلامه لكل أنواع الاضطهاد ولشبهة الله نرى هنا الهدوء الفكرى والنفسى الذى استقر عليه نتيجة لاعتناقه بعض المبادئ الاخلاقية ولصلاحه لنفسه ووضع أسس لعقيدته وسلوكه . . ومن هنا كانت هذه الجولة على قدر غير يسير من الاهمية .

يستهلها بمقدمة هى تأمل فى الشيخوخة عموما وفى شيخوخته خاصة وفى نوع المغانم الفكرية أو المعنوية التى تلائم تلك الشيخوخة ويشفعها بحقائق عادية لكنها تغدو هامة اذ يطبقها روسو على نفسه فتتخذ بذلك طابعا شخصيا . .

منها أن الانسان يتعلم معرفة الناس متأخرا فهو لذلك لا يفيد من تلك المعرفة ، وإنه يجدر به حتى يسعد في حياته ان يجهل ما قد يحزنه ، وإن الوهم خير من حقيقة رهيبة ، وأن علم الحياة تهيئة للموت . . وأخيرا أن الشيوخ يتعلقون بالحياة أكثر من تعلق الشباب بها .

تلك الوقائع وإن كانت عادية كما قلنا إلا أنها تلقى الضوء على فلسفة روسو في الحياة . . انه يرى أن الشيخوخة هي وقت تعلم أشياء مفيدة هادفة ، فلا يترجم بعضهم مثلاً كتاباً أو يقوم بأبحاث في الرياضة . انه هو ذاته حين يمارس جميع النباتات فلأنه يطبق ذلك تطبيقاً مفيداً ويتريض في الهواء الطلق في الوقت نفسه . وهو إذ يرى في سعادة الانسان جهله بما قد يحزنه يطبق ذلك على نفسه فيقول : « لقد كنت مغفلاً وكنت ضحية لهم لكنني كنت أظنني محبوباً منهم وكنت أستمتع بتلك المحبة التي أوحوا بها الي » .

وإذا ما قال ان الوهم خير من حقيقة رهيبة نجس أنه لابد وقد بذل جهداً كبيراً ليقول ذلك هو الذي يقرر أنه أشد الناس حبا ومراعاة للحقيقة مهما كانت . ونذكر مع ذلك تأله البالغ لتلك الحقيقة وعنده الى الهروب منها . .

وأما الحقيقة الرابعة فهي تنطبق عليه الى حد كبير فإنه برغم ايمانه العميق يلاحظ بنفسه أن فكرة موته لا تحتل إلا حيزاً صغيراً من تأملاته . والحقيقة الخامسة مصداق لما يفعله روسو نفسه في هذه « الجولات » انه يحاول العودة الى الماضي يستعيد « ليحيا بذلك مرتين » كما يقول .

ثم هو يتناول بعد ذلك ثلاث مراحل من حياته مرحلة قبل اصلاحه لامور نفسه وأخرى خلاله وثالثة حين تم ذلك الاصلاح .

فهو يتكلم عن نشأته بين أناس يدينون بالتقوى أي أسرته ومعلمه (مسيو لامبرسييه M. Lambercier) ثم مدام دوفواران Mme de Warens التي أنارت له طريق المعرفة وملأت قلبه بمشاعر الود والتقوى . والواقع أن تلك النشأة لم تكن دائماً سلبية لا تشوبها شائبة فنحن نعرف أباء وكيف أنه علمه كيف يقرأ القصص والروايات قبل الكتب الجادة وهو لما يزل طفلاً صغيراً ثم لم يلبث أن هجره ، وأما القس لامبرسييه Lambercier علم يكن دائماً فوق مستوى الشبهات ومع أنه علم الطفل تعاليم الدين

البروتستانتى الا أن هذا سرعان ماتحول الى الكاثوليكية فى يسر على يدى مدام دوفواراز Mme de Warens التى كان سحرها وعطفها أقوى لديه اذ ذاك من كل دين فنجده يقول فى «الاعترافات» Les Confessions «وقلت فى نفسى ان دينا يدعو اليه مثل هؤلاء الرسل لابد مؤد الى الجنة » .

وهنا عبارة تستحق التفسير انه يقول : «لقد تحولت الى كاثوليكي ولكنى بقيت مسيحيا» لاريب أنه يعنى هنا بالمسيحية الايمان أى انه لايجد تفرقة بين الكاثوليكية والبروتستانتينية . وعلى ذلك يمكن القول ان ديانة روسو كانت فى قلبه فحسب وهى دين طبيعى لا يتقيد بمراسيم ومظاهر ولا بهم فيه أن يعتنق مذهبا بعينه .

يقول روسو أنه كان قد حدد سن الاربعين كمرحلة لاصلاح حال نفسه خارجيا وداخليا ، ولما كانت تلك الفترة من حياته هى التى تلى حديثه عما «اذا كانت العلوم والفنون قد ساعدت على تطهير العادات» فقد أحس ضرورة تطبيق آرائه على نفسه أولا ليكون متمشيا معها وحتى لا يبدو أمام الناس متناقضا مع مايكتب . فتخلى عن كل زينة «فلا ساعة ولا سيف ولا حل ذهبية بل رداء سميك من الصوف» ولكن للإسف لم تزد تلك الخطوة الفلاسفة الا دهشة وتعجبا بل انهم اعتبروه مجنونا وبخاصة ديدرو Diderot اذ يبدو على تلك الحال من التقشف وهو على أعتاب الشهرة .

وكان ذلك أحد أوجه الخلاف بينه وبين الفلاسفة الذين يسميهم بـ «السفسطائيين» والمعروف أن السفسطائيين Sophistes وهم قوم اشتغلوا بالفلسفة قديما كانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء وينادون بأنه يجب أن يتحرر الانسان من القانون الأخلاقي وأن يساير الطبيعة وهى عندهم الشهوة . ثم جاء من بعدهم سقراط Socrate وأفلاطون Platon وأرسطو Aristote الذين هاجموا تلك الطبقة من السفسطائيين . وكان الأخير - أى أرسطو - يعتبر الانسان عقلا وحسبا ، وعلى العقل أن يسيطر على شهوات الحس والجسم وأن يضع القانون الحلقى الذي ينبغى أن يسير بمقتضاه سلوك الانسان ولعل روسو هنا وقف من فلاسفة عصره موقف أرسطو من السفسطائيين قديما .

لقد أحس فى تلك الفترة بثقة فى نفسه جعلته يؤمن بمواهبه فى الكتابة وكانت العزلة بعيدا عن صخب المجتمع ضرورية لتنمية تلك المواهب ومساعدته على التفكير فى هدوء وتأمل فابتعد عن الناس واعتكف . ولكن انار ذلك فضولهم لمعرفة سر اختفائه . ولقد بين لنا روسو فى «الاعترافات» Les Confessions الظروف الخارجية لهذا الاضلاع الخلقى فقال انه كان

يعيش طيلة الوقت في الغابة ، كنت أبحث فيها وكنت أجد فيها صورة العصور الاولى التي كنت أسجل في فخر تاريخها . . . وكنت أقارن بين الانسان صنعه الانسان ، والانسان صنعه الطبيعة .

وفي تلك الاثناء كتب حديثه عن عدم المساواة بين الناس
Discours sur l'inégalité parmi les hommes.

كانت الطبيعة والعزلة عنده مصدرا للفضيلة وعن طريقهما يلتقي بالله وبضميره . . . ولكن كان هناك أيضا ميله الى العزلة اذ ذاك لانه كما قال هنا « بدأت أحس (بالمؤامرات تحيط بي) تدريجيا » .

ولكننا هنا حيال نفسية معقدة هي نفسية روسو التي أسهم في تعقيدها البشر والاقدار على السواء لذلك كان من العسير سبر أغوارها وتبين دوافعها الخفية في وضوح .

وأما نتائج ذلك الإصلاح فقد ضمنها كتابه « اشهار عقيدة كاهن من سفوا La Profession de foi du Vicaire Savoyard ولكن على أي أساس اقام تلك العقيدة ؟ . . » انها مبادئ يملئها على روسو احساسه الذاتي ، هذا الحس المستتر فيه ، ذلك الالهام الذي ينبعث من أعماق قلبه والذي طبعته الطبيعة بحروف لا تمحي .

انه يعتقد في وجود اله منظم للكون وفي أن الانسان حر واذن ففي امكانه أن يذنب وان يجلب الفوضى والاضطراب في عالم كان كل شيء فيه مهيا لسعادته .

وهو يعتقد في خلود الروح ويفترض أنها لا تموت فيقول « ما دام ذلك الافتراض يعزيني ولا يتضمن شيئا من عدم العقل فماذا أخشى من تسليمي به » ولذلك يتعلق بأهداب عقيدته تلك التي تقول له « كن عادلا تكن سعيدا » .

وعنده أن الوازع الأخلاقي لا ينفصل عن العقيدة الدينية وهو لا يؤمن بالوحي ولا بالمعجزات .

وهكذا نجد روسو في حاجة الى أن يعتمد على احساسه الذاتي وعلى منطوق قلبه حتى تتكامل أركان عقيدته

وفي نهاية هذه الجولة نجد روسو وقد عاد الى الفكرة الاولى التي

استهلها بها .. انه يكرس أخريات أيامه لدراسة أكثر فائدة وأكبر قيمة
هى دراسة نفسه والتزامه لفضائل يساعده عليها تجرده من جسده الذى
يقش عينية عساه أن يخرج من الحياة بميتة هادئة طيبة تكفر عما قاساه
فى أيامه من شقاء .

ولكن هذه الثقة وهذا الهدوء نراهما وقد اعتراهما بعض القلق
والاهتزاز فى الجولة التالية الرابعة .. حيث يعرض مسألة الكذب .

الجولة الرابعة

فى هذه الجولة جدال طويل حول الكذب والحقيقة وهى تقل عن سابقتها فلسفة وعمقا ولكنها تعكس مع ذلك حالة روسو الذهنية المعذبة . انه لا يزال يخاف عذاب الله فهو يحاول أن يبرر أخطاء له فحوارها الكذب فى قالب دراسة أخلاقية . ولهذه الجولة - كما لمعظم الجولات - نقطة بداية هى فى هذه المرة كتاب تلقاه من الاب روزييه L'Abbé Rozier وترجع الصلة بين روزييه وروسو الى عام ١٧٦٨ « قام معه بجولات استعشاب طويلة كان من شأنها تقوية الروابط بين هذين الفيلسوفين » (١) . لما بينهما من توافق فى الطباع والميول . بدأ روزييه هذا الكتاب بفقرة جاء فيها : « الى الرجل الذى يكرس نفسه للحقيقة، وبدلا من أن تمر هذه الفقرة ببساطة يرى روسو فيها هزا وسخرية به وتعريضا بشخصه ومنشأ ذلك بلا ريب هو الشك الذى استولى على نفس روسو فى السنين الاخيرة من ناحية أصدقائه جميعا . ولكنه لا يتشكك فى روزييه Rozier فحسب بل يعتبره عدوا له . وهو فى

هذا يلجأ الى كتاب من أوائل الكتب التي قرأها في طفولته يقول : انه لا يزال يتابع قراءته في أواخر أيامه . وهو بلوتارك Plutarque الذى كتب عن « طريقة افادة الانسان من أعدائه » .

وهو - على ضوء ما فهمه من كتاب الاب روزييه - يبدأ بفحص نفسه من ناحية الكذب . ويروى هنا حادثا وقع له فى صباح سبق أن رواه كذلك فى الاعترافات Les Confessions هو حادث سرقة الشريط واتهامه ظلما الخادمة ماريون Marion ذلك الحادث الذى ظلت ذكره تؤرقه طيلة حياته . وهو هنا أيضا يصفى نفسه من بعض ما جاء مخالفا للحقيقة فى « الاعترافات » من ناحية التاريخ مثلا أو بعض التفاصيل الصغيرة معللا ذلك بأنه لم يكن يبغى الكذب عامدا وإنما صدر ذلك عن ضعف فى ذاكرته جعله يضع بعض التفاصيل التافهة موضع تفاصيل أخرى مثلها .

ولكن لم كان روسو يولى مسألة الكذب كل هذا الاهتمام ؟ لانه على مبدئه فى الحياة وهو « تكريس نفسه للحقيقة » يترتب تصديق كل ما جاء فى دفاعه عن نفسه فى « الاعترافات » وفى « الحوار » و « الاحلام » كذلك .

والواقع أن روسو فى الاعترافات وفى الحوار أيضا لا نراه يكذب الا فى القليل النادر وفى أمور صغيرة أو لاقيمة لها . . بل انه فى منازعاته مع الفلاسفة مثل فولتير Voltaire وديدرو Diderot وغيرهما كان يلتزم الصراحة المطلقة بل كان يلتزم الجانب المضاد لصالحه أحيانا ومثال ذلك مسلكه من مدام دابنای Mme d'Epinay نفسها حين أبى أن يصحبها فى سفرها وما تلا من خروجه من عندها وحرمانه من العزلة التى كان يهواها فى الأرميتاج L'Ermitage ويعزى ذلك الى حاجته الى الصراحة دائما من ناحية والى انه يجب أن يكون مستقلا حرا من ناحية أخرى .

ثم يستمر فى تأملاته فيتابع جدلا منطقيا حول الكذب يتناول فيه تفرقات وتقسيمات وتدبيرات على جانب من الإبهام أحيانا . . وفى رأيه أن الانسان لا يجب أن يكذب فى أشياء ذات أهمية ولكن يمكنه أن يفصل ذلك فيما لاقيمة له وفيما لا يترتب عليه ضرر بنفس الشخص أو بغيره . ومع ذلك فالحقيقة عموما هى الفضيلة الاولى يجب اتباعها فى كل الاحوال .

وروسو فى هذه الجولة ليس مسوقا برغبته فى ايجاد تعريفات مختلفة للكذب وظروفه فحسب بل انها الرغبة الحفية فى تبرير تصرفاته والتخلص من تأنيب ضميره هى التى تدفعه دائما اليها .

وهو يقارن كذلك بين من يسمى نفسه الانسان الصادق وهو
الفيلسوف . . وبين الانسان الذى يعتبر فى نظره هو صادقا ومخلصا
حقا ، الشغوف بالحقيقة والصدق . . انه يحاول هنا التخلص من خطايا
بالقائها على الفلاسفة وهو يواسى نفسه بقوله : ان العدالة والحقيقة فى
ذهنه مترادفتان وهو عادل يتوخى العدالة . واذن فهو صادق يتوخى
الحقيقة أيضا .

ولكنه برغم كل هذه الجهود يحس أن سكينته ليست كاملة فهو
يقول : ولكن لا زال أحس أن قلبى ليس راضيا عن هذه التفرقات لدرجة
اعتقيد معها انى غير مذنب ولكن يعزى نفسه بالفكرة التى استهل بها
الجولة الثالثة كما اختتمها بها وهى أن الشيخوخة هى وقت استكمال
الفضائل . . فهو اذن ماض فى اكتساب تلك الفضائل حتى آخر يوم له
فى الحياة .

وهكذا نجد أن هذه الجولة الرابعة متاهة منطقية مليئة بالتخريجات
واللف والدوران وتتم عما يعتمل فى قرارة نفسه من ندم واحساس
بالذنب يلاحقه ويؤرقه .

وكأنما تعب من تلك الحيرة فنجد يطلع علينا بالجولة الخامسة
يستعيد فيها أياما سعيدة . قضائها فى جزيرة سان بير Ile de
Saint-Pierre . معتزلا للناس بعيدا عن التفكير الذى يضره ويرهقه .

قد تكون هذه الجملة أهم الجولات جميعا سواء من ناحية الوصف الرائع للجزيرة سان بيير Saint-Pierre أو من ناحية فلسفة جان جاك روسو لفكرة السعادة .

وقبل أن نبدأ فى تناول ما جاء بها نقدم بملاحظة صغيرة على أن هذه الجملة من ناحية موضوعها تماثل تماما شطرا من «الاعترافات» Les Confessions (الجزء الثانى - الكتاب الثانى عشر) اذ يتناول تقريرا للمعلومات التى ترد هنا بل وغالبا نفس الالفاظ ولو أنه سرد ذلك فى «الاعترافات» بنظام يختلف تماما . ولكن لم فعل ذلك ؟ أهو جذب فى تأملاته وتخيالاته ما جعله يعاود كتابة ما سبق أن أورده فى أماكن فينقل عنه وعن نفسه مرة أخرى؟ ونحن نعرف أن روسو لا يحب أن ينقل شيئا سبق عرضه ، سواء كان له أو لغيره . . . اذ نراه يسرد أحيانا أقوالا لكتاب آخرين بشيء من التحريف معتمدا على ذاكرته دون أن يلجأ الى أصل ما كتب ذلك الكاتب لا لشيء إلا لأنه لا يحب النقل والتقليد . . ألم يكن يجدر به أن يحيا فى

نفسه ذكريات أخرى سعيدة لم يطرقها من قبل ؟ من هنا يتضح لنا عمق الأثر الذي خلفته في نفسه إقامته في تلك الجزيرة الحبيبة الى نفسه بطبيعتها وعزلتها وهذوتها . انه لم يعد يذكر عنها الا الخير والهناء . . في حين أنه في « الاعتقافات » يسوق وصفها في اطار من التنقل والاضطهاد الذي يميز تلك المرحلة من حياته .

واذن فالهدف من هذه الجولة الخامسة هو تعريف السعادة التي استمتع بها مستخلصا من وصفه للمكان الذي استشعرها فيه . وفي الجزء الاول من هذه الجولة يصف الكاتب الجزيرة وطبيعة الحياة التي كان يعيشها فيها . . اما في الجزء الثاني فخواطره وآراؤه عن السعادة ومعناها .

وهو يستهلها لا مستذكرا جزيرة سان بيير Saint-Pierre فحسب بل اما كن أخرى بديعة عاش فيها . ولا ريب أنه كان يفكر اذ ذاك في الشارميت Les Charmettes عند مدام دوفوران Mme de Warens والارميتاج L'Ermitage عند مدام دابنای Mme d'Epinay ومونتورنسي Montmorency عند الماريشال دو لوكسمبرج Maréchal de Luxembourg وفيها جميعا ذاق جمال الطبيعة ومفاتها واستمتع بشبه عزلة ارتاحت لها نفسه . . ولكنه يتوقف مأخوذا بسحر جزيرة سان بيير وهي جزيرة لم تكن معروفة تماما حتى في سويسرا ولكن ريشة الكاتب الساحرة وجهت اليها الانظار وجعلتها مهبط السياح من كل فج منذ ذلك الوقت . والجزيرة بموقعها وسط بحيرة بين Le lac de Bienné كانت مهيأة لحالة رؤسو النفسية اذ ذاك . . انها « تبدو كأنها جعل موقعها خصيصا من أجل من يحب الانطواء على نفسه » . . وهل كان هناك من هو في حاجة الى العزلة والانطواء أشد من رؤسو في ذلك الوقت بعد أن طورد ورجم منزله وذاق عذاب السفر والترحال ؟

وهو يبدأ وصفه بمقارنة بين شواطئ جزيرة سان بيير وشواطئ بحيرة جنيف Genève وفي جنيف يقضي رؤسو مرحلة طفولته وعلى مباحج البحيرة تفتحت عيناه وثيقظت أحلامه . . فالاولى تمتاز عن الثانية بالنظرة الرومانتيكية وكلمة romantique هنا تثير الدهشة في ذلك الوقت من القرن الثامن عشر وهي كلمة انجليزية من أصل ألماني لم تستعمل في اللغة الفرنسية الا منذ ذلك القرن . ولا ريب أن رؤسو استعملها هنا لانه كان بحاجة الى التعبير عن احساس جديد وجدها تترجمه تماما أو بالاحرى لينبيء بطريقة أدبية جديدة في التعبير، وبعهد جديد وهي الرومانتيكية Le Romantisme وكان المترجمون الفرنسيون في منتصف القرن الثامن عشر لا يزالون

يمبرون عن كلمة رومانتيك *romantique* بـ *pittoresque* أو *romanesque* أى يميل الى الشاعرية والخيال . ولعل المعنى هنا ينطبق عليه تعريف فينلون Fénelon فى «حوار الموتى» Dialogues des morts (١٧١٢) حيث قال «هذه أبدع صحراء يمكن أن يراها المرء» . ان الطبيعة هنا تبدو موحشة رهيبة ولكنها تثير الإعجاب وتحمل على أن يحلم المرء فى استمتاع .

ولو أن روسو هنا يستعمل أيضا كلمة *Romanesque* فى نفس هذه الجولة وهكذا فتح روسو الطريق أمام هذه الكلمة فاستعملها فيما بعد كتاب وشعراء مرددين كلمة *Romantique*

ويتحسر روسو لانه لم يمكث فى تلك الجزيرة سوى شهرين . والواقع أن روسو بأعصابه المتعبة ونفسيته المرهقة وميله الدائم الى العزلة كان يود لو انه «سجن هناك بقية حياته» سبجنا اراديا اختياريا يتفق أولا وقبل كل شيء مع ميوله وحاجته الى الراحة . . ولكن مجلس شيوخ برن Berne أصدر أمره بنفيه من الجزيرة فخرج منها مكرها مغلوبا على أمره .

والآن فيم كانت سعادته فى تلك الجزيرة ؟ انه كما يقول : « كانت هناك صاحبتى (أى تيريز لوفاسور) والمحصل وزوجه وخدمة وكلهم فى الواقع أناس طبيون ولا شيء أكثر من هذا » ، اذن لم يكن روسو اذ ذاك فى عزلة مطلقة . . كما انه لم يكن كذلك متعللا عن العمل تماما فلم يكن الفراغ الكامل من ميول ذلك الكاتب ، بل كان يحب أن يتخلله عمل مثل ما وقد سبق أن بين ذلك فى «الاعترافات» (الكتاب الثانى عشر) . وكان يملا حجرته زهورا وأعشابا جافة «لاننى كنت اذ ذاك فى بدء ممارستى لدراسة النبات تلك الدراسة التى غرس دكتور ديفرنوا D'Ivernois فى نفسى اليها ميلا أصبح شغفا» . ثم هو يصف لنا بعد ذلك حلما فوق صفحة الماء انه يهرب خلصة من رفاقه فى الجزيرة «ليستلقى فوق زورق يبحر به وسط البحيرة وقد أدار عينيه نحو السماء» ، وهو يحلل حلم اليقظة هنا تحليلا له أهميته البالغة لانه الاول من نوعه قبل أن يصف الزرومانتيكيون اندماج الانسان فى الطبيعة . . وهو يبين عناصر هذا الحلم :

أولا - ضرورة وجود حركة تؤدى الى اختلاجات النفس (وهى هنا مد الماء وجزره) . .

ثانيا - الحالة التى ينتهى اليها ، أى البساطة الكافية للأحساس بالوجود « كان ذلك كافيا ليجعلنى أحس بلذة وجودى دون أن يرهقنى التفكير» .

ثالثا - استدعاؤه بعوامل خارجية « فلا أستطيع أن أنتزع نفسي منها دون مشقة » .

ثم ينضم الى الجماعة فيلهون ويتحدثون ويتضحكون ولا عجب فهو يحب البساطة فى كل شيء : البساطة من الناس والبسيط من اللهو كما يحب الاغاني الخفيفة والموسيقى الايطالية المليئة بالاحساس والعاطفة . ويفضلها على موسيقى جلوك Gluck ورامو Rameau المعقدة فى نظره .

من كل تلك الذكريات يستخلص روسو نظريته فى السعادة : « ليست السعادة فى اللحظات القصار من المتع الشديدة والهوى ولكنها حالة بسيطة دائمة » .

ولا ريب أن الصدمات التى لقيها روسو فى حياته فى المجتمع وفى حياته العاطفية جعلته يجد السعادة فى الهدوء الذى يحاول أن ينقله إلينا هنا أى فى حياة تسمح لحياهه بأن يخلق ويخلق ، والتى تتفق تماما هنا وحالته النفسية والعقلية من جهة وسنه المتقدمة من جهة أخرى . إذ كيف نستطيع أن نسمى سعادة « حالة عابرة تتركنا والقلب منا خال فارغ » اليست تلك هى الرومانتيكية بقلها وحيرتها ؟ ثم هو يستمر فى سرد خصائص وظروف ومراحل تلك السعادة الكاملة وقد تجمعت كلها فى جزيرة سان بيزر بل إن تلك الاحلام الصغيرة السعيدة يمكن تحقيقها فى سجن الباستيل مثلا مادام المرء هادئا بعيدا عن المنغصات ولو أنها حينئذ تكون أقل متعة منها فى « جزيرة خالية حدودها طبيعية لاتعرض للنظر فيها الا صور ضاحكة » .

ولكننا نراه أخيرا فى هذه الجولة وفكرة الاضطهاد تلح عليه . . انها تلاحقه حتى فى أجمل ساعاته وأسعدها فيتمنى أن يعود ليقضى بقية عمره فى تلك الجزيرة « ولكن الناس لن يدعوا لى مثل ذلك الملاذ البديع حيث رفضوا أن يتركوني » . . ولكنهم مع ذلك لم يمنعه من أن ينتقل إليها على أجنحة الخيال . . فى أحلام يقظته « حيث تنقلت الأشياء من حواسى أثناء نشوتى » وهو هنا فى هذه النشوة يكاد يشبه شرقيا متصوفا فى لحظة اشراق .

ثم تأتى أخيرا الصرخة المتحسرة « وأسفاه ! » أسفا على لحظات يرى نفسه ماضيا فى سبيل الابتعاد عنها حيث يتمنى أن يعيشها من جديد .

الجمولة السادسة

لئن كانت هذه الجمولة أقل امتاعاً من سابقتها إلا أنها لا ينقصها أن تكون على شيء من الأهمية لما تلقيه من أضواء على استعدادات روسو من ناحية عمل الخير وجهه لاسعاد الناس وهي تشبه الجمولة الرابعة من ناحية أنها تعالج احساساً من أحاسيس روسو في تعامله مع الناس... وهذه الناحية ترددت كذلك في « الحوار » ومررنا بها كذلك في الجمولة الثالثة حين تكلم روسو عن اصلاحه لنفسه .

يعود بنا روسو هنا الى باريس... حيث «وبالامس فقط» كان ذاهباً للاستعشاب على ضفة نهر ال « بييفر » Bièvre في ناحية « جنيني Gentilly وإذا به منعطف متحاشياً المروءة بـ «بوردانفير d'Enfer (أى باب جهنم) على غير عادته فيتساءل لم أراد أن يتحاشى السوابة ؟ انه يذكر أن ذلك كان بسبب طفل صغير لطيف لكنه أعرج دأب على تحيته يومياً وكان يسره ذلك في مبدأ الامر ولكنه أصبح يضييق به في النهاية فيفسر ذلك في السطور الاولى من تلك الجمولة اذ يقول

« ليست هناك حركة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا فى قلبنا اذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بأحثن عن ذلك التعليل » ومن ذلك ندرك كيف كان روسو يميل الى طبقة التسعيب البسيطة وكيف كان يتوجس خيفة من المقابلات المنتظمة كما كان يخشى كذلك أن يتعرف الناس عليه . . . ولقد سبق ذلك فى « الحوار » فهو يظن دائما أن أعداءه يرسلون من يتجسسون عليه ويطلعون على أحواله الخاصة .

« ولقد تحولت - ولست أدري كيف تحولت - هذه المتعة التى غدت عادة بالتدريج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه » .

من هنا تبدأ سلسلة تأملاته التى تسلمه الى تحليل خاصة فى طباعه هى الخوف والهروب من كل ما يلزمه أدبيا . . . انه يحب عمل الخير وان يسعد الناس ولكن ما ان يحس انه أصبح مقيدا بواجب حقيقى أو مفروض وعندما يعتقد أن أحدا ينتظر منه تكرار خدمة ما حتى تثور الحرية فيه ويعمل جاهدا للتخلص من سلطان الناس عليه ، ولكن سرعان ما يجد لنفسه ظروفا مخففة فهو يقول انه طالما عمل الخير ولكنه كان ينقلب ويفسر ضده وهو اذ يتكلم عن « مغامرين كانوا يأتون للتسلط عليه وارغامه » يردد مقاله سابقا فى « الحوار » وخاصة فى « الحوار الثانى » . وهو يقول : « اننى وان لم أكن فاضلا الا أنى رجل طيب القلب » وهو يردد هنا أيضا مقاله من قبل فى الجولة الثالثة .

وإذن فقد انتهى الى أن الامتناع عن عمل الخير خير من التعرض لتسلط الناس عليه وهو فى صراعه مع ضميره الذى يخزه يلقي اللوم أيضا على أولئك الذين تغيروا منذ عشرين سنة أى منذ القطيعة التى كانت بينه وبين مدام دإبناي Mme D'Epinaى فهو حين يشعر انه خدع لا يستطيع أن يتغلب على نفوره ولا يستطيع بالتالى أن يقدم على عمل الخير فيعتبر « أى عمل صالح يقدم له كأنما هو شرك جديد ينصب له » .

ولكن روسو يخطئ اذ يقرر انه فى الوقت الذى يكتب فيه لم يكن له أصدقاء من بين الناس منذ عشرين سنة ، حقا انه أبعد الكثيرين عنه ولكن كان له مع ذلك أصدقاء مثل ديكلو Duclos وبرناردين ذو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre وديفرنوا D'Ivernois وهو الوحيد تقريبا الذى لم يجد ما يعتب عليه به حتى مات .

كما انه ليس صحيحا انه لم يصادف فى العشرين سنة الاولى إلا أشخاصا كرماء شرفاء يعملون دائما لصالحه فكثيرا ما قابل منهم من تسببوا

له في اذى مادی أو معنوی كالحفار الذي كان يعمل عنده ويسىء معاملته والقنص الذي عرفه بسر بعض الانحرافات الخلقية والشهبان المصابرين الفامدين الذين قابلهم في شامبرى Chambéry وفي الشارميت Charmettes والذي كانت مدام دفوران تحاول التفرقة بينهم وبينه .

وأخيرا - وكعادة من يهيمن في الخيال فيستحوذ عليهم ويفرهم بالابتعاد عن الواقع بأساليب خرافية - يتمنى روسو لو أنه أوتي خاتم جيغيس Gygis (الذي ذكره سيسرون واذن لفعل كل ما يحلو له دون أن يراه أحد... فهو ينعى شهرته التي ألبت الناس عليه ومنعته من اسداء الخير جهرا... ولكنه يعود فيخشى لو انه امتلك ذلك الخاتم أن يفريه سلطانه يارتكاب مغريات لا قبل له على الصمود أمامها... ولكن سيسرون ينتهي إلى القول بأننا يجب أن نفعل الخير ولو انه ليس هناك من يرانا... وروسو يحب أن يرى السعادة ترفرف على الجميع ، واذن لما لم يكن مخدوعا من أحد فلن يسىء استعمال الخاتم... انه يتغنى بطيبته وبنواياه الحسنة نحو الناس... ولكنه لن يكون غير مرئي فحسب بل سيستطيع أن يقرأ خفايا قلوب الناس واذن فلهذا الحلم السعيد نتائج : منها أنه سيكون رأيه متعقلا متزنا عن الطبيعة الانسانية «انني اذ أقرأ في سر مافي قلوبهم قد ألقى منهم بعضا ممن يستحقون محبتي وبعضا آخر ممن يستحقون بغضائي» .

ومن نتائج استعمال ذلك الخاتم أيضا انه قد يستطيع اتيان المعجزات وان يقيم العدالة السمحة الرحيمة بين الناس بدلا من العدالة المتزمتية القاسية... وهو يشير هنا الى معجزات القديسين كزيارة قبر سان ميدار Saint Médard (وكانت باريس كلها سنة ١٧٢٨ تؤمن بذلك وتتسابق إليه ليشفى المرضى من الناس) .

وأخيرا... ان الجسد ضعيف... وهناك احتمال اتيان حماقة ما... واذن «فبعد تأمل الأمر مليا... اعتقد أنه من الخير أن أطوح بخاتمي السحري قبل أن يتحتم على الاقدام على حماقة ما» .

وتنتهي به هذه الاحلام الحلوة الى أنه يكون «مخطئا لو انه تأثر بالطريقة التي يرونها بها... إذ لست أنا الذي يروني على هذه الصورة ، وهذه الراحة في التفكير... هي شأن الخياليين المصابين بالشيزوفرانيا (الفصام) - ومن بينهم روسو - الذين يعودون من حلم خيالي حلو لاصلة له بالواقع على الاطلاق وهم في أحسن حالاتهم النفسية .

ويتقبل روسو بعد ذلك إلى فكرة أخرى يعزو عن طريقها عدم تقبله
لحياة المجتمع إلى ميله إلى الاستقلال ثم هو يورد تعريفا للحرية فيقول :
« لم أعتقد أبدا أن الحرية من شأنها أن يعمل المرء ما يريد ولكنها في ألا
يعمل ما لا يريد » .

ثم هو يقابل بين هذه الحرية وبين تعصب الفلاسفة الذين يكرهون
الحرية في الآخرين ولا يريدونها كذلك لانفسهم .

ثم يعود إلى التفتي بقلبه الخير فيقول : « أما عن الشرف فلم يكن لارادتي
منه نصيب في حياتي واني أشك أن هناك انسانا في هذه الدنيا ارتكب
منه أقل مما فعلت » . فهو يضع القدم هنا وهو مطمئن إلى أنه أراح ذهنه
وضميره مرددا أنه وإن لم يكن أفضل الناس فهو أحسنهم بل هو ربما
- في رأي نفسه - كان أقرب إلى الملائكة منه إلى البشر .

الجولة السابعة

تبدأ هذه الجولة بجولة تجعلنا نعتقد أن روسو كان يصدد كتابة مؤلف أكثر أهمية « لم يكذب يوماً سجل احلامي الطويلة ولكنني أحس أنه مشرف على نهايته » وأذن فمن الجائز أن يكون روسو قد توقف عن الكتابة وهو لا يزال في الربع أو الثلث الاول من مؤلفه لأنه كان ينوي المضي في كتابة « سجل طويل » .

والجولة ذات موضوع جديد أصيل ولو أنها مثل الأخريات من ناحية كونها تأملات خاصة محورها روسو نفسه . . انها - الى جانب هذا - دفاع عن روسو نفسه . . وأن لم يكن دفاعه هنا في حرارة الدفاع الذي جاء بالجولات الرابعة أو الخامسة أو السادسة مثلاً . .

فهى تتناول موضوع الاستعشاب ودراسة النبات ولا بد أن يجيء دفاع روسو عن نفسه امام من يهاجمون هذا اللون من العمل أقل حرارة من غير شك من دفاعه عن نفسه ضد من كانوا يتهمونه بالكذب أو بكراهيته للناس مثلاً . .

وليس روسو أول من دعا الى دراسة النبات وحيدها فقد سبقه فنلون Fénélon وبوفون Buffon (الذي كتب عن « التاريخ الطبيعي ») ولو ان كتابه كان لا يزال في مرحلة الاعداد للنشر حين كان روسو يمارس الكتابة في النبات اذ لم يتم نشره الا في عام ١٧٨٨ أى بعد وفاة روسو بعشر سنوات . وكانت دراسة النبات من الدراسات التي شاعت بفضل لينيه Linné الذي أعجب به روسو كثيرا في أول الامر (ولو ان اعجابه به فتر بعد ذلك) وكان يقوم بهذه الدراسة جماعة من العلماء الممتازين مثل آل جوسيو Jussieu (الذين أورد روسو ذكرهم في الجولة التاسعة) . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر كانت ترد بالصحف عبارات مثل « التاريخ الطبيعي هو من بين العلوم جميعا العلم الذي يمارس بغاية بالغة في عصر مستنير مثل عصرنا » . واذن فان روسو وجهوده في هذا المضمار لا تمثل سوى دور العضو في جماعة النارسين والباحثين وليس فيها فضل القيادة أو التوجيه . ويشير مورنييه M: Mornet في كتابه عن علوم الطبيعة (١) الى دور روسو بقوله « ان روسو يبين أن دراسة العلوم الطبيعية واجبة ومفيدة لا في ميدان جمال العقل فحسب بل في جمال العاطفة » .

ويحدد روسو في هذه الجولة بدء هوايته . . . لقد تلقى الانطباع الاولى لحب الطبيعة في سويسرا حيث تفتحت عيناه على الخضرة والريف البهيج ثم هو يذكر الدكتور ديفرنوا D'Ivernois الذي طالما صحبه في جولات استعشاب طويلة والذي امتدت صلته به وصادقته له حتى نهاية العمر ثم ينتقل بعد ذلك مباشرة الى أول محاولة للدفاع عن نفسه في هذه الجولة . . . ولا عجب فان هذا الانسان المنعزل عن المجتمع يحس دائما بحاجة الى أن أن يزود عن نفسه جميع الاتهامات التي تنهال عليه منه فتراه في « الحوار » Les Dialogues مثلا يبرر هوايته لنسخ الموسيقى أما هنا فهو يبرر ميله لدراسة النبات . . . وهكذا كانت آراء الناس تشغله دائما ولا تفتأ تعاوده وتطارده حتى وهو هائم بين ربوع الطبيعة .

وهو يعمل عدم قدرته على التفكير وضعف خياله عن التحليق في أجواء الأحلام انسياقه الى التأمل الدقيق في مشاهد الطبيعة . . . وهكذا يقابل ما بين نفسه وبين أولئك الذين لا يحسون بالطبيعة ولا يرون فيها سوى مورد للعقاير والوصفات الطبية . . . بل ان الطبيعة - الى جانب ذلك - تلهيه عن الكراهية وعن الرغبة في الانتقام وهكذا « ينتقم من

مضطهديه على طريقته ، اذ يغدو سعيدا على الرغم منهم وهو ما سبق أن
أورده في الحوار Les Dialogues في الجولة الثانية من الاحلام Les Rêveries
وبرغم هذا الميل لا نراه يستهدف نفعاً دنيوياً بل ان هذا الميل يدفعه الى
التقرب الى الله والتأمل فيه (ولعل في ذلك رداً على ما قرره من اتهام
أعدائه له من قبل في « الحوار » Les Dialogues من أنه يجمع الاغشاب
ليصنع منها العقاقير) كما يجعله يزيد من معرفته بنفسه . . تلك المعرفة
التي كرس لها أيامه الاخيرة .

انه يحب الطبيعة ويتعشقها . . تلك الطبيعة الخضراء التي تكسو
الارض كحلة زاهية فلا شيء يوحش النفس أكثر من مشهد ريف مقفر عارٍ

ولقد وجد نفسه - في هربه من الناس وميله لاعتزالهم وفي عجزه
عن التفكير العميق - مضطراً الى أن يشغل بما يحيط به وماذا هناك أجمل
من الطبيعة تحتو عليه وتلفه وتحيط به . . ووجد ذلك في مملكة النبات
لان مملكة المعادن تبدو شاقة منفرة ولان مملكة الحيوان تتطلب عمليات
التشريح التي تثير الاشمئزاز وخاصة بالنسبة للنفوس المرحقة الحساسة .
وهو يعدد مزايا الدراسة التي فضلها على غيرها ولا يفوته أن يظهر عدم
ثقته بالاطباء وكرهيته لهم فيقول . . « انني الدليل الحي على بطلان فهم
وعدم جدوى علاجهم » وينتقل بعد ذلك الى الذكريات فيذكر استعشابا
قام به في ناحية روبيل Robaila (وهو جيل يسمى اليوم Robela
على مسافة فرسخ من موتيه في مقاطعة نيوشاتل) وهو يذكر أسماء
النباتات هنا باللاتينية بعد أن ذكرها من قبل في هذه الجولة بالفرنسية
ولا ريب أنه وجد هذه المفردات في مؤلف « لينيه » الذي كان روسو معجبا
به . . وفي جولته في ناحية روبيل يصور لنا خيبة أمله اذ كان يظن نفسه
وحيداً وأنه أوغل في عزلته الى حد تخيل فيه أنه كريستوف كولومب
ونحن نقول - الى جانب ذلك - بل روبنسن كروزو (الذي أوصى بقراءته
في اميل) حيث يقول « لا شك انني أول مخلوق توغل حتى هذا المكان » .

ويشير هنا الى تذكره استعشابا آخر من النوع نفسه قام به خلال
اقامته في جرينوبل Grenoble وكان يصحبه مسيو بوفيه Bovier
(معتم في الاقليم) الذي كان يلزمه ويسهر على سلامته ويروي قصة
نحوها : « أنه أكل من فاكهة تبهه أحد المارة الى أنها سامة ومع ذلك فلم
ينبس مسيو بوفيه بكلمة . . فروسو هنا - وان لم يتهم بوفيه اتهاماً

صريحاً - يدخل في روعنا مع ذلك رغبة الآخر في تركه يفتوت فستحوطنا
وأغلب الظن أن روح الشك والريب التي تسلطت على روسو في أعواجه
الآخيرة وجعلته لا يثق حتى في أصدقائه المخلصين هي التي صورت له
المسيو بوفيته على هذه الصورة ويؤكد ذلك أنه لم يجرؤ على إتهامه في
صراحة أو أنه بعد تاريخ الحادث (عام ١٧٦٨) جعل يخلط بين ذكرياته
بعد أن ضعفت ذاكرته - كما يعترف هو بذلك .

كان من الممكن أن تصبح هذه الجولة ذات أهمية بالغة لو أن الجولات بدأت بها .. وهي تكمل الجولة الخامسة من حيث التعبير عن السعادة لدى روسو وتكمل السيادة كذلك من حيث تبرير صلاته بالناس ولو أنه هنا لا يبرر وجود تلك الصلات بهم بل يفسر انقطاع هذه الصلات بينه وبينهم انه يتغنى هنا بالسعادة في العزلة والوحدة ..

كانت فكرة اعتزال الناس تهيم على روسو وتلاحقه .. وكان ذلك سببا من أسباب مهاجمة الفلاسفة له .. أما هو فكان يحس انه محووط بمؤامرات تحاك له في الخفاء .. وظل - كما يقول برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre (١) « ظل روسو يمتدح مزايا العزلة حتى آخر لحظة من عمره لقد قال كاتب - ويقصد به هنا ديدرو - أن الشرير هو الذي يعيش وحيدا ولكن ماذا كان يمكنه أن يصنع في العزلة ؟ تعس هو ذلك الذي لا يعرف آلامه الخفية »

Bernardin de Saint-Pierre : La Vie et les Ouvrages de Rousseau (Edition Sourian, p. 84). (١)

ولقد دافع روسو من قبل فى « الحوار » عن تلك العزلة وهو هنا يبسط المشكلة ويدرسها مفصلة : فهو يبين أولا التعارض بين سعادته فى الوحدة وتعبه وضيقه بالناس حين يكون بينهم وهو يدهش عندما يسترجع الساعات التى كان يظن نفسه سعيدا خلالها اذ يجد انها لم تترك له من حلو الذكرى ما تركته تلك التى ذاق فيها ألوان الآلام .. واذن فقد كان ذلك هناء عابرا لا يمكن أن يسمى سعادة .. وهو فى ذلك يؤكد ما أورده فى الجولة الخامسة : كيف يمكن أن نسمى سعادة حالة عابرة تتركنا والقلب منا خال فارغ ؟ « وهو يقارن هنا بين هناء ظاهرى وتعب حقيقى فى ماضيه ، وبين تعب ظاهرى وهناء حقيقى فى حاضره .. ويكشف عن لون من الغرور حين يقرر أنه يفضل أن يكون هو نفسه بكل شقائه من أن يكون « واحدا من هؤلاء الناس بكل ما هم فيه من نعيم » وهو يتساءل : كيف وصل به الامر الى هذا الحد ؟ وكيف غدا غير مبال وسط ما يحيط به من شرور ؟ وكيف اكتشف المؤامرة فقلبت كيانه كله رأسا على عقب ؟ انه يشير بذلك الى خصومته مع مدام دابنای Mme D'Epinaى وهو يقص ذلك أيضا فى الاعترافات Les Confessions (فى نهاية الكتاب التاسع ومستهل العاشر) ولكن فى ثبات وهدوء أكثر مما يفعل الآن .. ولا ريب أن حالته النفسية التى ساءت بعد « الاعترافات » جعلت تلك الذكريات أشد سوادا واضطرابا .

ولقد حاول العثور على رجل عاقل يفهمه ويتوسط بينه وبين أعدائه ولكن عبثا فقد كانت المؤامرة شاملة .. واذا ذاك - بدلا من اليأس القاتل - وجد السكنينة والهدوء .. بل السعادة ..

ولعلنا نتساءل : أية سعادة تلك التى يحاول أن يقنعنا بها أو يقنع بها نفسه .. تلك التى يذكرها وسط تلك الاوصاف والملابسات من اليأس والألم والاضطهاد والعذاب وجو المؤامرات . انه يصف عذابه فيجعلنا نحسه معه وكأنما حدث له للتو .. أفكان المسكين سعيدا حقا ؟ أم أنه تعب من الألم وتعب من تصاريق الاقدار معه فهو يمثل أولا على نفسه ويمثل ثانيا على الناس ليبدو - وذلك ما يناسب غروره - وقد انتصر على كل ذلك .

وهو يحتقر الآلام المادية ويبحث عن مصير لآلامه فيجدها فى كبرياته . وفى « الحوار الثانى » يتناول روسو تلك الفكرة وتقريبا بنفس الالفاظ التى يكاد يسردها بها هنا . واذن فليخفق تلك الكبرياء مادامت تنقص عليه حياته وتمنعه حتى من الاستماع الى عقله حين يوصيه بتقبل

الاقدار كما هي والمصائب كما تحل دون معاندة أو اصرار وعندئذ يمكنه أن يرى « الغنى والفقر والصحة والمرض والمجد والمهانة .. كلها بلا مبالاة » وهو إذ بلغ هذه الحال من عدم المبالاة يرجع الفضل الى أعدائه لا الى حكمته وفي ذلك بعض التكفير عن كل ما سببوه له .

انه يعيش منذ الآن مع كائنات من خلقه هو لا يخونونه ولا يسببون له حزنا .. كائنات من خلق خياله لا يخشى منهم ضرا أو هجرا ...

وبعدئذ يشرح روسو الحالة النفسية التي يكتب عنها فيقول « ولما كانت حواسي مسيطرة على نفسي فاني لم أستطع أبدا أن أقاوم انطباعاتها وهذا هو الشرح الذي يقدمه عن خلقه وطبيعته في « الحوار الثاني » وهو يلاحظ انه عن تجربة متكررة يجد نفسه سعيدا في الاماكن التي لا يصادف فيها انسانا ولكنه يعود فيذكر انه لا يستطيع أن يصمد أمام أمر يسبب له ألما فان « كلمة ، اشارة ، نظرة بغضاء ألحها أو كلمة مسمومة أسمعها تكفي لان تجعلني أضطرب أشد الاضطراب » وهو يقارن ثانية بين اليوم والأمس .. اليوم حيث يحس السعادة في عزلته عن الناس والأمس - أي عندما كان يعاشر المجتمع - حيث كان يحس بالضيق وعدم الراحة .

ولتحليل روسو هذا أهميته : فهو تطبيق للنهج الذي أعلنه في الجولة الاولى حيث يريد أن يدرس نفسه بعناية ومعرفة ودراية .

من هذا كله .. ومن مكابرتة اذ يقول انه « سيد نفسه يفعل مايشاء » يتبين خوفه الدائم وقلقه .. فهو هنا كإنسان يخاف الظلمات فيغنى عساه يشجع نفسه على تحملها .

وخلال هذه الجولة كلها نحس بروسو وهو يحاول أن ينفي عن نفسه تهمة « الشرير هو الذي يعيش وحيدا » ويحاول أن يرد على ذلك الاتهام ويؤكد انه سعيد ويحاول أن يثبت تلك السعادة فيؤكددها مرة أخرى ليقنع نفسه انه كذلك .

ولهذا كله وللحالة النفسية المضطربة الهادئة حينما الثائرة أحيانا كانت هذه الجولة البديعة مؤثرة حقا تمس شغاف قلوبنا .

تري أكان روسو صادقا ؟ أم انه أحسن الدفاع فحسب ؟

الجملة الثالثة

وهذه الجولة مثيرة جدابة. يرجع ذلك الى أنها تتناول موضوعا مؤثرا ، بل يكاد يكون رهيبا ، هو مسألة هجر روسو لأطفاله ، وكذلك الى تنوع فى موضوعها وخلوها من مناقشات مجردة أو غامضة كما حدث فى الجولتين الرابعة أو الثامنة مثلا . انها اذن تتناول مسألة أطفاله الذين لازمه الاحساس بالذنب من أجل اهماله لهم حتى آخر حياته وكانت سببا فى انتقاد الفلاسفة والناس له وصيهم اللعنات عليه .

وفى هذه المرة تنبعت تأملاته من حادث غير ذى أهمية يرى فيه اصبع اتهام يشير اليه ويعرض به فينشك ويشور ويهيب مدعورا ليسسوق أدلته وبراهينه وليبرر مسلكه أمام نفسه وأمام الناس وتتسع تلك التأملات وتزداد اتساعا حتى لتنتهى الجولة على غير ما بدأت به .

أما الحادث الذى أثار احتياجه فهو مجيء السيد/ب عنده ليريه فى تحمس بالغ مديحها من سبع صفحات فى شخص مدام جيوفرين Mme Geoffrin وجهه لها الفيلسوف دالامير

M. d'Alembert وأما مدام جيوفرين فصديقة للفلاسفة كانوا يجتمعون في صالونها حتى لكان ديدرو Didero يناديهما « ماما » .

وأما الفقرة التي لم تعجب روسو فهي أن مدام جيوفرين « كانت تجد متعة في رؤية الاطفال والتحدث اليهم » وكان ذلك كافيا كي يهيج روسو معتقدا أن دالامبير يخزه في موضع الألم ويعرض به .. وخاصة وأن دالامبير كان عدوا له منذ عام ١٧٥٧ وأنه وضع تلك الفقرة عامدا متهماً روسو بعدم حبه للاطفال عامة مادام قد أودع أطفاله ملجأ اللقطاء . وينبرى روسو ليذود عن نفسه الاتهام مستشهدا بحوادث صغيرة تبرهن على حبه للاطفال ورعايته لهم وحده وعطفه عليهم .

وقد ناقش روسو هذا الامر طويلا في « الاعترافات » Les Confessions وعلق عليه في « الحوارات » Les Dialogues ثم تناوله كذلك بطريق غير مباشر في « الجولة العاشرة » حين سألته إحدى السيدات وكانت حاملا عما اذا كان قد رزق بأطفال - وكان فولتير قد أثارها أيضا قبل ذلك بأثني عشر عاما تقريبا حين كتب عن « مشاعر » مواطني جنيف . sentiments des citoyens de Genève ويقول ان مدام دابنای والدكتور ترونشان Docteur Tronchin هما اللذان أخبراه بذلك كما أن روسو نفسه في كتاب « اميل Emile » اعترف ضمنا بذلك وكان يعتقد أن ذلك الاعتراف كان كافيا لان يوفر عليه لوم الناس وأما في « الاعترافات » فقد ساق تبريرا واهيا فحواه أن الشبان في ذلك الوقت كانوا يتباهون بمغامراتهم التي كانت ثمارها تودع ملجأ اللقطاء ببساطة مما جعله يفكر أنه « ما دامت تلك عادة البلد التي يعيش فيها فلاخرج من اتباعها » . . . كان يتكلم اذ ذاك وكأنما تركه لأطفاله امر طبيعي . . أما هنا فهو متوتر الأعصاب ثائر يتلمس مهربا من ضميره .

وأطفاله هؤلاء انجبهم - كما نعلم - من أم جاهلة هي تريز لوفاسير Thérèse Levasseur تمت الى الطبقة الدنيا بصلة وثيقة اذ كانت تعمل خادما تغسل الملابس وتقوم بكيها في منزل بباريس وكانت - باعتراف روسو - غبية لا تحسن القراءة أو الكتابة ولا عد الأرقام ولا تعرف المشهور أو الوقت أما أمها فكانت امرأة شريرة نغصت على روسو حياته لفترة طويلة ويقال انها كانت تتآمر مع الفلاسفة على روسو وتمدهم بالمعلومات المختلفة عنه .

ويبرر روسو احماله لأطفاله بقوله انه لا يستطيع أن يقوم بنفسه على تربيتهم وأن تنشئتهم وتربيتهم كانت تتم على أسوأ الصور لو أنه عهد بهم الى تيريز وأسرتها . . بل انه يرتجف اذ يفكر في المصير الذي كان ينتظرهم . . وهو يسوق هنا مثالا لـ « محمد وسعيد » وان ما كان ممكنا أن يصنعه أولاده معه هو ما صنعه سعيد بأبيه اذ حرضه محمد ضد أبيه فقتله . . ونحن لا ندرى مصدر القرية التي يوردها هنا روسو على سبيل الاستشهاد . . وأغلب الظن أن مسرحيات فولتير في ذلك الوقت - وكان يتناول فيها شخصيات دينية من الشرق مشوهة من غير شك - هي مصدر المثل الذي يورده روسو . . وينم ذلك عن جهل بالديانة الاسلامية السمحة والاحداث التي تمت ابان الرسالة الاسلامية ويعزى ذلك الى أن أوربا في القرن الثامن عشر لم تكن قد نالت قسطا كافيا من المعرفة بالشرق ودياناته . . أو أن ذلك كان نقصا في معلومات روسو نفسه عنها . . وعلى أية حال فالمقارنة هنا لا محل لها اطلاقا فان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يحرض شخصا يدعى سعيدا على قتل أبيه أو غير أبيه .

والاسباب التي يوردها روسو هنا تتلخص في أنه كان يحب الاطفال في شبابه ويلهو معهم ولم يكن لديه وقت لدراستهم . . أما الآن فيستطيع أن يجد متعة في ذلك . . ثم انه من غير المعقول أن يكتب روسو كتاب « اميل » Emile و « هلويز الجديدة » La Nouvelle Héloïse ثم يتهم مع ذلك بعدم حبه للاطفال . . ومن المعروف انه أبدى في « اميل » رعاية وعناية فائقتين بالطفولة عامة . . وفي « هلويز الجديدة » لوحة من أبدع اللوحات العائلية أظهر فيها روسو اهتمام الابوين وشغفهما وتضحيتهما من أجل الابناء . . ويمضى روسو في دفاعه عن نفسه فيقول انه لا يتصل بالاطفال اليوم لانه لا يعرف كيف يحادثهم والى أنه قد يخيفهم بمظهره بعد أن أمسى عجوزا .

ويروى روسو ثلاثة من الحوادث الطريفة برغم انها واهية في الدفاع عن موضوع روسو نفسه وغريبة عليه .

أما الاولى - فتشير الى أنه تعرف على طفل في كليننكور Clignancourt وهي قرية صغيرة من ضواحي باريس - ولكن أباه بعد أن علم بذلك أبعاد طفله عنه مما أسف له روسو وترك في نفسه أثرا أليما . . وهذه لمحة من نواحي الاحساس بالاضطهاد لديه .

وأما الثانية - فهي دفاع عن مبدأ المساواة الذي كان ينادى به أكثر منه دليلا على حبه للاطفال - اذ يقابل - هو وزوجته رهطا من الفتيات في

رفقة راهبة .. وتصادف مرور بائع حلوى فاشترى للجميع منها وهو يحرص على المساواة بينهم فيما يحصلن عليه من حلوى - ويبين روسو كيف انه بنقود قليلة حصل على سعادة غامرة اذ أدخل السرور الى نفوس الصغيرات والراهبة .

وأما الثالثة فكانت في الشوفريت Chevrette وهي تشبه الاولى قليلا وزع فيها تفاحا كانت تحمله بائعة في سلة على مجموعة من الفلاحين من سفوا Savoie . ويقابل هنا ما فعله هو بما يحدث في بعض الاحتفالات حين يرمى على القوم بعض الحلوى للفقراء الذين يتداهسون ويتضاربون لالتقاطها . وهنا تبدو كراهيته للأغنياء واحتقاره لهذه الطبقة المترفة .

أحب روسو دائما المتع البريئة البسيطة وكان يضيق دائما بوجوده بين عليّة القوم في حفلاتهم بل انه كان يجد حرجا في مجاراتهم حتى قال عنه « برناردين دو سان بيير (١) » « ان رغبة روسو في أن تحذو فرنسا حذو سويسرا في مباحجها الشعبية خلق من غير شك أسلوبا جديدا لها وساعد على اقامة الاحتفالات الثورية » .

ثم يعود روسو فيطرق موضوع العزلة في صورة جديدة فيقول انه برغم اللذة التي يحسها اذ يرى الآخرين سعداء فان وجوده بينهم أيضا يسبب له في كثير من الاحيان آلاما نفسية تجعل صحبتهم شاقة على نفسه وذلك اذا ما أحس من ناحيتهم بنظرة معادية أو احساس غير ودي - وقد ذكر مثل ذلك في الجولة الثامنة حيث يقول انه يسرع بمغادرة المدينة حتى يتفادى وجودها ، فقد تعب عن عدائها له وهو يسوق هنا على سبيل المثال المحاربين القدامى الذين كانوا يحيونه في بشاشة في مبدأ الأمر ولكنهم أخذوا يتجنبونه بعد ذلك لانهم - كما يظن - تعرفوا على شخصيته عن طريق زملاء لهم .

أما آخر واقعة يسردها فهي معاونته لواحد من هؤلاء المحاربين القدماء في عبور البحيرة وتصدقه عليه في لباقة بما قد يشتري به تبغسا وينوه بالروح السمحة الودود التي لمسها في ذلك الرجل مفسرا ذلك بجهل الاخير بشخصه وعدم تعرفه عليه بعد .

ثم يختتم موضوعه - بمدح لكرم الضيافة عموما ولا ينسى بهذه المناسبة أن يسخر من الهولنديين الذين « يتقاضون ثمن ارشادك عن الوقت » .

وهكذا أخذ روسو يبتعد - بسرده لذكرياته التي يتغنى فيها بكرمه
وشهامته - عن نقطة البدء في هذه الجولة ٥٠ فنجد الصلة قد انقطعت بين
موضوع حب روسو للإطفال خاصة وحبه للإنسانية عامة

ومع ذلك فهي هامة إذ تسوق لنا مشاهد حية وعادات من القرن
الثامن عشر من ناحية وتلقى ضوءاً آخر على مدى أسي الكاتب وندمه على
ما اقترف في حياته وقلقه البالغ وهو يستعد لملاقاة ربه من ناحية أخرى •

ننتهى « أحلام يقظة جوال منعزل » بعاشرة الجولات ٠٠
 لم يقدر لصاحبها أن يكملها وكان من الجائز أن يكتب فيها
 أجمل ما سطر قلمه فى هذه الجولات ٠ ويحدد روسو تاريخها
 فيقول « اليوم » يوم عيد الفصح المزهر وقد مضى على معرفتى
 الأولى بمدام دوفواران Mme de Warens خمسون عاما ،
 كان ذلك فى الثانى عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ ٠

وانا لنحس بالأسف اذ لم يتم روسو هذه الجملة بالرغم
 من مرور ما يقارب ثلاثة شهور قبل أن ينتقل الى الدار
 الآخرة ٠٠ ذلك لان الصفحتين اليتيمتين فيها هما - من غير
 شك - أكثر ما كتب فى الاحلام أصالة وسجرا ٠ واذا نحن
 تذكرنا ماقاله فى الجملة الاولى من أن هدفه هنا دراسة نفسه
 فحسب نجد أننا بعدنا كثيرا عن ذلك فى هاتين الصفحتين ٠

ومدام دوفواران Mme de Warens هذه هى « فرانسواز
 لويز دولاتور » Françoise Louise de la Tour ولدت فى عام
 ١٦٩٩ فى أسرة من طبقة النبلاء وققدت أمها وهى طفلة فكفلتها

عمتها ٠٠ ثم من بعدها زوجة أبيها ٠٠ وبعد موت أبيها قضت عامين في معهد لوزان Lusanne حيث نالت قسطا من دراسة الموسيقى الى جانب ما كانت تطالعه من كتب من كل نوع وخاصة من كتب فى الفلسفة والطب ثم تزوجت من أحد الاشراف وكان يكبرها كثيرا وكان وريثا لاقطاعية فواران Warens وهى تشبه فى ظروفها روسو من نواحي كثيرة ٠٠ من حيث النشأة والثقافة ٠٠ بل ان هذه الظروف المتشابهة تكاد تفسر التفاهم العميق المتبادل بينهما ٠٠ ولقد كتب عنها فى « الاعترافات » صفحات هى من أجمل ما جاء فيها فوصفها يوم وصوله الى أنسى Annecy قائلا « وأخيرا وصلت ورأيت مدام دوفواران رأيت وجهها ينضج رقة وعيونا جميلة زرقاء تشع حنانا ولونا باهرا. وعنقا ساحرا » ولكن روسو هنا وقد أصبح فيلسوفا ورجلا ناضجا يصف المشاعر الخنون التى استشعرها كل منهما تجاه الآخر ويحدد الأسباب التى جعلت من ذلك اليوم يوما رسم له الحياة جميعا ٠٠٠ ثم يأخذه الحنين الى تلك الايام « الهادئة الحلوة » التى عاشها بالقرب من « أمه » والتى كانت حلوة كذلك حتى قبل أن تمنحه نفسها ٠٠٠ ثم يبين كيف أن عاطفة الأم والحبوبة معا مكنتاه من تكامل شخصيته فأصبح ماكان يريد أن يكون وكيف أن الحنان المتبادل بينهما ونزاهتهما سويا زادا من ميله للعزلة وللريف وبذا ألهمته كل ما أنتج فيما بعد من أعمال أدبية ٠٠٠ ثم يتنهد قائلا « آه لو اننى ملأت قلبها كما كانت تملأ قلبى » ونسى روسو مغامراته النسائية فى أسفاره من أنسى Annecy واليها ٠٠ نسى تلك العلاقات الصغيرة المتكررة مع ذلك والتى رواها فى « الاعترافات » متغنيا برجولته وكيف أن النساء كن يتقربن منه وكيف أنه كان يجذ العزاء دائما فى الجنس الآخر ٠٠ ولكن للتنهد كذلك ما يبرره فكثيرا ما عاد روسو من سفره الى مدام دوفواران ليجد انسانا ثالثا يحتل من السيدة مكانه أو يكاد ٠٠٠ وتمضى الايام بالثلاثة وروسو طائع صاغر سواء كان ذلك يرضيه أو لا يرضيه .

ولكن كأنما شاء عقله الباطن أن يسقط من ذكرى تلك العلاقة كل الشوائب التى كانت تعكر صفوها فلم يعد يختزن منها الا ناحية باسمه تبدو على البعد كشعاع فضى ينير له ظلام شيخوخته انه ينبش عن سويكات السعادة التى تناثرت على طول أيامه فيخلق فيها ويعظمها علما تكون زادا يعينه على احتمال واقعه الاليم .

ولعلنا نظلم الكاتب اذا ما نحن عتبنا عليه تغييره بعض الوقائع والتواريخ فهو أولا وقبل كل شيء لم يكن فى حياته مؤرخا وانما نكون

منصفين اذا ما نحن قدرنا حاجته الماسة في شدته كانسان حساس متوتر
الاعصاب يعذبه اضطهاد وظلم يعتقد في صدق أن الانسانية جمعاء
توقعهما به الى أن يلوذ بماضى يضيف عليه دون قصد صورا باسمه
هنيئة ...

ومع ذلك فان هاتين الصفحتين تعتبران نشيد عرفان وتقدير لتلك
التي فتحت له بابها وقلبها وعوضته عن حنان الأم وأولته من الرعاية مالم
ينله تقريبا من انسان آخر طيلة حياته .. انها تكليل لهذه الصفحات ..
لهاته الأحلام التي جعلنا روسو نحلق معه فيها « كسيمفونية » رائعة
متناسقة تحمل على التأمل في الخالق وتسمو بالروح عن دنيا الشرور ..

طباع روس وماله النفسية في آخر حياته

عاش جان جاك روسو محروما فقيرا شريدا لعبت به أنواء الحياة وتجاوزته المحن وكان لكل ذلك أعماق الآثار في طباعه وفي حاله النفسية التي صحبتته حتى القبر . عاش محروما اذ فقد أمه قبل أن تكتحل عيناه برؤيتها ففقد بذلك حنانا لا يعوض أبدا وفقد أباه اذ اضطر هذا لهجره فانهار بذلك ركن يعتمد عليه الاولاد جميعا حتى يقووا على الوقوف في تيار الحياة واذن فقد عاش تقريبا يتيم الأبوين يحسن جوعا وعطشا الى الحنان لم يقدر له منه الا اليسير ولكن بعد حين .

وعاش فقيرا تنقل في شتى الحرف واحترف الخدمة في البيوت فذاق الذل وعرف الجوع وظل بعد ذلك يطرق أبواب الحياة خاوي الوفاض يلتمس لقمته في عناء شديد . وعاش شريدا لم يعرف الاستقرار ولا طعم الاسرة . . . فعاش وجيدا وقضى غريبا . . .

وكان روسو مريضا عرف المرض وكان لم يبلغ الثلاثين بعد وقيل انه مرض بفضوى أثر تأثيرا سيئا على نفسيته وكان سببا في عزوفه عن المجتمعات لعجزه عن اطالة مكثه بين الناس .

أسهمت تلك العوامل جميعا في تشكيل طباعه . فكان روسو حساسا مرهف النفس حار العاطفة طيب القلب محسنا خيرا خياليا حالمًا خجولا . وكانت له منع ذلك تصرفات تتعارض

مع تلك الميزات فقد كان أيضا مغرورا مسلوب الارادة متقلب الاهواء .
ولا ريب أن تلك الميول ، وتلك النزعات جميعا تظهر جليلة واضحة
« أحلام يقظة جوال منعزل » Les Réveries du Promeneur Solitaire
حيث تبدو نفسه على حقيقتها أصيلة بعيدة عن كل زيف .

فلأنه كان حساسا نراه فريسة للانفعالات العنيفة فتبتو له الأمور
أما طيبة جدا وأما بالغة السوء . فكان يتنازعه الإعجاب الشديد والحنان
الشديد والغضب الشديد جميعا على السواء . كانت الكلمة الرقيقة تدفع
الدموع الى عينيه والنظرة الشmerz تطيش صوابه وتؤله أشد الايلام . .
وكان حار العاطفة عاش أيامه جميعا بقلب شاب متقد الإحساس فتراه
يذكر « مدام دوفواران Mme de Warens في آخر « الأحلام » وكأنما هو
شاب فجع حديثا في حبه فهو يزفر زفرة حرة غريبة على شيخ يسير
بخطي حثيثة كجو السبعين .

وكان طيب القلب يميل الى عمل الخير . . كان حين يرتكب الخطأ
يظل يؤنب نفسه ويرزح تحت عبء ضميره ولو كان ذلك الخطأ يسيرا .
كان يحاسب نفسه حسابا عسيرا ويكشفها بغيوبها أمام الناس . وكأنما
ليؤدبها ويعاقبها عساها تكفر بذلك عما أتت .

كان محسنا متصدقا يعطف على الفقراء ويحب البسطاء من الناس
ويتفق برغم ضيق ذات يده ولكنه مع ذلك كان يحب أن يقدم الخير مختارا
طائعا لا يستشعر فيه الزاما ولا اكراها .

ولعل أبرز لمحات شخصيته هي نزعته الشديدة الى الخيال . . ولعل
عنوان آخر كتاباته « أحلام يقظة جوال منعزل » كان من الممكن أن يكون
عنوانا لجميع مؤلفاته . . لم تكن الحقيقة تكفيه وتشيع رغبته في الحياة
فكان يلجأ الى الحلم عساه يسعده ويبعده عن واقعه الأليم .

ولأنه كان خياليا نشد المثالية والكمال وبينما نراه نبيا يدعو الى
الايمان والعدل والحق والشرف والمحبة نلمسه أحيانا وقد أتى شيئا يتعارض
مع ما يدعو اليه فيعرض بكتاب مثلا أو يجد مزاي العزلة . أو يسرف
في غروره بنفسه واعتداده بها حتى « ليكون صامدا راسخا كالاله نفسه »
في بعض الأحيان .

ولعل من دلائل غروره ما كان يردده من أنه « كان يفضل أن يكون

منسيا من الجنس البشرى كله على أن ينظر اليه كما ينظر الى انسان عادى ،
كذلك ما كان من رفضه تلبية دعوة الملك حين أراد أن يكافئه على تأليفه
لأوبرا عراف القرية Le Devin du Village ولا ريب أن هذا الشرف
لا يتأباه الا رجل من طراز خاص .

ذلك الاحساس بطيب عنصره وعظمة نفسه جعله يؤمن بطبيعته ومن
ثم بالطبيعة عموما . . فجعلها أساسا للدين والسياسة والاجتماع
والاخلاق . . وأحبها من بعد الله . . .

وكان متدينا ينبع الدين من أعماقه يؤمن « بالرب الأعلى مبدع كل
شئ » وكان يلتقى به فى الطبيعة الرحبية التى ظل عاشقا لها مفضلا أياها
على كل شئ آخر . .

ولكن كان خروجه من صومعته « الارميتاج L'Ermitage » نذيرا
بحالة نفسية تثير الالتفات . بات يعتقد أن هناك عصبة تتآمر على سلامته
وتستهدف تقويض سمعته . . وفى هذه المرحلة تولد لديه شعور
بالاضطهاد ظل يتفاقم كلما زادت متاعبه وكثرت منغصات الحياة عليه . .
وأصبح متشككا فى كل حركة وفى كل همسة ويرى فى كل ذلك دلائل
المؤامرة الكبرى . . وزاد من محنته قرار طرده واحراق كتبه ورجم بيته
واضطرابه الى الهرب من مكان الى آخر خائفا وجلا . خاب أمله فى الناس
جنيعا عندما أحس أنه ضحية مجتمع كرس حياته للدفاع عنه وأنه يلقي
أسوأ الجزاء على ما ظنه خيرا قدمه اليهم من عصارة فكره وقلبه أحس
عندئذ عدم جدوى الاتصال بهم فباعد ما بينه وبينهم وعاش منطويا على
نفسه يكتب « اعترافاته » و « حواراته » وأخيرا « أحلام يقظته » وضع فيها
جنيعا ذاته هو وكرسها لدراسة نفسه هو ولعل فى ذلك أبلغ زد على
جحود الناس وانكارهم لفضله . . .

عاش فى عزلة اذن بعد أن اعتبر نفسه شهيدا وضحية وكان يزيد
من آلامه حبه للناس وكرهيته لهم على السواء . فلم يكن روسو يكره
المجتمع فى الواقع كما يشهد هو نفسه الا من أجل مايتطلبه من أعباء
وواجبات كان يعتقد فى عجزه عن القيام بها . . . وربما زاد من تعقيد
ذلك المرضى اللعين الذى ضاق به وجعل الدنيا مظلمة فى وجهه . ولكن عودته
الى باريس فى أواخر أيامه أعادت الى نفسه بعض الرضا حين أدرك أن
شهريته ذاعت فى أوروبا اذ أخذ يتردد على داره الكتاب والأدباء والفنانون
والموسيقيون من فرنسيين وانجليز وروس وإيطاليين (١) من المعجبين به

المتحمسين لآرائه ومن ينشدون عونه فى صياغة الإحسان .

وتنفرد « أحلام اليقظة » بأنها تشير الى مرحلة القلق النفسى التى تجلت فى « الحوار » Les Dialogues . وبعده ثم انفئات هنا لأن فيها لوما وعتابا الى جانب ماتناولته من موضوعات ذلك لأنه يبدو أن روسو ينس من شرور الناس فعالجها بعزلة قلب كان حريا أن يملأه الحب لجيل اعتقد أنه « يلذ له أن يؤذ حيا » وهى سلسلة من الشكايات الطويلة التى تراود خياله وتلج على ذهنه حتى ترهقه أحيانا وحتى تدعوه للاستسلام أخيرا ما دام لا يستطيع دفعا لأذى الناس وهو لم يكن لديه برغم ذلك أقى من السكون الذى بدأ يلفه تدريجيا كأنما هو مؤامرة أجيد حبكها من الجيل الجديد تستهدف القضاء عليه .

أكان حقاً مريضاً ؟ أكانت تعاوده « الشيزوفرنيا (الفصام) Schizophrénie فيحس من كل تصرفات من حوله اضطهادا يستهدفون من ورائه أذا ؟

والشيزوفرنيا كما يعرفها الدكتور منكوفسكى (1) Minkowski اضطراب نفسانى مظاهره عدم الانسجام وضعف الترابظ فى التفكير وقد أطلق العالم النفسانى بلويه Bleuer هذا الاصطلاح على الاضطراب العقلى المبكر الذى يصيب الشاب ثم يأخذ فى التزايد حتى يفقده قواه العقلية .

وقد عمم اصطلاح « شيزوفرنيا » بعد ذلك حتى شمل حالات عديدة منها الـ Autisme وهى الحالة التى يكون فيها انسانا ما خاضعا لتأثير عناصر حياته الداخلية أكثر من خضوعه لتأثير حياته الخارجية ومنها الهلوسة وهى حالة احساس المريض الذى يقوم على أمر وهمى ومنها أفكار الهذيان idées délirantes وهى الاضطراب النفسى الشديد الناشئ عن الانفعالات ، الخ

والفكرة الهذيانة عند هذا العالم النفسانى هى عبارة عن فكرة خاطئة غير قابلة للتحويل يتمسك بها المريض ويؤكدها فى اعتقاد جازم برغم وجود عوامل أخرى تدحضها ومجموعة هذه الأفكار تكون هذيان المريض وهى تنقسم الى ثلاثة أنواع : أفكار التعالى (مركب العظمة) وأفكار الاضطهاد والأفكار السوداء بسبب الخسارة المالية أو الاحتقار أو التجاهل أو الاتهام . .

وهذه الافكار كثيرا ما تمتزج بالهلوسة وهي التي تسبب الاضطرابات
فى علاقات من يصاب بها مع بنى جنسه والعالم الخارجى وتبين مدى الفرق
بين المصاب والسليم .

ويمكن أن تترجم الأفكار الهمديانية بأعمال خارجية تدل عليها
فالمضطهد على ذلك يتحول الى مضطهد حين ينهض للدفاع عن نفسه بهجمة
مضطهديه . . وهو هنا يصبح خطرا على المجتمع .

ويختتم أوجين منكوفسكى Eugène Minkowski مقالته بقوله ان المريض
كثيرا ما يكتفى بالتعبير اللفظى عن أفكاره وان كان يكتبها فى نفسه فى
أحيان كثيرة . .

من هذه الأعراض جميعا نكاد نعتقد بأن روسو كان مصابا بهذه
الحالة ولعل العلامة المميزة لهذه الحالة من الاضطراب النفسى هى البساطة
التي كان يضع بها أقرب أصدقائه موضع الشك ولم تسلم كثرتهم من
ذلك ولذا كان أصدقاؤه المقربون يتجددون باستمرار .

ولكن برغم ما كان روسو يعانيه من اضطراب نفسى وذهنى وبرغم
ماعناه كذلك من تقلبات الزمن معه فان ذلك كله لم يؤثر على كتاباته عموما
وبخاصة على « أحلام اليقظة » Les Réveries التي سجل فيها صفحات
خالدة هى من أجمل ما كتبه كاتب وفنان على السواء .

أحلام اليقظة بين مؤلفات الكاتب الأفرى

لعل أول ما يعرض عند قراءة الاحلام أنها تقدم لمحات عن حياة الكاتب ، على القارىء أن يتقبلها بحذر وبخاصة فيما يتصل بالاحداث البعيدة فى حياته وعلى أية حال فانها تمتاز بما يصحب الواقعة المعينة عند ابرادها من حالة نفسية تكيفها وتؤثر عليها . ومن دراسة الجولات وبعد تحليلها نستطيع أن نلمس صدق التطورات النفسية والذهنية التي كانت نتيجة لحالته العصبية فى السنين الاخيرة من حياته فهو يمر هنا بمرحلة هدوء نسبي يعرض فيها لكثير من النواحي التي جاءت بالحوار وكان فيها ثائرا مهتاجا ولعل الروح التي تصطبغ بها الجولات تكشف عن تطلعه الى تحقيق السعادة ومحاويلته اقناعه نفسه بأنه قد حصل عليها أخيرا فعلا . .

والجولات الى جانب ذلك تختلف عن سابقي أعماله الأخرى بأن: عنصرها جديدا - يضغط عليه كثيرا فيها - هو تبكيت الضمير ومحاولة تبرير مسلكه أمام نفسه أولا وأمام الناس ومن هنا تبدو « أحلام اليقظة » ذات أهمية خاصة .

وأمر آخر يسترعى الانتباه فيها ويميزها هو أنها قد تبدو مقككة فى أعمال ، فى حين أنها فى واقع الامر مترابطة أشد الترابط أحيانا ومنسقة على الأقل أحيانا أخرى .

ولعل القيمة الادبية فى « أحلام اليقظة » ترجع الى أننا نلقى صاحبها على طبيعته بغير ما تكلف أو تعقيد . . سواء أكان دافعه الى ذلك يأسه من الناس ومن المجتمع يأسا

لا رجعة فيه بحيث جرد نفسه من كل المظاهر التي يبدو فيها المرء وراء حقيقة أم كان دافعه تعلقه بالطبيعة البعيدة عن التكلف واندماجه فيها بحيث أراد أن يتشبه بها ، أم كان الدافع التقرب الى الله بالعودة الى طبيعة الاطفال .. الطبيعة الاولى .. أو طبيعة الانسان الفطرى الذى دافع روسو عنه فى رسالته الى أكاديمية ديجون ...

الواقع أن أعمال روسو كلها تعبر عن ذاته فهو لم ينس نفسه أبدا وبخاصة فى « الاحلام » التي تبدو وكأنها هى محور تفكيره وتأملاته التي يسبر أغوار نفسه عن طريقها ويصورها ويحلل أحداث ماضيه فى اعزاز ويحاول أن يعوض ذاته عن آلامها فيخلق لها جوا تسعد فيه وتنتشى .. عالما خاصا بها خلقت من أجله ...

وبرغم مايتخلل « الاحلام » من قلق تنبئ عنه وتردده بعض العناصر الادبية التي جاءت فى مؤلفاته السابقة .. إلا أن المرء يحس فيها بنشوة تكاد تغير من شخصية صاحبها وتجعله أقرب الى أن يكون شرقيا متصوفا (١) ونحن نرى بذلك أنفسنا حيال انسان وشاعر جديدين .. والانسان هنا ذكى جذاب بفضل ذكائه .. كان النقد والهوى والهذيان تززع جميعا من قبل ثقته أما هنا فلا أثر لذلك كله .

وفى الجولات الاربع الاولى - كما فى الجولة السادسة - تحليلات جديدة بكتاب كلاسيكى . وانا لنجده فى هذه « الاحلام » وقد تحرر من عالم كان يشجع نواحي الضعف فيه ثم ينحو عليه باللائمة فيبدو ببراءته التي فطر عليها وبجسسه المرهف وبعاطفه الجياشة وبجبهه للاطفال والفلاحين ومشوهى الحرب والبسطاء من الناس . وهو فى الجولتين السادسة والتاسعة يبدو الى جانب ذلك - مثلهم - مرحا طاهرا مبرا ألقى عن كاهله زيف الحضارة المصطنعة وعاد الى الطبيعة التي خلقت منه انسانا بكل ما فى الانسانية من سمو ورقة والجولتان اللتان خصصهما لاقامته فى جزيرة سان بيير Saint-Pierre (الخامسة) وميله للاستعشاب (السابعة) يبدو فيهما بوضوح تأثير العالم الخارجى عليه .. وكان كمال الطبيعة يؤكد لهذا المؤمن أن الاله الخالق الذى أبدع هذا الكون الرائع لا يزال يسهر عليه ولا يفتأ يجمله . والطبيعة عنده حية مثل روحه التي تحركها وتتفاعل معها ومن هنا تبدو اصالة « أحلام اليقظة » .

(١) م. ريمون يذكر هذا التشابه بين روح روسو وروح المسلمين وهو ما ذكره

روسو نفسه فى «حواره» .

Henri Roddier : Les Rêveries du Promeneur Solitaire, p. LXXXII.

ذلك لانه لأول مرة تلعب الطبيعة الدور الرئيسى فى مؤلف من مؤلفاته أو تلعب الدور الايجابى المباشر ، فهى ذات لها أحكامها وارادتها ووسائل اغرائها التى تمارسها على المخلوق الوحيد الذى يفهمها ٠٠ وقد لقي فيها روسو سلوته البريئة وعزاه ومتعته التى تلائم طبيعته وأهدافه، وهكذا تحققت لروسو فى آخر أيام العمر أعز أمانيه ٠٠ كان المزاج المسيطر عليه هو الاعتزال فى الريف على أن يخالطه التجوال وتلحق به الاخيلة والاحلام ٠ وهو يعلن فى سرور أنه « لم يفكر ولم يحس بكيانه ولم يدرك طعما لحياته ولم يعرف ذاته الا فى هذه الجولات التى تنقل فيها على قدميه فهو يقول «ان السير نحو شيء ما يحى أفكارى ويشحذها واننى لا أكاد أقوى على التفكير حتى يستقر بى المقام فى مكان ما ٠٠ يجب على جسدى أن ينتفض حتى يحتوى روحى ويستوعبها »

كان الله قد رزقه بالتفكير الحالم فى الطبيعة ، نشوة أنعشت روحه ورققت من مزاجه فغدا لا يحس بوحدته برغم انفراده لانه كان يعيش مع ذاته وكانت الطبيعة تتجسد أمامه فغدا صفى أحلامه وخذن أخيلته ورفيق ذاته ثم مصدر مشاعره الداخلية ٠٠ واحساساته الباطنة وعقائده ووساطة اتصالاته باللاتهائية ثم خضوعه واذعانه للارادة الالهية فى نهاية الامر ٠

لقد كان روسو موسيقيا أو هو على الأقل اشتغل بالموسيقى وألف فيها وكانت هوايته نسخها حتى آخر أيامه والموسيقى هى أحسن ما يترجم خلجات النفس وخواطرها فلا عجب أن جاءت الاحلام على هذه الصورة « سيمفونية » رائعة ٠ صدق « جوته Goethe » اذ شبهها بسيمفونيات « بيتهوفن Beethoven »

واذا كانت الاعترافات Les Confessions سردا لكافة الاحداث التى تخللت حياة الكاتب و « الحوار Les Dialogues » دفاعا ثائرا مضطربا عما اتهمه أو خيل اليه أن الناس اتهموه به فان «أحلام اليقظة» Les Rêveries تمتاز عن الاولى بالتحليلات النفسية العميقة وعن الثانية بكثير من الاتزان والتعقل وهندوء الخاطر نتيجة رضوخه للقدر واذعانه لمشيشة الله ٠

وأحلام اليقظة كذلك نافذة نطل عبرها على القرن الثامن عشر بفلاسفته وأحداثه وعاداته ٠٠ الى تلك الحقبة من الزمان التى أنجبت مفكرين وأدباء عظام قد يكون كاتب هذه الاحلام أشهرهم وأقواهم تأثيرا فى الاجيال التالية ٠

أصالتها وأثرها الأدبي

ان القارئ لـ « أحلام يقظة جوال منعزل » يدرك على التو أنها ابنة القرن الثامن عشر والابنة الصغرى لكاتب عظيم من ذلك القرن نفسه هو جان جاك روسو .

لقد قيل (١) : « ان روسو في فرنسا هو الداعي الى ثورة مزدوجة : احداها ثورة ١٧٨٩ في مجال الاحداث ، والاخرى الرومانتيكية Le Romantisme في المجال الفكرى »

أما هنا فنحن لا تهمننا الا الثورة الثانية اذ أن الاولى (ثورة ٨٩) لا تهمننا هنا بقدر ما تهتم الباحث فى السياسة والآراء السياسية .

فيم كانت تلك الثورة ؟

فى عصر أكثر ما يميزه أنه عصر الفلسفة ، كثر فيه المفكرون والباحثون والعلماء الذين يبنون أفكارهم وآراءهم على أسس وقواعد ومذاهب أساسها العقل والمنطق ، جاء جان جاك روسو ليرفع راية العصيان فى وجه هؤلاء جميعا وليناصبهم العبداء ولينفر من طريقة تفكيرهم وليقول لهم أخيرا « انكم منافقون ، فلسفتكم زائفة وآراؤكم عقيمة لا جدوى منها » ولا عجب فقد آمن روسو بالعاطفة قبل العقل وبالاحساس قبل الفكرة فكان ذلك الدين الذى سار على هديه وتعاليمه

طيلة حياته • فبينما كانوا يفكرون كان هو يحس ويستمتع ويتألم (١) وبينما كان غير يصلون عن طريق التحليل الى فكرة الاحساس كان هو قد وصل الى حقيقة الاحساس عن طريق طبيعته ، كانوا يناقشون اما هو فكان يحيا •• ومن هنا تدفقت كل أعماله الادبية ، حتى كان آخرها « أحلام اليقظة جوال منزل » •

اذن فقد كانت لهم فلسفتهم أما هو فكانت له فلسفة خاصة به وحده هي فلسفة القلب ان صح هذا القول •• لانها صادرة عن القلب •• وكانت هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse هي النبع الذي تدفق منه سيل الحساسية والعاطفة •

كان للعاطفة في الأعمال الادبية قبل روسو نصيبها فهي احدى الصور المشروعة في الحياة لكنها ليست أهم ما في الحياة أو على الأقل هي ليست الرائد الوحيد للمرأة فيها •• وقد كانت حين تدهم الروح وتسيطر عليها حدثا هو موضوع لرواية أو مسرحية فحسب دون أن تكون هدفا ومثلا أعلى أما بالنسبة لروسو فعلى العكس من ذلك كانت العاطفة هي العنصر العامل الوحيد في الروح بل ان قيمة الحياة في نظره مستمدة من مبلغ نصيب تلك العاطفة فيها ••

ونحن اذا تأملنا حياة روسو نفسها وجدنا أنه حقق بها حياة بطل رومانتيكي بكل ما في تلك الحياة من عدم تجانس وفوضى وهروب دائم من المجتمع ومشاعر متقدة وأحزان •• فقد كان لروسو حظ الحياة بعيدا عن المجتمع حتى ناهز الاربعين واذن فقد عاش حياة ابن الطبيعة وحياة الانسان الفطري الذي لا يفقه من أصول الوجود في المجتمع شيئا قبل أن يكتب عن تلك الحياة وقبل أن يصفها في مؤلفاته •

وكان يحس وهو يكتب « الاعترافات » و « أحلام اليقظة » أن روحه تنطوى على تألم لا يدرك كدهه وأن في قلبه فراغا لا يمكن أن يمتلئ •• فكانت العاطفة تسير مع الألم جنباً الى جنب والنفوس الحساسة يبعث تألمها القلق والاضطراب مما سمي بسأم القرن Le Mal du Siècle وهو من أكبر خصائص العصر الرومانتيكي • هذا ولو أن الاعترافات Les Confessions وأحلام اليقظة Les Réveries لم تكونا وحدهما مبعث ذلك السأم والكتابة لأن قراء القرن الثامن عشر لم يعرفوها الا في عامي ١٧٨١ و ١٧٩٠ • اذ انه لم يتم نشر هذين المؤلفين الا بعد وفاة الكاتب - ولكن كان مبعثه

رواية « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse » التي كان يتخاطفها الناس يقضون ليل بأسرها يقرأونها ويؤجرونها أحيانا ويبيكون مع روسو « وينتشون بلذة الاحساس (١) »

والخيال لدى روسو يساند الاحساس ويذكره انه كذلك يسلمه الى أحلام يحلق فيها مع « كائنات من خلقه » وفي « عالم خاص به لانه من صنعه » عالم يسعد به وينسيه شرور الحياة الدنيا ولذلك كانت أعمال روسو الادبية جميعا محورها الخيال والمثالية ، فتخيل مجتمعا سعيدا صحيحا ، وتخيل تربية مثالية لم يعرفها ولم يمارسها بنفسه ، وتخيل طريقة جديدة لوضع الموسيقى ، وتخيل حبا طاهرا سماويا حفظ البشر منه قليل نادر ، وتخيل نفسه يحاكم شخصا آخر لم يكن سوى روسو نفسه ، وأخيرا ، وليس أدل على قوة ذلك الخيال الذي عاش روسو به وفيه طيلة حياته من العنوان الحالم الذي شاءه لآخر كتاباته أو بالأصح لآخر خيالاته وهو « أحلام يقظة جوال منبزل » .

واذن فقد كان روسو شاعرا ، وما هو الشعر ان لم يكن احساسا دافقا وخيالا متقدرا رحبا ؟ كان شاعرا في عصر أحل الفكرة المنطقية الجافة محل انتفاضات العاطفة والقلب .

وناهيك اذا ما امتزج ذلك الاحساس وذلك الخيال بحب للطبيعة عظيم وتمجيد لما أبدع الخالق ليس له نظير . لقد أحب روسو الطبيعة فصورها في اطار جديد أجمل تصوير . أحبها كما يحبها انسان وفنان وحالم ومتعبد وعاشق فاستحق بذلك أن يكون « أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى آخر القرن الثامن عشر (٢) » . حقا انه لم يكن للطبيعة في الادب الفرنسي من قبل مكانة كبيرة ذلك لان الادب الفرنسي عامة هو أدب قوم يعيشون في المدن أى أن هؤلاء القوم كانوا يفضلون متع المجتمع على مفاتن الطبيعة (٣) كان الناس يقدمون على السفر مكرهين وكانت الطبيعة الحلوة في نظرهم هي فصل الربيع وحده ذلك لان القرن السابع عشر أورث الثامن عشر النفور من الريف اذ كانت باريس تزخر بالمسارح تمثل عليها المسرحيات الجديدة ، وبمقاهيها الشهيرة حيث يتواعد الادباء والكتاب ، وبصالوناتها . . يجتمع بها عليّة القوم يلهون ويتناقشون ، حتى جاء روسو ليصيح فيهم أن عودوا الى الطبيعة وليصفها لنا في صفحات بدعة خالدة من أحملها وصفه لجزيرة سان بيير Saint-Pierre وسط بحيرة بين Lac de Bienne في الجولة الخامسة من « أحلام اليقظة » .

D. Mornet : La Pensée Française au XVIIIème siècle, p. 140. (١)

Louis Ducros : J.J. Rousseau, p. 57.

(٢) ، (٣)

وكان روسو فريدا في تفكيره ولم يكن يجب أن يقلد أحدا من السابقين فهو حين كان يريد مثلا أن يكتب في التربية استلهمها من خواطره الخاصة وكذلك إذا ما أراد أن يصف مشهدا طبيعيا لا يلجأ الى الكتب ولا يستعير الصور من غيره كما كان يفعل بعض معاصريه من الادباء ولكن كان يكفيه أن تعود به الذكرى الى حيث عاش بين ربوع الطبيعة سواء كان ذلك في بوسى Bossey أو في الشارميت Les Charmettes أو في الارميتاج L'Ermitage وهكذا كانت صورته صادقة تزخر بالحياة لانه لم يسافر في عربة لاهيا يمل طول الطريق كما كان يسافر الناس في ذلك الوقت لكنه كان يتحل ضاربا على قدميه متأملا منتشيا بالطبيعة وسحرها الذي ينعش روحه يمتزج بها ويسعددها ويرتفع بها الى الله مبدع ذلك كله . .

والطبيعة التي تستغرق روسو هي الطبيعة الكبرى التي لم يفسدها الانسان بتعديله وتنظيمه كشواطئ بحيرة بين Bienne مثلا وهو في ذلك يختلف عن معاصريه في حبهم للحدائق الانجليزية المنظمة .

ولانه فريد أيضا ، فانه كتب « الاعترافات » وكتب « الحوار » وكتب : « أحلام يقظة جوال منعزل » وضع فيها ذاته وكشف فيها عما تكنه من أحاسيس ومشاعر مبينا عيوبه قبل فضائله ولم يحدث من قبله أن كتب كاتب بمثل صراحته وجراته . . لم يحدث من قبل أن سطرت اعترافات بهذا الصدق وتلك الشجاعة ولم يحدث أن قام حوار بتلك الثورة ولا ذلك الازدواج الفريد في الشخصية كما لم تكن أخيرا « أحلام اليقظة » نوعا أدبيا متعارفا عليه محدد المعالم .

لقد كتب في مستهل « الاعترافات » Les Confessions : « انى أكون مشروعا لم يكن له من قبل نظير ولن يكون له مقلد » ، والواقع أنه فريد لم يقلد لا عند كتابة « تلك المؤلفات الاخيرة فحسب » بل في كل أعماله الادبية على الاطلاق وذلك شأن من ينهج نهجا يمليه عليه قلبه وحده ويستمد من ذاته وحدها .

ولئن كان روسو فريدا أيضا بين كتاب عصره فبأسلوبه البديع وجملته الموسيقية الجذابة وتعبيراته القوية وبلاغته ومنطقه (لان البلاغة والمنطق لا يصدران عن العقل وحده لكن عن القلب والشعور قبل العقل) لذلك قدر له أن يفرض جل آرائه على التفكير الانساني وعلى القلب الانساني وما صدر عن القلب حل في القلب كما يقال ، بل انه كثيرا ما يكون القلب أكثر اقناعا من العقل . ولم يكن ينقص أسلوبه في « أحلام يقظة جوال منعزل » Les Réveries du Promeneur Solitaire سوى بعض قوافي الشعر

وأوزانه لتكون شعرا خالصا ، بل ان كثيرا من جمله لو انها نظمت كما ينظم الشعر لكانت قصيدا بارعا ليس له نظير وهذه الطريقة فى الكتابة هى التى جعلت من روسو . . ان صح القول : « أعظم شاعر فى القرن الثامن عشر » كما انه ، عنها : يتعرف الانسان على روسو وشخصيته ونفسيته .

ولئن كان روسو لم يترك أولادا فقد خلف وراءه بنات أفكاره وأبناء عبقريته وهؤلاء هم الذين خلدوا ذكره عبر السنين فكان له فى حياته ومن بعده دائما معجبون ومتحمسون لافى فرنسا فحسب بل فى ألمانيا وإنجلترا وغيرها من البلاد حيثما رقى الاحساس وشفت الروح وظهرت الرغبة فى الهروب من مادية بغيضة كريمة هى وليدة الحضارة الزائفة .

ومن أكثر الكتاب الفرنسيين تأثرا بروسو وكتاباته « برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre » الذى كان صديقا حميما لروسو فى أواخر العمر فصاحبه فى جولات كثيرة كانا أثناءها يتحدثان ويجمعان الزهور والاعشاب ثم مات روسو فترك فى قلب صديقه ذكرى عزيزة جعلته يكتب « حياة ومؤلفات جان جاك روسو » La Vie et les Ouvrages de J.J. Rousseau وكذلك شاتوبريان Chateaubriand الذى يطلق عليه « أب الرومانتيكية » باعتبار روسو الاب الأكبر لها ثم مدام دوستايل Madame de Staël التى كتبت عنه تقول « لقد كان الخيال أولى ملكاته بل كان يطغى على ملكاته الأخرى » كان يحلم أكثر مما يحيا وكانت أحداث حياته تدور فى رأسه أكثر مما تدور خارجها وعندما كان يرى بين الناس كان حب المرء له يقل ، ولكن عندما كان يرى مرة أخرى مع الطبيعة فإن كل اختلاجات نفسه تجد صداها فى قلوبنا وتسمو فصاحته بمشاعر أرواحنا (١) .

وكانت الكاتبة الكبيرة جورج صاند George Sand كذلك الابنة الروحية (٢) لروسو فقالت عنه « انى مخلصه له دائما كما لو كان أبا أنجبني لقد أورثني كما أورث كل الفنانين المعاصرين لى حب الطبيعة » كما انها - كتلميذة محبة لروسو - كثيرا ماتمنت أن تكون مدام دوفواران أخرى (٣) .

وممن تأثروا بروسو الى حد كبير أيضا الكاتب سينانكور Sénancour اذ يقول على لسان بطل كتابه «الدومين Aldomen» : انى أعود فى قراءاتي دائما الى جان جاك روسو والى برناردين دو سان بيير وأدرس الطبيعة

Madame de Stael : Lettre sur les écrits de J.J. Rousseau. (١)

Docteur Dorrya Fahmy : George Sand : Auteur dramatique (٢) ، (٣)

pp. 358,861.

والانسانية مع الرجل الذي يعرفه عصره أقل مما يجب (١) وغيرهم كثيرون
كان روسو لهم رائدا وملهما . .

وبعد . . فما أروع أن يصل المرء بجهد وحده دون معلم سبوى
الزمن وبلا هاد سوى فكره وقلبه !!! . نقول : « ما أروع أن يصل الى
مراتب الخالدين !!! » ان النفوس القوية لا تستطيع أن تخضع أموراً
كبيرة لمشيئتها وتخضع الكون لفكرتها وتختار في حرية من الاماكن والعصور
ما يتفق وطبيعتها .

ولئن كان روسو سياسياً بارعاً ومصلحاً اجتماعياً كبيراً ومريئاً مثالياً
فرض آرائه ومبادئه على الفكر الانساني فتأثر به . . فان الافكار تهرم
وتشيخ ثم تموت طالت حياتها أم قصرت ودلينا على ذلك تلك المدنية
المتطورة ، المتغيرة أبداً ، فلنلتفت اذن الى ماهو باق ، الى ماهو خالد ، الى
ماسوف تعجب به الاجيال القادمة مثلما نعجب نحن به . . الى ذلك النبع
الغزير من البلاغة والنهر الفياض من الاحساس الرقيق ، الى ذلك التشيد
الحالم الذي لن يطويه الزمان « أحلام اليقظة » نتاج شيخوخة أحاطت بها
الموسيقى فترنمت بالعزلة وتغنت بالطبيعة في قصيد هو زهرتها وثمرتها .
« حين أريد إقامة تمثال لـ «يوليوس الثاني» أراد ميخائيل أنجلو أن يزوده
بمفاتيح القديس بطرس فصاح البابا « لا . . بل بسيف » .

أما أنت يا جان جاك فاذا وضعنا العقد الاجتماعي أو أميل بين يديك
قلقت : « لا . . ليس كتباً . . بل باقة من الزنايق » .

مسيكين روسو ! لننظر اليه في صميم نفسه خلال
كتاباتة وفي دوائر افكاره في كل ما يند عنه من تناقض
ومن صلق • فلو اننا اردنا ••• في سبيل الحكم عليه
••• ان نستمسك بفحصه على ضوء ما تجمع لتعاليمه
من آثار وما نجم عنها من منازعات لاحصر لها لما التقينا
به املا كما كان تماما •• فلننظر اليه عن كثب كمن
كان يقابله في شارع بالترير فما تزال هذه هي الوسيلة
التي تتيح لنا ان نكون عنه فكرة دقيقة عادلة •

سانت - بوف

Sainte-Beuve

(Causeries du Lundi)

الجملة الأولى

هأنذا وحيد في الدنيا ، لم يعد لى من أخ أو قريب أو صديق أو صجة سوى ذاتى . ان اكثر الناس ميلا للمجتمع وأكثرهم حبا للناس قد اتفقوا جميعا على نبذه منها ، ولقد بحثوا - وهم يشحدون كراهيتهم عن ألم يستطيع ان يكون أشد قسوة على نفسى المرفقة الحس ، فحطموا فى عنف كل وشيجة كانت تربطنى بهم . لقد كان من الممكن أن أحب الناس بالرغم منهم ، ولكنهم لم يستطيعوا ان ينسلوا من محبتى هذه الا حين كفوا عن أن يكونوا بشرا . فلا غرو ان أصبحوا جميعا غرباء مجهولين ثم نكرات بالنسبة لى ماداموا قد أرادوا ذلك لانفسهم . اما أنا وقد اعتزلتهم جميعا واعتزلت كل شىء ، فاننى اتساءل ماذا عساي ان اكون ؟ ذلك هو السؤال الذى بقى على أن أبحث عن اجابة عنه . ولكن هذا البحث يجب أن يسبقه لسوء الحظ اللقاء نظرة على موقفى وهذه فكرة أرى لزاما على أن أمر بها كى ينتقل الحديث عنهم الى .

منذ أكثر من خمسة عشر عاما (١) وأنا فى هذا الموقف الشاذ الذى لا يزال يبدو لى كأنما هو حلم ، وأخال نفسى دائما كأنما يعذبنى عسر هضم ، أو كأنما استسلم لنوم مضطرب واننى أوشك أن أستيقظ وقد زال منى الألم أو كاد لارانى بين أصدقائى . أجل مما لا شك فيه أننى وثبت وثبة سريعة ، دون أن انتبه الى ذلك ، من اليقظة الى النوم

(١) صدر قرار من برلمان باريس فى ٩ يونيه ١٧٦٢ بحرق كتاب « اميل » Emile بعد أقل من عشرين يوما من خروجه من المطبعة فى هولنده . وعلى اثر ذلك اضطر روسو الى الهرب الى سويسرا حين علم أن أمرا صدر بالقبح عليه ، فلجأ الى مدينة ايفدون Iverdun وسرعان ما أصدر برلمان جنيف ثم برن على التوالي قراريهما بادانة كتابى اميل والمقد الاجتماعى فاضطر أخيرا الى أن يلجأ الى قرية موتيه ترافير Motiers-Travers بالقرب من نيوشاتل Neuchâtel الخاضعة لسلطان فردريك الثانى ملك بروسيا .

أو بالاحرى من الحياة الى الموت . ولست أدري بعد أن انتزعت من بين مجرى الاحداث كيف وجدت نفسى أهوى فى عماء لا يدرك كنهه حيث لا أتبين شيئاً على الاطلاق ، وكلما أمعنت الفكر فى موقفى الراهن قلت قدرتى على ادراك مكانى .

وانى كان لى أن أتكهن بالمصير الذى كان ينتظرنى ؟ وانى لى أن أدرك اليوم منه شيئا وقد اسلمت له قيادى ؟ أفكنت أستطيع بإحساسى الفطرى أن افترض اننى فى يوم من الأيام أنا الرجل نفسه الذى كنته والرجل نفسه الذى لا أزال أكونه ؟ سيعدوننى بل سيعتبروننى من غير أدنى شك وحشا ، وسما زعافا وسفاكا ، واننى سأصبح موضع اشمئزاز الناس والعوبة فى أيدي الرعاع ، وأن كل تحايا المارة ستكون بصاقا على ، وان جيلا بأسره سيستمع بدفنى حيا (١) . وحين تم ذلك التحول العجيب اضطربت فى بادىء الامر اذ أخذت على غرة ، وألقى بى اضطرابى وحنقى فى هذيان لم تكن عشر سنوات بالكثيرة عليه حتى يهدأ (٢) ، وخلال هذه المرحلة وأنا أقع فى هفوة بعد هفوة وخطأ بعد خطأ وحماسة بعد حماسة ، زودت - بعدم تبصرى - أولئك الذين يملكون زمام مصيرى بما يكفى من أدوات استخدموها فى مهارة لتحديد هذا المصير تحديدا قاطعا .

لقد جاهدت طويلا في ان اتخلص في عنف من سلطانهم - بغير جدوى مع ذلك - ، ولقد اعوزتني المهارة والحيلة والقدرة على المصانة والحرص . كنت صريحا ، سليم الطوية ، قلقا ثائرا ، ولكنني حين كنت أحاول الفكك كنت أزيد من القيود التي تكبلني ، وكنت أيسر لهم باستمرار ان يثألوا مني في نواحي الضعف التي لم يتوانوا عن استغلالها.

وحين أدركت في نهاية الامر عدم جدوى ما أبذل من جهود وأننى أعذب نفسى بغير طائل ساكت السبيل الوحيدة التى لم يكن هناك مفر من سلوكها وهى الرضوخ لما كتب لى والكف عن معاندة الأقدار ، ووجدت فى هذا الاستسلام تعويضا عن كل ما نالنى من أذى وذلك بفضل ما

(١) جاء في «الحوار الاول» dialogue المنشور في: Oeuvres. Hachette. tt IX. 156) « لقد جعلوا من هذا الشمس العوبة للعامة وسخرية للرعاة وموعضا لاشمئزاز الناس . انهم يحرمونه من كل مجتمع انساني ويكتفون انقاسه في الموحد ، ويستمتعون بدفنه حيا .

(٢) بنوة روسو هنا بمخاضه للفيلسوف الانجليزي دافيد هيوم David Hume وبالشهور الاخيرة لاقامته بالجلترا .

أصبح على هذا الاستسلام من سكينه لم تكن لتتفق والاستمرار في
المقاومة المضنية العقيمة

وهناك أمر آخر أسهم في هذه السكينه ذلك أن أولئك الذين كانوا
يضطهدونني اغفلوا وهم يشجذون بعضهم أمرا أنساهم اياه . فقد هم
ولقد استطاعوا عن طريق المضي في تلك السبيل تدريجيا ابقائي معذبا
ثم تجديد الآمى عن طريق مداومة نيلهم منى - ولو أنه كان لديهم من
الحصافة ما يجعلهم يتركون لى شعاع أمل لبقيت حتى الآن تحت
سلطانهم . لقد كانوا يستطيعون كذلك أن يجعلوا منى العوبة عن طريق
وهم زائف ، ثم يعاودون ايلامى من جديد نتيجة خيبة آمل المرتقبة ،
ولكنهم كانوا قد استنفدوا كل حيلهم . وهكذا كان فى تجريدهم لى
من كل شىء حرمان لهم من كل شىء ، ولم يعد ما رموني به من افتراء
وكأبة وعار مما يحتمل زيادة أو تلطيفا حتى نال العجز منا جميعا ،
فأصبحوا هم عاجزين عن أن يتمادوا وأصبحت أنا غير قادر على الخلاص .
ولقد امعنوا فى تجريعى كاس البؤس حتى الثمالة حتى لم تعد قوى
البشر مجتمعة تساندنها أساليب جهنم لتستطيع أن تضيف إليها
شيئا ، بل أن العذاب الجثمانى نفسه كان كفيلا بأن يلهينى عن الاحساس
بالآمى ، بدلا من أن يزيدا ، فباتتزاز صراخى كأن حريا أن يجنبنى الانين
كما كان تمزيق جسدى حريا أن يحول دون تقطيع نياط قلبى .

وبعد ، فماذا أخشاه منهم وقد انتهى كل شىء ؟ انه لم يعد
فى طاقتهم أن يثيروا مخاوفى لانهم لم يعودوا قادرين على الاساءة الى
أكثر مما فعلوا . لقد جردونى نهائيا من القلق والخوف ، وفى هذا راحة
لنفسى على أية حال . ان الآلام الحقيقية لا تنال منى الا قليلا ، وانى
لا تغلب فى سر على ما أستشعره وليس على ما أتوجسه منها ، ذلك
لان خيالى الجامح يربط فيما بينها ويجدها ويوسع فى مداها ويزيد
منها ، بل ان ترقبى لها يعذبني مائة مرة أكثر من وقوعها ، فوقع البلاء
خير من توقعه - ذلك أن المصائب اذا ما حلت فقدت هالة الخيال
التي تحيط بها حتى تكشف عن صورتها الفعلية وعندئذ أراها أضعف بكثير
مما كنت أتخيلها بل انه لا يعوزنى الاحساس بالراحة وأنا مغرق فى الآمى .

أما وقد تحررت من كل المخاوف الجديدة ، و تخلصت من القلق
الذى يساور الامل ، أحس أن اعتيادى ذلك كفيلا بأن يجعلنى يوما
بعد يوم أكثر قدرة على احتمال موقف لا يمكن أن يزيد سوءا ، وكلمة
ازداد ارهاق احساسى بمرور الزمن لم تعد أمامهم وسيلة لاشغال

جذوته . هذا هو المعروف الذى أسداه الى مضطهدى حين استنفدوا الى ابعد حد ما فى جمعيتهم من سهام بغض ، وهكذا جردوا أنفسهم من سلطانهم على وغدوت أنا بدورى أسخر منهم .

لم يكده يمضى شهران منذ نعم قلبي بسكينة مطلقة ، ذلك لانى منذ امد طويل لم أعد أخشى شيئا وان كنت مع ذلك يملأنى الامل ، ذلك الامل الذى كان يدنو منى مرة ويبتعد أخرى ظل هدفا لم تال آلاف العواطف المختلفة تستثيرنى من أجله ، ولكن أمرا محزنا (١) وغير متوقع محا من قلبي هذا الشعاع الضئيل من الامل ، وكشف لناظرى عن مصيرى وقد تحدد نهائيا والى الأبد فى هذه الدنيا . ومنذ هذه اللحظة رضخت بغير تحفظ حتى وجدت السكينة من جديد .

وما أن بدأت أتبين المؤامرة فى أوسع نطاق لها ، حتى تخلت تماما عن فكرة استمالة الناس الى صفى مادمت حيا ، وحتى ذلك الامر الذى لم يعد من الممكن أن أبادلهم اياه سيفقدو منذ الآن عديم الجدوى ، ذلك لأن أولئك الناس مهما جهدوا فى الرجوع الى فانهم سوف لا يجدون فى ما ينشدون ، كما أنهم بآثارهم احتقارى اياهم تصبح صلتى بهم لا معنى لها ، بل انها تغدو عبئا ثقيلا . وانى لاحس اننى أسعد حالا مائة مرة فى وجدتى منى وأنا معهم . لقد انتزعوا من قلبي كل احساس بحلو المعاشرة الذى صار من العسير أن ينبعث من جديد فى سننى هذه فقد بات ذلك متأخرا جدا فليحسنوا او يسيئوا الى بعد اليوم فسوف لا يعيننى منهم ذلك ومهما فعلوا فلن يكون لمعاصرى من شأن لدى ابدا .

ومع ذلك فانى كنت أعول على المستقبل ، وكنت أمل فى جيل افضل يستطيع أن يتفحص الامور خيرا منهم ويصدر حكمه فى صالحى ، ويستطيع بمسائرتى أن يتبين زيف قاداته حتى يشهدنى على حقيقتى — ان ذلك الامل هو الذى دفعنى الى أن أسطر «حوارى» (٢) Dialogues بل هو الذى أوحى الى بأن أقوم بألف محاولة جنونية لاقدمها للأجيال الصاعدة — ان ذلك الامل — وان كان بعيدا — هو الذى جعل روحى تستشعر الاضطراب نفسه الذى كان ينتابها حين كنت أبحث خلال القرن

(١) من المعروف أنه حاول دون أن يوفق ابداع مخطوط الحوار Les Dialogues كنيسة نوتردام Notre-Dime فى ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ .

(٢) روسو يحاكم جان جاك Rousseau Juge de Jean-Jacques ثلاث قطع من الحوار كتبها فيما بين ١٧٧٢ ، ١٧٧٦ وقام بنشرها دى بيرو Du Peyrou فى ١٧٨١ .

من قلب عادل - أما أمانى التى حاولت عبثا التطويح بها فقد جعلت منى كذلك موضع سخريه معاصرى .

ولقد ذكرت فى «حوارى» الاساس الذى أقمت عليه ترقبى ولكننى كنت مخطئا ، وادركت ذلك لحسن الحظ فى وقت مناسب لاجد - قبل أن تحل ساعتى - فترة هدوء شامل وراحة مطلقة . وقد بدأت هذه الفترة فى المرحلة التى أتحدث عنها ، وأحسب أنها لن يعترضها شيء بعد الآن .

وما كادت تمر الايام قليلة حتى اكملت لى خواطر جديدة مقدار خطئى حين اعتمدت على عودة الناس ولو فى زمن آخر ما داموا - على الاقل فيما يتصل بى - ينساقون وراء مرشدين يتجددون باستمرار فى الهياثات نفسها التى أمعنت فى النفور منى . ان الافراد يموتون ، وأما الجماعات فلا تموت أبدا . ان المشاعر نفسها تخلد فيها كما أن حقدنها المتقد ، الخالد كالشيطان الذى يوحى به ، فيظل له دائما الاستعمار نفسه وحين يموت كل أعدائى من الافراد ، سيكون الأطباء والوعاظ على قيد الحياة ، وحين لا يبقى من بين مضطهدى سوى هاتين الطائفتين فيجب أن أكون على يقين من أنهم لن يكونوا بعد موتى أكثر رحمة بذكرائى مما كانوا خلال حياتى .

ان الأطباء الذين أسأت اليهم فى الواقع قد تهدأ ثائرتهم بمرور الزمن ، ولكن الوعاظ الذين كنت أحبهم وأقدرهم والذين كنت أودعهم ثقتى المطلقة والذين لم أسئ اليهم أبدا . ان الوعاظ رجال الكنيسة انضاف رجال الدين سيظلون دائما متعنتين لان جورهم جعل منى مجرما فى نظرهم ، وهو أمر لن تفتقره لى كرامتهم أبدا ولكن الجماهير الذين يوالون اشعال جذوة حقدهم ضدى باستمرار لن تهدأ ثائرتهم كذلك .

لقد انتهى كل شيء بالنسبة لى فى هذه الدنيا ، ولن يستطيع احد بعد أن يفعل بى خيرا أو شرا . لم يعد أمامى ما أمل فيه أو ما أخشاه فى هذه الدنيا ، وهأنذا مستكين فى قرار الهاوية بشرا فانبا منكودا ولكن صامدا كالاله نفسه .

اننى سأعد منذ الآن كل مالا يتعلق بى غريبا عنى فليس لى بعد فى هذا العالم من قريب أو اقران أو اخوة - فانا على الارض كما لو كنت فى كوكب غريب وسقطت عليه من كوكب كنت أعيش فيه ، ولئن

تعرفت من حصولي على شيء فأنما أتعرف. على المحزن الممزق لقلبي من الامور ، ولست أستطيع أن يقع ناظري على ما يؤثر في وما يحيط بي دون أن أجد فيه دائما موقعا لزرارية تثيرني ، أو لآلم يعضني . فلأجرد ذهني من كل ما يؤله مما قد يشغلني في أسي وغير طائل على السواء - وما دمت ساظل وحيدا بقية أيام حياتي حيث لا أجد السلوى والامل والسلام في غير ذاتي فلست أريد ولا يجب على أن أهتم إلا بها .

وفي حالتي هذه سأتابع من جديد الفحص العسير الصادق الذي أسميته من قبل « اعتباراتي » . انني اكرس-أيامى الاخيرة لدراسة نفسي ، ولاعد مقدا الحساب الذي لن أتوانى عن تقديمه عنها . فلاتجه بكليتي الى لذة التحدث الى نفسي ما دامت هي اللذة الوحيدة التي ليس في مقدور الناس انتزاعها مني . فلئن استطعت من وراء أعمال الفكر في كوامن نفسي التسامى بها واصلاح ما يكون قد ترسب فيها من ألم ، فان تأملاتي عندئذ لن تكون عديمة الجدوى تماما ، وبرغم أنني لم اعد اصالح لشيء في الحياة ، فأننى لا أكون قد أضعت تماما أيامى الاخيرة . اننى طالما شغلت فراغ جولاتي اليومية بتأملات رائعة يؤسفني أن ذكرياتها شردت مني (١) ، وسأسجل كتابة بعض ما يحضرني منها ، وكلما عاودت قراءتها تملكني من وراء ذلك السرور . سوف أنسى آلامى ، كما سوف أنسى أولئك الذين اضطهدوني وكل ما أذلتى وأنا أفكر فيما كان يستحقه قلبي من مثوبة .

ان هذه الاوراق لن تكون في الواقع سوى يوميات غير متناسقة لأحلام يقظتي ، وستشتمل الكثير على لأن انسانا منفردا يفكر لابد وأن يشغل كثيرا بأمر نفسه - وصفوة القول ان كل الافكار الغريبة التي تمر بخاطري خلال جولاتي سيكون لها مكانها في هذه اليوميات وسأسجل ما فكرت فيه كما يرد على ذهني تماما دون أن يكون فيه من الروابط الوطيدة ما يكون عادة بين أفكار الأمس والداير وأفكار الغد . ولكن

(١) جاء في الخطاب الثالث الى مالزيرب Malesherbes المؤرخ في ٢٦ من يناير ١٧٦٢ : « أى الاوقات ترى يا سيدى اننى أذكرها كثيرا جدا وفي ارتياح كبير في أحلامي : انها ليست البتة متع شبابى ذلك لان هذه كانت شديدة الندرة تمتزج بها المראה بتدر كبير ولانها تات اليوم على بعيدا جدا ، انها اوقات اعتزالي ، انها جولانى المنفردة ، انها تلك الايام السريعة الحلوة التى قضيتها بأكملها مع نفسي وحيدا في رفقة مدبرة شؤنى الطبية الساذجة ومع كلبى المحبوب وقطتى العجوز ومع طيور الرريف وغزلان الغاب ومع الطبيعة جميعها وخالقها الذى لا يرى . »

مستكون من ثمار ذلك دائما معرفة جديدة لطبعي ولمزاجي بفضل الصلة التي ترتبط بين مشاعري وأفكاري والتي هي الزاد اليومي لعقلي في الحالة الغريبة التي أمر بها . وعلى ذلك فهذه الاوراق يمكن أن تعد ملحقا لاعتراقاتي ، ولكنني لا أستطيع أن أعطيها العنوان نفسه ، اذ أنني لم أعد أحس أن هناك ما يمكن ان يقال مما يستحق ذلك العنوان . لقد تطهر قلبي في بوتقة المحن واكاد في عسر أتبين فيه ، وأنا أتحمس أغواره بعناية ، بقية من ميول تستحق اللوم . . وبعد فماذا لدى هناك من اعتراف وقد انتزعت منه كل المتع الدنيوية . لم بعد هناك ما يجعلني أزجي المديح الى نفسي ، أو ألومها عليه . انني منذ الآن صفر لا وجود لي بين الناس ، وذلك هو كل ما يمكن أن أكونه وقد انعدمت صلتي الفعلية ومعاشرتي الحق لهم .

ولما لم يعد في مقدوري أن أقدم خيرا دون أن ينقلب الى شر ، أو أستطيع التصرف دون الحاق الضر بانسان أو بنفسي ، أصبح واجبي الوحيد أن أغدو سلبيا ، وأن أؤدى هذا الواجب تماما كما أحس به . ولكن برغم توقف جسدي عن العمل فان روحي ستظل نشطة تنبعث منها أحاسيس وأفكار وتبدو كذلك وكأنما انبسطت حياتها الداخلية والمعنوية بزوال كل المصالح الدنيوية أو العرضية ، وليس جسدي بعد اليوم سوى حائل وعقبة أسعى جهدى مقدما للتخلص منه .

ان وضعنا فريدا كهذا يستحق بالتأكيد أن يدرس وأن يوصف ، وانني لاكرس أوقات فراغي الاخيرة لهذه الدراسة ، ويتعين على ضمانا لنجاحها أن أنهج نهجا منظما رتيبيا ، ولكنني غير قادر على القيام بهذا العمل بل انه قد يبعدني عن هـدفى وهو أن أتبين تطورات نفسى وكيف تتابع هذه التطورات . وسأجرى على نفسى - الى حد ما - التجارب التي يجريها علماء الطبيعة على الجو لمعرفة حال الطقس اليومية . سأطبق البارومتر على روحي ، وسوف تستطيع تجاربه ، اذا ما أجيد توجيهها وتكررت طويلا ، أن تقدم نتائج مؤكدة كتلك التي يقدمها علماء الطبيعة ثمرة لبحوثهم . ولكن ليس في نيتي التوسع الى هذا الحد فيما أقوم به . وسأكتفى بتسجيل تلك التجارب دون محاولة الخروج منها بقاعدة . انني أقوم بما قام به « مونتاني » Montaigne (١) وان كنت

(١) مونتاني Montaigne هو كاتب فرنسي (١٥٢٢ - ١٥٩٢) ، اهتم بدراسة الاخلاق . وبدأ في عام ١٥٧١ في كتابة المقالات Les Essais ، صور فيها نفسه من خلال التناقضات التي كان يلحسها في طبيعته ، وروسو هنا يمدح عن نفسه ماقد يعتقد من أنه يقلد مونتاني فيما كتب .

استهدف شيئاً مضاداً لهدفه ، وذلك لانه لم يدون محاولاته Essais
الا للآخرين فى حين انى لا أدون أحلام يقظتى لغيرى . ولئن بقيت فى
شيخوختى المتقدمة وأنا على وشك الرحيل . كما آمل فى وضعى نفسه
اليوم ، فستذكرنى قراءتها باللذة التى اتذوقها وأنا أكتبها لأنها
ستجعلنى أحس بماضى وقد بعث من جديد ، وهكذا أعيش بفضلها
مرتين ، كما يقولون ، واتذوق برغم الناس سحر المجتمع وسأحياسيخا
مهدما مع نفسى فى عصر آخر كما لو كنت أعيش مع صديق يصغرنى .

لقد كنت أكتب أولى « اعترافاتي » Confessions و « حوارى »
Dialogues ، وهى الدائم البحث عن الوسائل التى تمكننى
من اخفائها عن أيدى مضطهدى الباطشة حتى أسلمها ، ان كان ذلك
ممكناً ، لأجيال أخرى ولكن أقلق نفسه لا يساورنى بالنسبة لما أكتبه
هنا لاننى أدرك أنه لا جدوى من ذلك ، وأن الرغبة فى أن تزيد معرفة
الناس بى ، وقد تلاشت من نفسى ، لم تخلف سوى عدم الاكتراث
الشديد بمصير كتاباتى الحقيقية وآثار براءتى على السواء ، التى ربما
تم القضاء عليها الى الأبد . فليرقبوا ما أفعل وليتوجسوا خيفة من
هذه الأوراق ليستحوذوا عليها أو ليقضوا عليها أو ليزيفوها ، فان
كل ذلك سواء لدى منذ الآن . اننى لا أخفيها ولا أظهرها قلن سلبونى
اياها فى حياتى فلن يستطيعوا حرمانى مما شعرت به من سرور عند
كتابتها ولا من ذكرى ما اشتملت عليه ، ولا من تأملات الوحدة التى هى ثمرة
لها والتى لن ينضب لها معين الا بصعوبة روحى الى بارئها . لو اننى عرفت
منذ أن حلت بى أولى المصائب كيف لا أقاوم قدرى وأن ألتزم الجانب
الذى ألتزمه اليوم ، لما استطاعت جهود الناس ولا خططهم الفظيعة أن
يكون لها أثر على ولما استطاعوا اطلاق راحتى بكل ما يدبرون أكثر مما
يستطيعون منذ الآن بكل ما أصابهم من توفيق . فليستمتعوا كيفما
شأوا بما لحقنى من اذلال ولكنهم لن يمنعوننى من الاستمتاع ببراءتى
ومن قضاء أيامى الاخيرة فى سلام بالرغم منهم .

الجلوة الثانية

اما وقد عولت على وصف الحالة التى اعتادتها نفسى فى اعجب موقف يمكن أن يصادفه مخلوق ، لم أجد من وسيلة أيسر وأضمن لتنفيذ هذا المشروع الا عمل سجل صادق لجلواتى المنفردة ولأحلام اليقظة التى تشغلها ، عندما أطلق لفكرى العنان وعندما تتابع خواطرى مرقاها دون مقاومة أو صعاب . ان هذه الساعات التى تنقضى فى وحدة وتأمل هى الساعات الوحيدة من اليوم التى اكون فيها انا نفسى ولنفسى دون شاغل أو حائل وحيث يمكننى بحق أن أقول اننى ماشاءت الطبيعة أن اكونه ، وسرعان ما أحسست أننى أبطأت أكثر مما يجب فى تنفيذ هذا المشروع . أما وخيالى أقل نشاطا فانه لم يعد يتوقد كما كانت الحال من قبل عند تأمل ما يشهده ، كما أننى لم أعد أنتشى كما كنت أفعل بحرارة أحلامى بل ان فى نتائجها منذ اليوم من الاستعادة أكثر مما فيها من إبداع . ان وهنا فاترا يحط من قواى جميعا ، وسر الحياة يذوى فى تدريجيا ، ولم تعد روحي تنطلق خارج غلافها البالى الا فى عسر ، ولن أستطيع أن أحيى على غير الذكريات مادام ليس هناك أمل فى الحالة التى أرنو اليها لآتى أشعر بحقى فيها – وهكذا رغبة فى تأمل ذاتى قبل أفولى – أرى لزاما على أن أرجع القهقرى بضع سنوات على الأقل الى تلك الفترة حين فقدت كل أمل فى الحياة ، ولم أجد غذاء لقلبى فى هذه الدنيا فأخذت أعود نفسى تدريجيا على أن أزوده بخلاصته باحثا فى ذاتى عن زاده كله .

وقد غذا هذا النبع الذى تنبعت اليه متأخرا من الفزارة بحيث سرعان ما كان كافيا لتعويضى عن كل شىء ، كما جعلنى اعتياد الرجوع الى ذاتى ، أفقد فى نهاية الأمر الاحساس بالامى بل أفقد ذكرها تقريبا . وهكذا تعلمت عن طريق تجربتى الخاصة ان مصدر السعادة الحق كامن فى نفوسنا وأنه ليس من شأن الناس ان يشقوا حقا من يريد أن يكون سعيدا .

وقد اعتدت منذ أربع أو خمس سنوات أن أتذوق هذه الملائذ الكامنة التي تلقاها الأرواح المحبة الرقيقة عن طريق التأمل . ان هذه المسرات والنشوة التي كنت أحس بها أحيانا وأنا أنجول هكذا وحيدا ، كانت متعا أدین بها لمضطهدى : اذ اننى لولاهم لما اكتشفت مطلقا أو ادركت الكنوز التي كنت أحملها في نفسي . وكيف يتأتى لى أن احتفظ بسجل أمين وسط هذا الثراء ؟ اننى حين أرغب في تذكر أحلام يقظتى الحلوة ، أرانى مستغرقا فيها من جديد بدلا من أن أتناولها بالوصف ، وهذا هو ما يؤدى اليه تذكرها وهى حالة سرعان ماتختفى حين يتوقف الاحساس بها .

وقد شعرت تمساما بهذا الاثر خلال جولتى التي تبعت مشروع كتابة تلمة «اعترافى» ، وبخاصة خلال الجولة التي سأتناولها بالحديث والتي قطع حبل أفكارى فيها حادث مفاجئ وجعلها تتخذ لفترة من الزمن مجرى آخر . ذلك أنه في يوم الخميس الموافق للرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٧٧٦ سرت غقب تناول العشاء في الطرق حتى شارع « شيمان فير » Chemin-Vert ومن ثم الى مرتفعات « منيلمنتان » Ménilmontant ثم سرت في الدروب والمراعى خلال الكروم مخترقا حتى « شارون » Charonne الزيفى البهيج الذى يفصل ما بين هاتين القريتين ثم عرجت لأعود مارا بالمراعى نفسها ولكن عن طريق آخر . وكنت أسرى عن نفسى بتجوالى خلالها بتلك المتعة وهذا الاهتمام اللذين طالما بعثتهما في نفسى المناظر الجميلة . ويتوقفى أحيانا لتمعن النظر في نباتات معينة منبثة في الخضرة وقد لمحت من بينها نوعين ندر أن رأيتهما حول باريس ولكننى وجدتهما بوفرة كبيرة بهذا الإقليم . . أما أولهما فهو الحوذان Picris-hieracides من فصيلة المركبات وأما الآخر فهو (أذن الارنب Bupleurum falcatum من نباتات الفصيلة الحيمية ombellifères (١) .

وقد سرنى ذلك الاكتشاف وأسعد نفسى فترة طويلة ، كما أدى الى اكتشاف نبات آخر أشد ندرة أيضا خاصة وهو في إقليم مرتفع هو المعروف باسم الحشيشة المائية Cerastum aquaticum الذى - برغم الحادث الذى وقع لى في اليوم نفسه - وجدته في كتاب كنت أحمله معى وقد وضع فى معطفى .

وفى النهاية بعد أن فحصت تفصيليا أنواعا كثيرة أخرى من

(١) من المجمع المصور للنباتات : تأليف أومناك . ك. بدقيان . القاهرة ١٩٣٦ .

النباتات كانت لاتزال مزهرة وكان مظهرها وترتيبها هو امر مألوف لدى-
يدخلان الى نفس السرور مع ذلك دائما ، واخذت أتخلى شيئا فشيئا
عن هذه الملاحظات الدقيقة لاستسلم الى انطباعه لانتقل عنها لذة وان
كانت اشد تأثيرا ، اضافها على ذلك كله .

كان جنى الكروم قد تم منذ بضعة ايام وكان أهل المدينة من المتنزهين
قد عادوا ادراجهم ، وكان الفلاحون قد هجروا حقولهم حتى يحل عمل
الشتاء ... واصبح الريف الذى كان لايزال مخضرا ضاحكا - وان
تعرى من أوراق أشجاره جزئيا - يعرض فى جميع انحاء صورة للعزلة
ومقدم الشتاء .

كان منظره على هذه الصورة مزاجا من الانطباعات الحلوة والمؤسفة
بلغت من الشبه بأيامى وحظى حدا لا يسعنى معه الا أن أراها تطابقها
تماما .

كنت ارانى فى مفيب حياة بريئة تعسة ونفسى لاتزال مليئة بمشاعر
حية وروحى تكلمها بعض الازهار ، وان أسقمها الحزن وأذبلها الملل . . .
كنت أحس وأنا وحيد مهجور ببرودة الثلوج الأولى ، وكان خيالى
الآخذ فى النضوب لا يستطيع أن يملأ فراغ وحدتى بكائنات صيغت وفق
هواى كنت أقول لنفسى وأنا أتهند « ترى ماذا اقترفت فى هذه الدنيا ؟
لقد خلقت لأحيا ولكن هأنذا أموت دون أن اكون قد عشت » .

أن هذا ليس على الأقل ذنبى ، ولئن لم أستطع أن أقدم الى بارئ
كيانى قربانا من صالح الاعمال التى لم أمكن من أدائها ، فاننى سأقدم
على الأقل ضريبة من نوايا طيبة ومن مشاعر طاهرة جعلها الناس عديمة
الجنوى ، ومن صبر على محنة احتقارهم اياى .

كنت أحس بحنين لدى هذه الخواطر وكنت أستعيد خالجات
نفسى منذ شبابى وقى سن نضوجى ، ومنذ أن أبعدت من المجتمع الانسانى
وطوال فترة الانعزال الطويلة التى فرض على أن اقضى فيها ايامى الأخيرة
... كنت أسترجع فى رضا غامر عواطف قلبى جميعا وميوله الرقيقة ،
العمياء مع ذلك ، وخواطرى التى كان جانب العزاء فيها يطفى الى ما بينا
من هم دفين والتى كانت غذاء لفكرى منذ بضع سنوات خلت وكنت
أعد نفسى لتذكرها بالقدر الذى يمكننى من تناولها بالوصف بلذة تكاد
تعادل اللذة التى كنت أحسها حين استسلمت لها . وأتقضت فترة ما بعد
الظهرة فى هذه التأملات الهادئة . وكنت عائدا بالغ السعادة من يومى

عندما انتزعنى من غمار حلم يقظتى الحادث الذى بقى على ان اروييه .

كانت السادسة وانا اهبط طريق منيلمونتان Ménilmontant فى مواجهة « جالان جاردنييه ، Galant-Jardinier تقريبا عندما شهدت جماعة من الناس - كانوا يسرون امامى - يتفرقون فجأة ، وسرعان ما انقض على كلب دانمركى ضخم قفز سريعا امام عربى فلم يكن لديه من الوقت مايكفى لان يتوقف او يحيد عندما لمحنى . . ووجدت ان الطريقة الوحيدة لتجنب وقوعى على الارض ، هى القفز الى اعلى بحيث يمر الكلب من تحتى ، وانا معلق فى الفضاء . هذه الفكرة وقد مضت فى ذهنى بأسرع من البرق بحيث لم يكن لدى من الوقت مايسمح بتدبرها او بتنفيذها ، كانت آخر ماعن لى قبل وقوع الحادث حتى لم أحس بالصدمة ولا بسقوطى على الارض ولا بما تلا ذلك حتى اللحظة التى أفقت فيها .

كان الليل قد أرخى سدوله تقريبا عندما عاد الى رشدى ، ووجدت نفسى مستندا الى اذرع ثلاثة او أربعة من الشبان قصوا على ماحدث لى ، فذكروا أن الكلب الدانمركى اصطدم بساقى أثناء عدوه حين لم يستطع الحد من اندفاعه فصدمنى بجماع جسمه وسرعته حتى أوقعنى أرضا ورأسى الى الامام . وكان فكى العلوى الذى حمل ثقل جسمى كله قد اصطدم بأرض الطريق البالغة الخشونة ، فقد كانت السقطة من العنف بحيث جعلت رأسى فى مستوى ادنى من قدمى . وكانت العربى التى ينتمى اليها الكلب قادمة فى اثره وكادت تمر فوق جسدى لو لم يكبح الحوذى فوراً جماع خيله .

كان هذا ما علمته من رواية اولئك الذين انهضونى وكنت لا ازال استند اليهم حين أفقت ، وكانت الحالة التى وجدت نفسى عليها حينئذ شديدة الغرابة بحيث لا يسعنى الا أن أتناولها هنا بالوصف :

كان الليل يتقدم ، ورايت السماء وشهدت عددا من النجوم وقليلاً من الحضرة ، وكان هذا الاحساس الأول لحظة هنيئة ولم يكن يخالجنى غيره اذ ذاك . كنت أخرج فى هذه اللحظة الى الحياة وكان يخيل الى أننى أشغل بكيانى الضئيل كل ماكان يقع عليه ناظرى . أما وقد عدت الى نفسى تماما فلم أكن أذكر شيئا بالمره ، ولم تكن لدى أية فكرة واضحة عن ذاتى ، ولا أدنى خاطر عما لحقنى . لم أكن أدرى من أكون ولا أين أنا ولم أكن أحس بألم أو خوف أو قلق . كنت أرى دمي يسيل كما او كنت أشهد جدولا ينساب دون أن يخطر لى بحال أن هذا الدم دى .

كنت أحس هدوءاً أخذاً يستولى على كياني كلما تذكرته لأجد له مثيلاً في عالم اللذات المعهودة .. وقد سألتوني أين أقيم ؟ ، ولكن .. كان من المستحيل على أن أجيب . وسألتهم أين أنا ؟ . فقبل لي أنني في « لاهوت بورن » La Haute-Borne وكان ذلك كما لو قيل لي أنني في جبل أطلس Mont Atlas - وكان من الضروري أن أسأل على التوالي عن اسم الاقليم والمدينة والحي ، التي أنا فيها وحتى ذلك لم يكن كافياً كي أعترف على نفسي ، وكان لا بد من أن أقطع المسافة كلها من هناك حتى أصل الى الطريق لأتذكر سكني واسمي . ونصحني رجل لم تكن تربطني به معرفة . وإن أحسن الى بمزافقتي بعض الوقت حين أدرك أنني أسكن بعيداً - نصحني بركوب عربة من « تمبل » Temple توصلني الى منزل . وكنت أسير سيرا حسناً في يسروخفة ملحوظين دون أن أحس بالمل أو جرح برغم ماكنت ألفظ من دم كثير ولكن انتابتنى رعشة باردة جعلت أسناني المهشمة تصطك ببعضها في صورة غير مريحة بالمرّة . وحين وصلت الى « تمبل » خيل الى أنني ما دمت استطعت المسير دون ألم فإنه من الأفضل أن أتابع طريقي سيرا على الاقدام من أن أتعرض للهلاك برداً في عربة . وهكذا قطعت نصف الفرسخ فيما بين « تمبل » وشارع « بلاتريير » (١) Plâtrières وأنا أسير في غير عناء ، متحاشياً العقبات والعربات مختاراً ومتبعاً طريقي نفسه على نحو ماكنت أفعل فيما لو كنت مكتمل الصحة . وهانذا أصل وأفتح الزلاج الذي وضع في بوابة الشارع ثم أصد السليم في الظلام وأدلف في نهاية الامر الى حيث أقيم دون أن أتعرض لحادث آخر سوى سقطتي وماترتب عليها ، مما لم يكن يخطر على بالي اذ ذاك .

ولقد أدركت من صرخات زوجتي حين شهدتني أن ماحل بي أبلغ مما كنت أتصور ، ولقد قضيت الليل دون أن أدرك أو أحس مدى ماحل بي من سوء ولكن هالك ما أحسست به وما تبينته في اليوم التالي : كانت شفتي العليا مشقوقة من الداخل حتى أنفي ، أما من الخارج فقد صانها الفشاء الجلدي فحال دون أن ينفصل شقاها ، وكانت اربعة من الاسنان قد انفرست في فكي العلوي ، وأما الجانب من الوجه الذي يغطيها فكان شديد التورم تملؤه الكدمات كما أن ابهام اليد اليمنى أصيب بالتواء أدى الى انتفاخه ، وكان بابهام اليد اليسرى جرح كبير ، أما الذراع اليسرى

(١) شارع بلاتريير Plâtrière هو الذي سكن روسو في منزل به بالدور الرابع عندما عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ولم ينتقل منه الا في ٢ من مايو عام ١٧٧٨ ويسمى هذا الشارع اليوم شارع جان جاك روسو .

فقد أصيب بالتواء كذلك وأما الركبة اليسرى فكانت شديدة التورم وبها رضى شديد ومؤلم يمنعها كلية من القدرة على الانثناء . وبرغم هذه الإصابات جميعا فإنه لم تكن هناك كسور ولا في سن واحدة وهو أمر يكاد يشبه المعجزة بعد نقطة كذلك التى تعرضت لها .

تلك هى قصة الحادث الذى وقع لى بمنتهى الصدق (١) وقد انتشرت تلك القصة بعد أيام قليلة فى باريس بعد أن تناولها التفسير والتحوير حتى أضحي من المستحيل التعرف على شيء منها . وكان من الواجب أن أفترض مقدما ذلك التحوير ولكن صحبت ذلك الحوادث ظروف كثيرة غريبة ولفو مبهم وتكتم ، وكان الناس يتحدثون الى فى فضول مضحك جعلنى أوجس شرا من كل تلك العميات .

لقد كنت دائما أكره الظلمة لأنها بطبيعتها تبعث فى نفسى رعبا حتى أن ما أحاطنى به الناس طوال تلك السنوات الكثيرة ما كان ليقلل منه . ومن بين غرائب هذه الفترة لن أشير الا الى واحدة تكفى مع ذلك للحكم على غيرها .

فقد أرسل السيد (٠٠٠) (٢) الذى لم تكن لى به صلة ما فى يوم من الايام سكرتيره ليستطلع اخبارى وليعرض على فى الحاج خدمات لم ار لها فى تلك الآونة فائدة فى التخفيف عني . ولم يفت سكرتيره هذا أن بحثنى فى اصرار على أن أتمسك بعروضه حتى أنه قال لى انه ان لم تكن لى ثقة فيه فان فى استطاعتى أن أكتب مباشرة الى السيد (٠٠٠) .

وقد أدركت من وراء هذا الاحاح فى النصح وروح الثقة التى صحبتها سرا ماكنت أحاول عبثا الكشف عنه ، ولم يكن الامر يستوجب مزيدا لينفرنى وبخاصة فى حالة الاضطراب التى كان يعانىها عقلى من جراء الحادث والحمى التى صحبتها . وقد استسلمت لألف من الافتراضات

(١) وردت عن هذا الحادث روايات عدة تختلف فى بعض التفاصيل ، لعل أهمها ما أورده برناردين دوسان بيير Bernardin de Saint-Pierre وكورانسيه Corancez وهما يؤيدان ما يرويه روسو . الاول فى كتابه عن حياة روسو وأعماله J.J. Rousseau la vie et les ouvrages de

والثانى فى « جورنال دوبارى Journal de Paris (السنة السادسة . الجزء الاول من رقم ٢٥٩ - ٢٦١) ويرى البعض أن روسو ربما كان متأثرا فيما يرويه بما كبه مونتاني Montaigne من أحاسيه بعد سقطته من فوق الحصان . « Essais, Liv. II, Chap. VI » .

(٢) السيد لنوار Monsieur Lenoir هو رئيس الشرطة طبقا لما جاء بالنسخة الخطية للبعج جولات الاولى وهى النسخة المحفوظة فى نيوشاتل .

المقلقة الكئيبة وكانت لى على كل مايدور حولى تعليقات تتسم بهذيان الحمى اكثر مما تتسم بهذوء أعصاب رجل لم يعد يكثرث بشيء .

ثم طرا امر آخر قضى على البقية الباقية من هدوئى ذلك ان السيدة «.....» (١) كانت تطاردنى منذ بضع سنوات دون أن أحس سبب ذلك فمن هدايا صغيرة كانت تفتعل مناسبتها ، الى زيارات متكررة ثم يكن هناك من داع لها ، ولم تكن تبعث السرور كذلك وكانت كافية لان تدفعنى الى الوثوق من وجود هدف مستور وراء ذلك كله ، وان لم تبينه تماما . وكانت قد تحدثت الى عن قصة تريد كتابتها لتقدمها الى الملكة وذكرت لها رأيى فى المؤلفات من النساء ، وأفهمتنى أن هدفها من هذا المشروع استعادة ثروتها مما يجعلها فى حاجة الى رعاية ، ولكن لم يكن لدى من رد على ذلك . ثم ذكرت لى بعد ذلك أنها لم تستطع الاتصال بالملكة ولذا استقر رأيها على تقديم كتابها للجمهور . ولم يكن هناك مجال لاسداء نصيح لم تطلبه بل لو أن هذا حدث لما استمعت الى . وكانت قد قالت لى انها ستعرض على المخطوط أولا فرجوتها ألا تفعل وقد استجابت الى ذلك .

وقد تلقيت منها ذلك الكتاب ذات يوم خلال فترة نقاهتى مطبوعا بل ومجلدا وشهدت فى المقدمة مديحا ضخما لشخصى صدر به الكتاب بشكل ممجوج وفيه كثير من الافتعال مما كان له أسوأ الأثر فى نفسى . ولم يكن اللق الفج الذى يتلمسه المرء فى ثناياه مما يتفق واللباقة ولم يكن قلبى ليخضع به .

وجاءت السيدة «.....» بعد عدة أيام لزيارتى ومعها ابنتها وذكرت لى أن كتابها أثار أكبر ضجة بسبب ملاحظة وردت به . وقد لاحظت بالكتاب هذه الملاحظة حين كنت أتصفح على عجل هذه القصة ، فأعدت قراءتها بعد انصراف السيدة ، وتمعنت فى تركيبها وأحسبنتى كشفت عن هدف زيارتها لى وملقها اياى وما أسبغته من مديح مغالى فيه لشخصى فى مقدمة الكتاب . وإيقنت أن هذا كله لم يكن له من هدف آخر سوى تهئية أذهان الجمهور لتنسب تلك الملاحظة لى وبالتالي ماتثيره من لوم على كاتبها فى الظرف الذى تم نشرها فيه .

لم يكن لدى من وسيلة لاختاد هذه الضجة والأثر الذى يمكن أن

(١) - مدام دورمو Mme d'Ormoى هى أدبية ، مؤلفة كتاب :
Malheur de la Jeune Emilie (Paris 1777).

ينجم عنها ، وكان كل ما أستطيع القيام به هو ألا أعمل على اذكائها بتحمل
استمرار زيارات السيدة «...» وابنتها ، هذه الزيارات الفارغة
المكتشوفة . ومن أجل ذلك كتبت الى الأم هذه الرسالة :

« لما كان روسو لا يستقبل في بيته أى مؤلف ، فهو يشكر السيدة
«...» على أفضالها ويرجو ألا تشرفه بعد اليوم بزيارتها » .

وقد كتبت لى الرذ خطابا صادقا ظاهره وان كان ملتويا ككل
الخطابات التى تكتب الى فى مثل هذه المناسبة . ولقد أغمدت الخنجر
بوحشية فى قلبها الحساس ، وكان على أن أصدق من وراء لهجة خطابها
أنها لن تتحمل البتة هذه القطيعة بل أن دونها الموت لما تكنه من مشاعر
حاددة صادقة ، وهكذا تعد الاستقامة والصرامة فى كل شيء جرائم بشعة
فى هذا العالم ، وهكذا كنت أبدو لمعاصرى شريرا شرسا حين لا يكون لى
من جرم فى نظرهم سوى أننى لست مضللا أو مخادعا مثلهم .

كنت قد خرجت مرات كثيرة بل كنت أتجول غالبا فى التويلرى
Tuileries عندما استنتجت من دهشة الكثيرين الذين كانوا يقابلوننى
أنه لا يزال هناك نبا آخر يتصل بى كنت أجهله . وعلمت فى نهاية الامر
أن شائعة سرت بين الناس مؤداها أننى مت على اثر سقطتى . وقد
انتشرت تلك الشائعة فى سرعة وإصرار ، حتى أنه بعد أكثر من خمسة
عشر يوما من علمى بها كان الناس يتحدثون عنها فى البلاط وكأنما هى
أمر أكيد . ولم يفت جريدة الكورييه دافنيون Courrier d'Avignon (١)

(١) - فى عدد الثلاثاء ٢ من ديسمبر نشرت جريدة كورييه دافنيون Courrier d'Avignon

« منذ بضعة أيام صدم أحد تلك الكلاب الدانمركية التى تتقدم العربات السريعة
السيد روسو الذى غالبا ما يتجول وحيدا فى الريف ... ويقال انه مريض جدا
بسبب هذه السقطة ، ولا نستطيع أن نأسف كثيرا على ما ناله بسبب دوس
الكلاب له ... » وفى عدد الجمعة ٢٠ من ديسمبر : « مات جان جاك روسو
متاثرا من سقطته . لقد عاش فقيرا ومات بائسا . ان غرابة قدره صحبته
حتى القبر ، وانه ليؤسفنا اننا لانستطيع أن نتحدث عن مواهب هذا الكاتب
البليغ ، ولا بد أن قراءنا يدركون أن سوء استعماله اياها يفرض علينا الصمت
المطبق فى هذا المقام . فليطمئن الناس تماما من أنهم لن يجرموا من الاطعام بتفصيلات
حياته وانهم سيجدون بها حتى اسم الكلب الذى قتله » .

وقد كتب فولتير Voltaire الى فلوريان Florian فى ٢٦ من
ديسمبر ١٧٧٦ يقول : « لقد أحسن جان جاك صنعا بموته ، ويزعم أنه ليس
صحيفا أن كلبا قتله ، وأنه شفى من الجراح التى أصابه بها صديقه الكلب .
ولكن يقال انه فى يوم ١٢ من ديسمبر من له أن يقوم بالتسلى فى باريس مع صديق =

كما عني البعض بالكتابة الى مشيرين الى ما جاء بها - عندما زفت هذا النبأ السعيد - أن تتعجل بهذه المناسبة ما يعد لما أستحقه من السباب والاهانات للذكرى وفاتى في صورة رثاء ، وقد اقترن ذلك الخبر بظرف آخر أكثر غرابة كذلك لم أعلم به الا مصادفة وان لم أعرف شيئا عن تقصيلاته : ذلك أنه افتتح اكتاب فى الوقت نفسه لطبع المخطوطات التى قد يعثرون عليها لدى ، وفهمت من وراء ذلك أنهم قد أعدوا مجموعة من الكتابات اصطنعوها خصيصا لتنسب الى بعد موتى مباشرة ، ذلك لان الاعتقاد بأنهم قد يقومون مخلصين بطبع آية واحدة من بين ما قد يعثرون عليه حقيقة ، سخافة لا يمكن أن يقبلها تفكير رجل عاقل جنبته اياها خبرة خمسة عشر عاما .

وقد أهاجت هذه الملاحظات خيالى من جديد بعد أن كنت اظن أنه خمد وذلك حين توالى وحين تبعته أخريات ليست بأقل منها عجبا ، كما أحييت في نفسى تلك الافتراءات المضللة - التى دأبوا على تدعيمها بغير هودة من حولي - كل ما تبعته فى نفسى عادة من اشمئزاز .

ولقد نال منى الجهد وأنا أحاول ايجاد ألف تفسير لهذا كله ومن جراء محاولة تفهم الاسرار التى جعلوها مستغلقة على ، وكانت النتيجة الوحيدة الثابتة لتلك المعميات تأكيداً لكل ما انتهيت اليه من قبل وهو أن ما قدر لى وما قدر لسمعتى قد اتفق على تحديدهما الجيل الحاضر جميعه بحيث لم يكن أى جهد من جانبى ليستطيع تخليصى مادام ليس في مكنتى اطلاقاً أن انتقل الى الاجيال المقبلة آية وديعة دون أن تمر بين ايدي هذا الجيل التى يههما القضاء عليها .

ولكننى في هذه المرة ذهبت الى أبعد من ذلك : ان تجمع هذا القدر من الاحداث الطارئة وارتفاع شأن الد أعدائى جميعا بفضل يد القدر كما يقال وكل أولى الأمر في الدولة ، وكل من يوجهون الراى العام ، وجميع ذوى المكانة والصفوة من ذوى الاعتبار الذين كأنما اختيروا عمدا من بين أولئك الذين يحملون لى ضغنا دفيناً ، متسابقين ليسهموا في المؤامرة المشتركة ... هذا الاجماع العام من الفرابة بحيث لا يمكن أن يكون مخض صدفة . ولو أن أمراً أبى أن يسهم في المؤامرة ، أو لم يتفق احد احداثها مع وجهة نظره ، أو أن ظرفاً غير متوقع اعترض سبيله ، لكان

= قديم من جنيف يدعى رومبى Romilly وانه اكل كشيطان فاصيب بعسر
هضم ثم مات ككلب .. ٤٠٠ .

ذلك كافيا لفشلها ، ولكن دغمت من صنيعهم كل الارادات والمقدرات والمال والثورات . وان تسابقا مثيرا كهذا يكاد يشبه المعجزة ، لا بدع مجالا للشك لدى في ان نجاحه المحقق كان مكتوبا في لوح القدر ، وان كثيرا من الملاحظات الخاصة سواء في الماضي او في الحاضر ايدت رايي هذا ، لدرجة لاستطيع معها ان امنع نفسي بغد من ان ارى ما كنت احسبه حتى اليوم ثمرة الشر الانساني ، كأنما هو واحد من تلك الاسرار الالهية المستعصية على العقل البشرى .

ان هذه الفكرة بدلا من ان تقسو على وتمزق قلبى اراها تعزيني ، وتدخل السكينة الى نفسى وتسباعدنى على الاستسلام ، وأنا فى هذا لا أختلف عن « القديس أوغسطين » (١) الذى عزى نفسه عن تعذيب الناس له باعتبار ان هكذا كانت مشيئة الله . وأما استسلامى فمصدره لا يخلو من الغرض فى الواقع ولو انه ليس أقل نقاء وأكثر جدارة فى رايى بالكائن الكامل الذى أعبدته .

ان الله عادل ، وهو يريد ان أتألم وهو يعلم اننى برىء . . . ذلك هو سبب ايمانى الذى يؤكد قلبى وعقلى انه لن يضلبنى . فلندع الناس والقدر اذن لما يعملون ولنتعلم كيف نحتمل الألم بغير تدمر : فلا بد وأن تنتظم الامور جميعا فى النهاية ، وسيحل دورى ان عاجلا أو آجلا .

(١) - القديس أوغسطين Saint-Augustin هو ابن القديسة مونيك Sainte

Monique (٣٥٤ - ٤٣٠ م) وقد اجتذبه الحياة الدينية بعد شباب ماجن وأصبح فيما بعد أشهر آباء الكنيسة اللاتينية ، ومن أهم مؤلفاته مدينة الله والاعترافات . وهذه روى فيها أخطاء شبابه ثم هدايته (حوالى ٣٩٨ م) .

الجولة الثالثة

« اننى أشيخ وما أزال أتعلم »

كان «سولون» (١) يردد هذا البيت من الشعر كثيرا فى شيخوخته ، ولهذا البيت معنى أستطيع انا الآخر أن أردده فى شيخوختي كذلك .
ويا له من علم يدعو الى الرثاء ، ذلك العلم الذى أكسبته اياه التجربة منذ عشرين عاما (٢) ، ان الجهل أفضل منه . ان المحنة هى من غير شك معلم كبير ، ولكن هذا العلم يتقاضى غالبا ثمن دروسه ، وأغلب الامر أن مايجنيه المرء من فائدة من ورائها لا يعادل الثمن الذى تكلفته . هذا الى أن فرصة الافادة منها تنقضى قبل أن يستطيع المرء الحصول عليها من وراء دروس جاءت متأخرة . ان الشباب هو الفترة التى يتعلم المرء فيها الحكمة ، أما الشيخوخة فمرحلة ممارستها . واني لأقر أن التجربة تعلم دائما ولكنها لا تفيد الا بقدر ما أمام المرء من فسحة فى الوقت .
ان ساعة الموت هى اللحظة التى يتعلم فيها كيف كان يجب أن يعيش ؟

وبعد ، فيم تفيدنى معلومات جاءت متأخرة وبهذه الصورة المؤلمة عن مصرى وعن عواطف الآخرين ومصرى من صنعهم ؟ انى لم أتعلم أن أزداد معرفة بالناس الا لأزداد احساسا بمدى ماغرقونى فيه من تعاسة دون أن تستطيع تلك المعرفة حين أماطت اللثام عن كل مائصبوه لى من شراك ، أن تجنبنى واحدا منها .

ليتنى ظلمت أنعم بهذه الثقة العمياء - الحلوة مع ذلك - التى جعلت منى طوال تلك الأعوال العديدة فريسة وألوبة لصحابى الصاخين ،

(١) سولون Solon هو فيلسوف ومشرع اغريقى (٦٤٠ - ٥٥٨ ق.م) .

(٢) يشير روسو هنا الى عام ١٧٥٧ حيث تمت القطيعة بينه من ناحية وبين مدام دابناتى Mme d'Epinaى وجريم Grimm وديدرو Diderot من ناحية أخرى ، وكان ذلك بداية متاعبه الحقّة واعتقاده فى مؤامرة يحكيها له امدأوه .

دون أن ينالنى أدنى شك فيما أحاطونى به من تدبيرات . حقا لقد كنت موضع استغفالهم كما كنت ضحية لهم ، ولكننى كنت أحسبني محبوبا منهم ، وكان قلبى يستمتع بما أوحوا الى من محبة حسبتهم يبادلونى مثلها . ولكن انهارت هذه الاوهام اللذيذة . ان الحقيقة الاليمة التى كشف لى عنها الزمن والعقل وهما يجعلانى أجس بشقائى ، جعلتنى أدرك أن لاوسيلة للبراء منه ، وأنه لم يعد لى الا أن أستسلم له ، ومن ثم كانت كل تجارب عمرى بالنسبة لى وفى حالتى هذه ، بغير نفع حاضر ، أو كسب فى المستقبل . اننا نشرع فى الكفاح عند مولدنا ونفرغ منه عند الموت ، فما جدوى تعلم المرء كيف يحسن قيادة مركبته حين يكون قد بلغ نهاية المطاف ؟ انه لم يعد اذ ذاك مجال للتفكير اللهم الا فى كيفية الخروج منه . ان ما على الشيخ أن يدرسه .. اذا كان لايزال هناك مجال للدراسة لايعدو ان يكون المران على الموت ، وتلك الدراسة على وجه التحديد هى اقل مايتهم به من كان فى مثل سنى ، فهو يفكر اذ ذاك فى كل شىء الا ذلك الامر . والشيخوخة جميعا يستمسون بالحياة اكثر من استمساك الاطفال بها ، ويرحلون عنها فى أسى يفوق حزن الشباب على فراقها ، ذلك لانهم - وقد كان كل ماقاموا به من اعمال انما قاموا به من اجل هذه الحياة الدنيا - يشعرون فى نهايتها أن كل جهودهم ضاعت هباء فهم يخلفون عند رحيلهم كل ماجهودوا من أجله وكل متاعهم وكل الثمار التى سهرروا يعملون من أجلها . ولم يفكروا خلال حياتهم أن يكتسبوا شيئا يستطيعون حمله معهم عند موتهم .

لقد رددت ذلك لنفسى فى الوقت المناسب له ، ولئن لم يكن فى الامكان ان أفيد من خواطرى خيرا من ذلك ، فليس هذا لانها لم تكن لى فى أوانها أو لأننى لم أستطع استيعابها تماما . ولما كنت قد زج بى منذ طفولتى وفى خضم الحياة ، فقد أدركت مبكرا ، وبالتجربة ، اننى لم أخلق لأعيش فيها ، واننى لن أنجح البتة فى الوصول الى ما يحس قلبى بحاجة اليه . واذن فلما توقفت عن البحث بين الناس عن السعادة التى كنت أدرك عدم قدرتى على أن أجدها بينهم ، فان خيالى المتوقد مالبث أن وثب متخطيا نطاق حياتى وهى بعد فى مستهلها ، وكأنما يجتاز ارضا غريبة عنى . ليستقر فوق بقعة هادئة أستطيع ان أثبت عليها .

كان هذا الشعور الذى اغتذى بما تعلمته منذ طفولتى والذى تدعيم طوال حياتى .. بتلك السلسلة - من الشقاوة وسوء الحظ - التى

ملأت أرجاءها . . . مما دفعنى فى كل وقت ، الى محاولة معرفة طبيعة كيانى وما سوف ينتهى اليه وذلك فى اهتمام وفى عناية أبلغ مما أجدهما عليه لدى أى انسان آخر . لقد شهدت من بين الناس من استطاعوا أن يتعمقوا فى فلسفتهم أكثر منى ، ولكن فلسفتهم تلك ، ان صح القول ، كانت غريبة بالنسبة لهم ، فرغبة منهم فى أن يصبحوا أغزر علما من غيرهم ، أخذوا يدرسون الكون حتى يتوصلوا الى معرفة كيف نظم ، كما لو كانوا يدرسون بدافع الفضول المحض آلة من الآلات وقع نظرهم عليها . لقد كانوا يدرسون الطبيعة البشرية ليستطيعوا التحدث عنها حديث العلماء . . لا ليتعرفوا على أنفسهم ، وكانوا يعملون لتثقيف الآخرين . . لا لالقاء ضوء المعرفة على دخيلة أنفسهم . بل ان الكثيرين منهم لم تكن لهم من رغبة سوى تأليف كتاب - ولا يهم فى ذلك أى كتاب - على شريطة أن يتقبله الناس ، وحين يتم تأليفنا ونشرا فلا تههم بعد ذلك محتوياته فى كثير أو قليل ، اللهم الا دفع الناس الى اعتناقها ، والدفاع عنها أن هوجمت . وذلك دون أن يفيدوا منها أو يجشموا أنفسهم عناء معرفة صواب أو خطأ هذه المحتويات مادام الناس لم يفندوها . وأما أنا ، فانتى حين كانت تحدونى الرغبة فى التعلم ، فقد كنت أستهدف معرفة ذاتى ، لا تعليم الناس . . وكنت أومن دائما أن على الانسان أن يبدأ بمعرفة الكثير لذاته قبل أن يعلم الآخرين . ومن بين كل الدراسات التى حاولت القيام بها خلال حياتى بين الناس ، لم تكن هناك واحدة لا أستطيع القيام بها كذلك وحيدا فى جزيرة تخلو منهم أحتجز فيها بقية أيام حياتى . ان مايجب على الانسان عمله يتوقف كثيرا على ما يجب عليه الايمان به ، وان معتقداتنا هى التى تنظم فعالنا الا فيما يتعلق بالضرورات الاولى التى تفرضها الطبيعة . ولقد حاولت كثيرا لفترة طويلة - وبهذا المبدأ الذى اعتنقته دائما - أن أوجه طريقة حياتى وأن اتعرف بنهايتها الحققة ، فما لبثت ان تعزيت عن ضعف مقدرتى على شق طريقى بمهارة فى هذا العالم وذلك حين شعرت انه لم يكن من الضرورى السعى وراء معرفتى تلك النهاية .

أما وقد ولدت فى أسرة تسودها التقاليد المتينة والتقوى وربيت فيما بعد بحنان لدى كاهن بالغ الحكمة والتدين ، فقد تلقيت منذ نعومة أظفارى مبادئ ومبادئ - قد يسميها الآخرون معتقدات - لم يحدث مطلقا أن تخليت عنها تماما . وعندما كنت لا أزال طفلا ، على سبيلتى ،

يغرينى التدليل ، ويتملكنى الزهو ، وتخدعنى الأمانى ، وتقهرنى الحاجة ، اعتنقت الكاثوليكية ولكنى ظلمت دائما مسيحيا ، وما لبث قلبى بحكم العادة أن تعلق باخلاص بدينى الجديد . وقد وطدت لدى هذا التعلق تعاليم مدام «دوفواران» (١) Mme de Warens وما سرده على من أمثال . كما أن وحدثى فى الريف حيث أمضيت زهرة شبابى ، بالاضافة الى دراسة الكتب الجديدة التى تفرغت لها بكليتى ، دعمت - وأنا بجوارها - من استعداداتى الطبيعية لمشاعر الود وجعلت منى متدينا على طريقة فينلون Fénélon (٢) . تقريبا . ان التفكير أثناء العزلة ودراسة الطبيعة وتأمل الكون ، تضطر جميعا المرء المنفرد بنفسه الى الانطلاق دوما نحو خالق الاشياء ، والى البحث فى لهفة مستحبة وراء غاية كل ما يراه وعلّة كل ما يحس به . وحين ألقى بى قدرى فى دوامة الحياة ، لم أعد أجد فيها ما يستطيع أن يستهوى قلبى ، ولوللحظة واحدة ، فقد تبعتنى الحسرة - أينما توجهت - على أوقات فراغى الحلوة ، ولونت بعلم الاكتراث والاشمئزاز كل ما كان من الممكن أن أجده فى متناول يدي، حريا أن يقودنى وراء الثراء ومراتب المجد ، ولما لم أكن مستقرا تحدونى رغباتى القلقة، فقد كنت آمل فى القليل ، فحصلت على الاقل ، وشعرت حتى فى اشراقه الرخاء أننى لو قدر لى أن أحصل على ما كنت أظننى أبحت عنه لما عثرت فيه قط على تلك السعادة التى كان قلبى متعطشا اليها دون أن يستطيع تبين كنهها . وهكذا كان كل شيء يسهم فى تقطيع اوصال المودة بينى وبين هذا العالم حتى قبل أن تحل بى المصائب التى كان من شأنها أن جعلتنى غريبا عنه تماما . وهكذا شارفت الاربعين من عمري ، أنأرجع بين العوز والثراء . . . بين الحكمة والضياع ، تجللتنى رذائل اعتدتها دون أن يكون بقلبي اى ميل الى الاثم ، أعيش مقامرا دون مبادئ محدودة تماما فى فكرى ، لاهيا عن واجباتى دون أن أحقرها ، ولكن دون ان اتفهمها جيدا فى أغلب الامر .

(١) - مدام دوفواران Mme de Warens هى السيدة التى حولت روسو من البروتستانتية الى الكاثوليكية وأقام عندها سنوات كان يناديه خلالها «أمى» ويعتبرها روسو (الجولة العاشرة) أسعد سنوات عمره .

(٢) فينلون Fenelon كاتب فرنسي ومن كبار رجال الدين (١٦٥١ - ١٧١٥) ، اعتنق مذهبا يدعى Le quiétisme يقصد به «الحب الخالص لله» ولايلب من يعتقد هذا المذهب القيام بأية شعائر دينية ، فما عليه الا ان يعيش محبا لله في هدوء مطلق .

ولقد كنت منذ أيام شبابه قد حددت هذه المرحلة — مرحلة الأربعين — كحد لجهودي في سبيل النجاح ، وكحد لمشروعاتي في كل نوع مصرا — بمجرد بلوغي هذه السن ومهما يكن من مركزي حينئذ — ألا أناضل من أجل الخروج منه ، وأن أقضى ما تبقى من أيامي ، أعيش ليومي دون أن أشغل بالمستقبل . ولما حلت تلك الساعة ، نفذت هذا المشروع دون عناء ، وبالرغم من أن حظي إذ ذاك بدا وكأنما ينحو الى مزيد من الاستقرار ، الا أنني عدلت عنه ، لا بغير أسف فحسب بل وبسرور حق . وفيما أنا أحاول الفكاك من كل هذه المضلات ، ومن كل تلك الأمانى الكاذبة ، استسلمت كلية للاهمال ودعة الفكر التي كان لي بها ميل مستبد وانعطاف مقيم ، هجرت المجتمع بمباهجه ، وزهدت كل زينة ، فلم يعد لدى سيف ولا ساعة ، لا جوارب بيضاء ولا حلى ذهبية ولا زينة شعر ، بل شعر مستعار بسيط جدا ، ورداء سميك من الصوف ، بل — وخبرا من هذا كله — نزعنت من قلبي كل اشتها لجمع المال وكل مطمع في كل ما تخليت عنه مما يجعل له قيمة ثم هجرت الوظيفة التي كنت أشغلها (١) إذ ذاك ، والتي لم أكن خليقا بها البتة وانصرفت الى نسخ الموسيقى نظير أجر للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديد الميل اليه دائما .

ولم أقصر اصلاح امرى على المظاهر الخارجية . ذلك لانني شعرت بأن هذا الاصلاح نفسه كان يتطلب اصلاحا آخر في الافكار أشد عسرا من غير شك ، وان كان أشد ضرورة ، وهو اصلاح الآراء ، ولما كنت قد عولت على ألا أقوم بعمل ذلك على دفعتين ، فقد بدأت باخضاع ذاتي الداخلية لفحص دقيق يستطيع أن ينظمها بقية أيام حياتي على الصورة التي كنت أريدها عليها عند موتى .

كان قد حدث انقلاب كبير في ذاتي . كان يتكشف عالم معنوي آخر لناظري ، فالاحكام الخرقاء التي كان يصدرها الناس ، بدأت أحس باستحالتها ، دون أن أتكهن بعد . . . كم ساكون فريسة لها ؟ والحاجة المتزايدة الى متعة اخرى غير المجد الادبي الذي ما كاد يلفحنى بخاره حتى اشمأزت منه نفسي ، وأخيرا . . . الرغبة في أن أرسم للبقية من مطاقي طريقا أقل قلقا من ذلك الذي قضيت فيه زهرة أيامي . . . دفعني بكل هذا الى هذه المراجعة الكبرى التي كنت أحس منذ امد طويل

(١) كان روسو إذ ذاك مرافقا عند مسيو دوفرانكي M. de Francueil محصل

الحاجة اليها وهكذا شرعت فيها ، ولم أهمل شيئا مما يتوقف على كي
يتم تنفيذ ذلك المشروع على ما يرام .

اننى أستطيع أن أحدد تاريخ عزوفى التام عن المجتمع ابتداء من هذه
الفترة ، وكذلك هذا الميل الشديد للوحدة . . اننى لازمنى منذ تلك
الوقت ، ولم يكن من المستطاع أن ينفذ العمل الذى شرعت فيه الا فى
عزلة مطلقة ، ذلك لانه كان يتطلب تأملات طويلة هادئة لا يسمح بها
صخب المجتمع ، وقد اضطررتنى هذا ، الى حين ، أن أنهج طريقة أخرى
فى الحياة أرثحت اليها فيها بعد ، حتى اننى ، وقد تابعتها منذ ذلك
الحين ، ولم أنقطع الا مضطرا ولفترات قليلة ، عاودت انتهاجها من جديد
بجماع قلبى واقتصرت عليها فى غير جهد بمجرد أن تسنى لى ذلك .
ولما اضطررتى الناس قيما بعد الى أن احيا وحيدا وجدت أنهم باحتباسى
مستهدين شقوتى ، عملوا فى سبيل تحقيق سعادتى أكثر مما استطعت
أنا أن أفعل لنفسى .

اتجهت الى العمل الذى كنت قد شرعت فيه بحمية تتفق وأهمية
ما أنا بصدهه والحاجة التى أحس بها نحوه . كنت أعيش اذ ذاك مع
فلاسفة محدثين ليس بينهم وبين القدامى وجه شبه ، وبدلا من أن
يزيلوا شكوكى ، ويوقفوا ترددى ، زعزعوا كل ثقة كنت أظننى عليها فى
النواحي التى كان يهمنى ، أكثر ما يهمنى ، الايام بها ، ذلك لانهم كمبشرين
متعنتين للالحاد ، وكمتعصبين معتدين بأنفسهم ، لن يستسيغوا بأية حال
وبغير غضب أن يجرؤ واحد على تفكير يفاير تفكيرهم مهما يكن وجه
الخلاف .

وكثيرا ما كنت أدافع عن نفسى بشيء من الضعف كراهية للجدل
وقلة دراية بمتابعته ، ولكننى لم أعتنق البتة مذهبهم الهدام . كما أن
هذه المقاومة ليقوم بلغوا هذا الحد من التعصب - ولهم قبل كل شيء وجهة
نظرهم - لم تكن من الاسباب القليلة التى أثارت عداوتهم .

انهم لم يقتنعونى ولكنهم أثاروا القلق فى نفسى ، ولقد زعزعتنى
حججهم دون أن تقتنعنى أبدا ، ذلك لاننى لم أجِد فيها أى جواب شاف ،
ولكننى أحسست ضرورة وجود ذلك الجواب ، وكنت اتهم نفسى بالقصور
أكثر من اتهامى اياها بالخطأ ، وكان قلبى يتولى الرد عليهم خيرا مما
يفعل عقلى . وقلت لنفسى أخيرا :

« أفاترك نفسى أبدا العوبة لسفسطة المتفكرين ممن لا أثق - حتى -

فى أن الآراء التى يدعون إليها ويتحمسون لنشرها الى هذا الحد حتى يعتنقها الآخرون هى آراؤهم ؟ ان عواطفهم التى تسيطر على مذهبهم ، واهتمامهم بأن يحملوا الناس على تصديق هذا الامر أو ذاك تجعل من المستحيل النفاذ الى ما يعتقدون هم أنفسهم . أيمكن افتراض حسن النية لدى رؤساء الشيع ؟ ان فلسفتهم للآخرين ، وكان لابد لى من فلسفة خاصة بى . فلأبحث عنها بكل قوى ما دام هناك متسع من الوقت لذلك ، حتى أستطيع وضع قاعدة ثابتة للسلوك فيما بقى لى من أيام حياتى . هانذا فى نضج العمر ، فى عنفوان الوعى ، وقد شارفت على الافول ، ولئن انتظرت أكثر من ذلك فلن أستطيع استخدام جميع قوى عند مراجعة نفسى مراجعة تجيء متأخرة ، وستكون ملكاتى العقلية قد فقدت بعض نشاطها ، وسيكون أدائى لما أستطيع اليوم القيام به على خير وجه أقل اتقاناً . فلأغتم تلك اللحظة المواتية ، فهى أوان اصلاحى الخارجى والمادى ، الا فلتكن كذلك أوان اصلاحى الفكرى والخلقى ، ولأحدد مرة واحدة آرائى ومبادئى ، ولأكن فيما تبقى من أيام حياتى ما كنت أرى انه يجب أن أكونه بعد اعمال الفكر فيه . ولقد نفذت ذلك المشروع فى ببطء وعلى فترات متفاوتة وان كان ذلك بكل ما كان يسعنى من جهد وعناية . وكنت أحس احساساً قوياً أن ما سوف انعم به من راحة بقية أيامى وكل ما قدر لى يتوقفان على ذلك . ولقد وجدت نفسى فى البداية فى متاهة من الحيرة ، والصعاب ، والاعتراضات ، والالتواءات ، والظلمبات ، حتى راودتنى نفسى عشرين مرة أن أتخلى عن كل شئ ، وكادت أتمسك — متخلياً عن بحوث لا طائل وراءها — بأصول الحيلة المعتادة فى مداولاتى مع نفسى ، وذلك دون معاودة البحث وراء المبادئ التى طالما جهدت فى توضيحها . ولكن هذا الحرص نفسه كان شديد الغرابة . لقد كنت أحس اننى أقل من أن أكون أهلاً للوصول اليه ، حتى ان اتخاذه هادياً لى لم يكن الا كـرغبة فى البحث فى وسط البحار والعواصف بغير دفة وبغير « بوصلة » عن منارة لا يكاد يستطاع الوصول إليها ولا تهدينى الى أى ميناء .

ولكننى صمدت . . . ولأول مرة فى حياتى تملكتنى الشجاعة ، وانى لأدين لانتصارها بمقدرتى على تحمل القدر المخيف الذى أخذ يحتوينى منذ ذلك الوقت دون أن يساورنى من ذلك أدنى شك . وبعد جهود بالغة العنف ، والصدق ، ربما لم يـقـم بمثلها على الإطلاق أى كائن ، حددت موقفى للمقبل من سنى حياتى بالنسبة لمختلف الاحاسيس التى كان يهمنى أن تنطبع فى ذاتى ، ولئن كنت عرضة للخطأ فيما

انتهيت اليه ، فأننى على ثقة تامة على الاقل بأن خطئى لم يكن يعد من قبيل الجرم من ناحيتى ، ذلك لاننى بذلت كل جهودى لتوقيه . والحق اننى لست أشك مطلقا فى أن معتقدات الطفولة ورغبات صدرى المكنونه لم ترجح كفة الميزان الاكثر عزاء لنفسى . ان الانسان ليجهد فى مشقة فى ذود نفسه عن الايمان بما يتوق لتحقيقه فى كثير من الحماس ، والا فمن ذا الذى يقوى على الشك فى أن الفائدة التى تعود من وراء القبول أو الرفض لاحكام الحياة الآخرة لا تحدد عقيدة معظم الناس فيما يأملون أو يخشون ؟ كان هذا كله كفيلا بأن يتسلط على أحكامى - وهذا ما أسلم به . ولكن لا يقوى على أن يغير من حسن نيتى . . اذ أننى كنت أخشى الوقوع فى الخطأ فى كل شيء ولئن كان الهدف هو الافادة من هذه الحياة فحسب فقد كان يهمنى معرفة ذلك لكى أستخلص لنفسى منها على الاقل خير نصيب ، ما دامت هناك بعد ، فسحة من الوقت فلا أعُدو غرا تماما ولكن كان أخوف ما أخافه فى هذا العالم - وأنا أمر بحالتى تلك - هو أن أخاطر بمصير نفسى الابدى نظيرَ تذوق متاع هذا العالم الذى لم يبد لي قط ذا قيمة كبيرة .

وانى لاعترف كذلك أنني لم أقض دائما - كما أحب - على كل تلك الضعاب ، التى حيرتنى والتى كثيرا ما آذى فلاسفتنا بها سمعى . ولكن ما ان قر رأبى أخيرا على أن أبت فى أمور يقل استيعاب الفهم الانسانى لها - بعد أن وجدت فى كل النواحي أسراراً منيعة واعتراضات يستعصى حلها - التزمت فى كل أمر الشعور الذى بدا لى مباشرة أو طد أساسا ، والاكثر قابلية للتصديق بذاته ، دون أن أتوقف عند الاعتراضات التى لم اكن أستطيع حلها ، ولكن كانت تدحضها اعتراضات لا تقل عنها قوة ، من المذهب المضاد . ولم تكن اللهجة اليقينية فى هذه الامور تناسب غير الدجالين وان يكن من الضروري أن يكون للمرء احساسه الخاص به وان ينتقيه بكل ما أوتى من نضج عقل ، فلئن وقعنا برغم ذلك فى الخطأ فان العدالة الحق لا توجب علينا العقوبة ما دمنا لم نقترف اثما . ان ذلك هو المبدأ الراسخ الذى اتخذته أساسا لسلامتى .

وقد كان من نتيجة أبحاثى المضنية التى ضمنتها بعد ذلك كتابى « اشهار عقيدة كاهن من سفوا » (1) .

Profession de foi du vicaire Savoyard

(1) كتاب اشهار عقيدة كاهن من سفوا

Profession de foi du vicaire Savoyard

هو الذى الحقه روسو بكتابه «اميل» وضمنه أسس عقيدته مما كان سببا في مصادرة الكتاب كله وامتياره خارجا على الديانة المسيحية الحق .

وهو كتاب انتبهك حرمة ودنسه ظلما أبناء الجيل الحاضر ولكنه قد يحدث في يوم من الايام ثورة بين الناس لو بعث فيهم الادراك السليم وحسن النية .

هذه ذلك الحين - وقد ركنت الى المبادئ التي كنت قد اعتنقتها بعد طول تأمل وروية - اتخذت منها قاعدة راسخة لسلوكي وايماني دون أن آبه بعد ٠٠ لا بالاعترافات التي لم أقو على التغلب عليها ، ولا بتلك التي لم أستطع التكهن بها والتي كانت جميعا تنتاب ذهني من وقت لآخر ، ولقد سببت لي في بعض الاحايين قلقا ، ولكنها لم تزعزعني بتاتا ، ودائما ما حدثت نفسي قائلا : « ليست هذه جميعا سوى مجادلات وتخريجات ميتافيزيقية لا وزن لها الى جانب المبادئ الاساسية التي يعتنقها عقلي ويؤكدها قلبي والتي يطبعها جميعا رضا النفس حين تسكن الاهواء . أفيجوز في أمور تتسامى فوق مستوى فهم البشر أن يقلب اعتراض لا أستطيع التغلب عليه مذهبا على هذا الرسوخ وبهذا الاحكام يكون بعد طول تأمل وعناية متجاوبا مع أحكام عقلي وقلبي وكياني كله ومعززا برضا نفسي الذي أحس انني أفتقده في جميع المذاهب الاخرى ؟ ٠٠٠ لا . . لن تقضى ابدا اية مغالطات على التوافق الذي الحظه فيما بين طبيعتي الخالدة ودستور هذا العالم من جهة ٠٠ والنظام المادي الذي أراه يسوده من جهة أخرى . انني أجد في النظام المعنوي المقابل - وهو النظام الذي كان نهجه ثمرة أبحاثي - ما أنا في حاجة الى الاعتماد عليه لتحمل ما أقاسيه من شقاء في الحياة . وأما في أي نظام آخر فقد أميش بغير موارد ، وقد أموت بغير أمل ، وقد أكون أتعس المخلوقات طرا ، فلاأستمسك اذن بالنظام الذي يكفل اسعادي وحده برغم القدر وبرغم البشر .

ألا يبدو ذلك التفكير ، والنتيجة التي استخلصتها منه ، كما لو أن السماء نفسها كانت أملت هما على لتعدني للقدر الذي كان ينتظرني ولتجعلني في حالة تمكيني من احتماله ؟ ماذا كان يمكن أن يكون أمري ، بل كيف كان يصبح حالي بين تلك المخاوف المروعة التي كانت تترصد بي ، وفي ذلك الموقف الذي لايمكن تصوره والذي زج ببقية حياتي ، لو انني بقيت بغير مأوى حيث يمكنني أن أفلت من مضطهدي العتاة ، وبغير تعويض عما يكبدونني من عار في هذا العالم وبغير أمل في الوصول الى ما استحق من عدالة ، ووجدتني منساقا بجمع نفسي لأقصى مصير يمكن أن يعانيه مخلوق على ظهر البسيطة ؟

وفيما انا مستغرق في سذاجتي ، لم اكن اتصور الا ان الناس

يحملون لى الاحترام والرعاية ، وفيما كان قلبي مفتحا مليئا بالثقة يفضى بسريره للصداقة والاخوان ، كان الحونة يقيدوننى - فى صمت - بأحباب صيغت فى أعماق الجحيم ، وبعد أن فوجئت بأخر ما تتوقعه نفس ذات كبرياء من أقصى الرزايا وأسخطها وجزرت فى الحما دون أن أعرف مطلقا شخصية من يفعل بى ذلك ، ولم يفعله إلا مغرقا فى هاوية من العار ، مخوطا بظلمات مروعة لا أثبتن خلالها سوى النحس من الامور أصابنى الانهيار من المفاجأة الاولى وكان من الجائز الا أفيق من اليأس الذى ألقى بى فيه ذلك اللون غير المتوقع من الكوارث لو لم أكن مزودا من قبل بقوى تقيلنى من عثرتى .

ولم أحس بقيمة الموارد التى زودت بها نفسى لوقت الشدة الا بعد سنوات من الاضطراب حين ثبت الى نفسى أخيرا وبدأت أسترجع صوابى . وبعد أن انتهيت الى رأى فيما كان يعيننى الحكم عليه وجدت - وأنا أقارن مبادئى بموقفى الذى كنت فيه - أننى كنت أغير الاحكام المختلفة التى كان يصدرها الناس والاحداث التافهة لهذه الحياة القصيرة أكثر بكثير مما لها من أهمية ، كما وجدت أن هذه الحياة مادامت ليست سوى سلسلة من المحن ، فليس يهم كثيرا أن تبدو هذه المحن على هذه الصورة أو تلك مادام ينتجم عنها الاثر الذى قدرت من أجله ، وأنه تبعاً لذلك كلما عظمت المحن وقويت وتعذدت ، فمن المفيد أن يتعلم الانسان كيف يحتملها . ان أبلغ الآلام عنفا تفقد حدتها لدى من يرى أن تعويضه عنها سيكون سخيا ومضمونا . كان ضمان هذا الجزء . . الثمرة الرئيسية التى اقتطفتها من وراء تأملاتى السابقة .

والواقع انه مرت بى فى ثنايا الاهانات التى لا حصر لها ، وألوان الذل التى لا حد لها ، والتى شعرت بها تثقل على من كل جانب ، فترات من القلق ومن الشك كانت تراودنى من وقت لآخر فتزعزع أمانى وتزعج هدوئى . كانت الاعتراضات القوية التى لم أستطع حلها ، تبسود لعقلى إذ ذاك أشد قوة كى تقضى على تماما فى اللحظات نفسها التى يرهقنى فيها ثقل ما قدر لى حتى كاد يحل بى القنوط . وكثيرا ما كانت تراود فكري حجج جديدة - كنت أنتوى الاخذ بها - تساند تلك التى كانت قد عذبتنى وكنت أقول لنفسى حينئذ وصدري يضيق حتى لتكاد روحى تزهق : أو اه ! من ذا يؤمننى من اليأس اذا كنت لا أرى - وسط ما يحيق بحظى فى الحياة من أهوال - سوى أوهام فيما يقدمه لى عقلى من عزاء ، انه بتقويضه على هذا النحو - ما قدم من صنيع - قلب رأسا على عقب . . كل

دعامة أمل وثقة أمدنى بها فى شدتى ؟ يا لها من دعامة ليست سوى أوهام لا يتعلل بها سوى فى هذا العالم ! ان الجيل الحاضر بأجمعه لا يرى فى المشاعر التى أعيش عليها وحدى سوى أخطاء وظنون ، وهو يعتقد أن الحق والبدئية تتضمنهما الطريقة المضادة لطريقتى ، بل انه يبدو - وكأننا لا نستطيع أن يصدق - اننى أنتهجها عن ايمان حق ، وأنا نفسى بتسليمى بها عن طوعية مطلقة أقابل فيها صعبا يتعذر التغلب عليها بل يستحيل على حلها وان لم تمنعنى من المثابرة عليها . أفانا اذن العاقل الوحيد والمستنير الوحيد بين البشر ؟ أفيكفى كى أعتقد أن الامور تجري على صورة ما أن تتفق وهوأى ؟ وهل أستطيع أن تكون لى ثقة واعية فى مظاهر ليس لها من أساس ثابت فى عيون الآخرين . . . وكان من الممكن أن تكون مضللة بالنسبة لى كذلك ، لو أن قلبى لم يساند عقلى ؟ او لم يكن خيرا لى أن أصطرح مع مضطهدى . . . بأسلحة متكافئة عن طريق اعتناق مبادئهم من أن أظل على أوهام مبادئى . . . فريسة لهجماتهم دون أن أعمل على دفعها ؟ اننى أومن بحكمتى وما أنا سوى غر ، ضحية خطأ عقيم وشنهيد له .

كم من مرة كدت أستسلم الى اليأس فى تلك الفترات من الشك والحيرة ! ولو اننى قضيت شهرا كاملا على تلك الحال لا نقضى أمر حياتى وأمرى ، ولكن تلك الازمات على تكرار حدوثها فى الماضى كانت دائما قصيرة المدى . واما الآن ، ولو اننى لم أتخلص منها بعد تماما ، الا انها بلغت من الندرة والسرعة بحيث لم تعد لها القدرة على إقلاق راحتى . انها هموم طفيفة لا تستطيع ان تؤثر فى نفسى اكثر مما تستطيع ريشة تقع فى النهر أن تغير من اتجاه مجرى الماء فيه . وقد أدركت ان العودة الى تدبر النقاط نفسها التى استقر عندها رأيى من قبل ، كانت لى بمثابة افتراض معلومات جديدة أو حكم أحسن تكويننا أو تحمس للحقيقة أشد . . . لم يكن لدى حين كنت أبحث عنها . ومادامت واحدة من هذه الحالات لم تكن - وليس من المستطاع أن تكون - حالتى ، فاننى لم أقو على أن أفضل - مستندا الى أى سبب قوى - آراء لم تكن - وأنا رازح تحت أعباء اليأس - تراودنى . . . الا لتزيد من شقائى عن مشاعر اتخذتها فى عنقوان العمر ، والذهن فى تمام نضجه . وبعد دراسة على أكبر قدر من الروية وفى أوقات لم يكن هدوء حياتى ليترك لى من شاغل مقيم سوى التعرف على الحقيقة . واليوم . . . وقلبى يعترضه الضيق ، ونفسى يبهظها السأم ، وخيالى مستوحش ورأسى تضنيها تلك الاحاجى الشنعاء التى

تحيط بى . اليوم . . وقد فقدت ملكاتى جميعا كل ما يحفظها على العمل بعد ان انهكتها الشيخوخة والفزع ، افسلب نفسى من غير داع كل الموارد التى هياتها لذاتى ؟ واكون اكثر اطمئنانا الى عقلى المشرف على الافول ليجعلنى تعسا بغير وجه حق منى . . الى عقلى الكامل القوى ليعوضنى عن الآلام التى أتحملها دون أن أستحقها ؟ لا . . اننى لم أكن أكثر حكمة ولا أغزر علما ولا أفضل ايمانا الا عندما قطعت برأى فى هذه الامور الكبرى . . اننى لم أكن أجهل اذ ذاك الصعاب التى أضعها اليوم تثير ضيقى . انها لم تستوقفنى ولئن عرض منها جديد لم يكن قد استرعى انتباه أحد من قبل . . فما ذلك الا السفسطة ذات التخريجات الميتافيزيقية التى لا يمكنها أن تززع الحقائق الخالدة المتفق عليها فى كل العصور ومن كل الحكماء ، والمعترف بها بين جميع الشعوب والمنقوشة فى كل قلوب البشر بحروف لا يمكن أن تمحى . . وكنت أعلم - وأنا أندبر تلك الامور - أن الفهم الانسانى الذى تحدده الحواس لم يكن ليستطيع الاحاطة بها من جميع نواحيها . . واذن فقد استمسكت بما وسعت طاقتى دون أن ارتبط بما وراءها ، وكان هذا المسلك معقولا فلزمته فيما مضى وتمسكت به وقد ارتضاء عقلى وقلبى معا . . فعلى أى أساس أتخلى عنه اليوم بعد ان أصبحت توجب على الارتباط به دوافع قوية ؟ ترى أى خطر أراه فى اتباعه ؟ وأية مزية تعود على من وراء التخلي عنه ؟ اذا ما اعتنقت مذهب مضطهدى ، أفكنت كذلك أعتنق مبادئ الخلقى ؟ ان هذا المبدأ - ولا أصل له ولا نتيجة - الذى يعرضونه مطمئنين به فى كتب أو مواقف مسرحية دون أن ينفذ شيء منه البتة الى القلب أو الى العقل . . أو بالأحرى هذا المبدأ الآخر الخفى المتعنت . . أعنى التعاليم السرية لجميع الاتباع التى ليست الأخرى سوى قناع لها ، والتى هى رائدهم فيما يسلكون وفيما مارسوه مهي بكل ذلك الدهاء . . ان هذا المبدأ الخفى - وهو مبدأ هجومى بحت - لا يجدى مطلقا فى حالة الدفاع ولا يمكن أن يفيد الا فى العدوان . . فقيم اذن كان يعود على بالنفع فى الحالة التى انتهوا بى اليها ؟ ان براءتى وحدها هى التى تساندى فى المصائب ، وكفى كنت أزيد من شقائى كذلك لو اننى استبدلتها بنزعة شر وأنا أحرم نفسى من هذا المورد الوحيد . . القوى مع ذلك . . أفكنت أصل الى مرتبتهم فى فن الاساءة ؟ واذا ما توصلت الى ذلك فمن أى ألم قد يريحنى ما أستطيع أن أوجهه اليهم ؟ اننى بهذا قد أفقدت احترامى لنفسى ولن أكسب شيئا بدلا منه .

وهكذا بمناقشة الامر مع نفسى عولت على ألا أدعنى أتأرجح فى

مبادئ تقود إليها حجج مضللة ، واعتراضات غير قابلة للحل ، وصعوبات تفوق طاقتي وربما طاقة العقل البشرى . أما عقلي وقد استقر عند أوطه أساس استطلعت أن أهيه له ، فقد اعتاد تماما على أن يستكين لها في حمى ضميرى ، حتى أنه لم يعد فى استطاعة أى مذهب غريب قديم أو مستحدث أن يستثيره ، أو يعكر من صفوى لحظة واحدة . وحين حل بى الفتور وزكود الذهن ، نسيت حتى الحجج التى كنت أقيم عليها أسس عقيدتى ومبادئى ، ولكننى لن أنسى أبدا النتائج التى استخلصتها منها برضا ضميرى وعقلى وسأتمسك بها منذ الآن . فليتقدم كل الفلاسفة ليقارعوها ، وسيضيع عليهم وقتهم وجهدهم . اننى متمسك فيما بقى من حياتى فى كل الامور بما اتخذته من رأى عندما كنت فى حالة تمكنتى من حسن الاختيار .

وبعد أن سكنت الى هذه التدابير وجدت فيها - ونفسى راضية - الأمل والعزاء للذين أحْتَاج لهما فى موقفى هذا . وليس من الممكن الا تلقى بى أحيانا فى غمار اليأس عزلة مطلقة متواصلة كثيبة فى ذاتها ، وضغن بين من جميع أبناء الجيل الحاضر مشوب على الدوام ، ومهسانات يهيلونها على باستمرار . ولم يزل أملى المزعزع وشكوكى المشبطة تعاودنى من وقت لآخر لتزعج نفسى وتملاها شجنا . أما وقد عجزت عن ممارسة التفكير اللازم لاطمئن نفسى بنفسى ، بما أحس به ، من حاجتى الى تذكر قراراتى القديمة : ذلك لان العناية والحرص وخلوص القلب ، تلك التى آليت على نفسى التزامها عند اتخاذ هذه القرارات ، تعاودنى ذكرها وتورد الى كل ثقتى ، وهكذا أمتنع عن تقبل أية آراء جديدة ، وكأنما هى أخطاء مشنومة ليس لها سوى المظهر الخادع وكأنما ليس من شأنها الا اطلاق راحتى .

وهكذا وقد احتبست داخل حيز ضيق من معلوماتى القديمة لم يعد لدى كما كان الامر مع « سولون » فرصة القدرة على التعلم كل يوم ، والعمر يتقدم بى ، بل يجب على أن أجنب نفسى الغرور الخطر الذى يدفعنى الى الرغبة فى معرفة ما أنا منذ اليوم عاجز عن الالمام به تماما . ولكن اذا ما بقيت أمامى بعض مفانم من معلومات نافعة آمل فى الحصول عليها ، فان على بعند ذلك أن أسعى وراء شىء له أهمية ، وذلك من ناحية الفضائل الضرورية لحالتى . وعندئذ يكون قد حل الوقت المناسب للتزويد روحى وتزيينها بمفهم تستطيع أن تحمله معها عند تحررها من هذا الجسد الذى يفشيها ويعميها .

وبرؤيتها للحقيقة سافرة ستدرك مدى تفاهة جميع المعلومات التي يزعمونها الى هذا الحد علمأؤنا المزيّفون .. ستنوح روي على تلك اللحظات التي ضيعتها في هذه الحياة رغبة في كسبها ولكن الصبر والوداعة والاستسلام والاستقامة والعدالة المطلقة كل أولئك ألوان من الثراء يحملها الانسان معه تستطيع أن تزيد من ثرائه باستمرار دون أن يخشى أن يفقدها قيمتها .. حتى الموت نفسه • اننى أكرس البقية الباقية من شيخوختى لهذه الدراسة الوحيدة النافعة وكم اكون سعيدا لو أننى تعلمت ، بما أحرزت من تفوق على نفسى ، كيف أخرج من الحياة .. لا خيرا مما دخلتها .. فان هذا ليس ممكنا .. ولكن أكثر فضيلة •

الرحلة الرابعة

من بين الكتب القليلة التي لا أزال أقرأها أحيانا كتاب «بلوتارك» (١) الذى يجذبني اليه ويستحوذ على أكثر من غيره . لقد كان أول ما طالعت في طفولتي (٢) ، وسيكون آخرها في شيخوختي . فهو تقريرا المؤلف الوحيد الذى لم أقرأ له مرة واحدة الا وجنيت من ذلك فائدة ما . ولقد كنت أول أمس أطلع في مؤلفاته الاخلاقية رسالة عن «كيف يفيد الانسان من أعدائه ؟ » Comment on pourra tirer utilité de ses ennemis ?

وفى اليوم نفسه حين كنت أقوم بترتيب بعض الكراسيات التى بعث بها الى المؤلفون ، وقعت عيني على احدى يوميات الراهب « R. (٣) » التى فى عنوانها هذه الكلمات « الى من يكرس حياته للحقيقة » (٤) .
Vitam vero impendēti, R.

ولما كنت بالغ اليقظة ازاء مداورات هؤلاء السادة بحيث أدعها هذه المرة دون أن أرد عليها بمثلها ، فقد أدركت أنه اعتقد تحت هذا الستار من الادب انه يستطيع ايلامى بالتجنى على الحقيقة ولكن على أى أساس كان ذلك ؟ ولم هذا التهكم ؟ وأى موضوع كنت أستطيع أن

(١) بلوتارك Plutarque مؤرخ اغريقى قديم كتب كتابا عن « حياة مشاهير الرجال » وكان له اثره على تفكير روسو طيلة حياته .

(٢) كتب روسو خطايا الى مالزرب Malesherbes بتاريخ ١٢ من يناير ١٧٦٢ فيه « وقع بلوتارك تحت يدى وأنا في السادسة من عمري وحفظته من ظهر قلب وأنا في الثامنة » .

(٣) هو الاب روزيه l'Abbé Rozier طبقا لما ورد في مخطوط نبوشائل وإن ورد الاسم في طبعة Bibliothèque indépendante d'Édition (عام ١٩٠٥ ص ١١٤) تحت اسم رويو Royou وفي الخطاب رقم ٨ من روسو الى لاتوريت La tourette هو الراهب الذى خرج روسو معه في رحلات استعشاب عام ١٧٨٨ وللراهب مؤلف هو : Voyage à l'Île des Peupliers

(٤) Vitam vero impendēti أى « الذى يكرس نفسه للحقيقة » - وهو الشعار الذى اتخذ روسو ورد أيضا في حاشية خطابات من (الجبل)
Lettres de la Montagne

اضمنه اياه ؟ ورغبة منى فى تحقيق الفائدة من دروس « بلوتارك » فقد اعترفت ان اكرس جولة الفد لاقوم باختبار نفسى من ناحية الكذب ، وانتهيت فى ذلك الى تأكيد الرأى المسلم به من قبل وهو « اعرف نفسك بنفسك » شعاعا معبد « دلف » لم يكن مبدأ من الميسور اتباعه على نحو ما كنت أعتقد فى « اعترافاتي » .

وفى اليوم التالى عندما هممت بالسير لتنفيذ هذا القرار ، كانت أول فكرة راودتنى حين بدأت أجمع شتات نفسى ، فكرة الاكذوبة الشنعاء التى ارتكبتها فى مستهل شبابى (١) ، وعكرت ذكراها صفوى طوال حياتى ، ولا تزال حتى فى شيخوختى تدفع بالحزن الى قلبى على ما به من احزان سببتها له عوامل أخرى . ان تلك الاكذوبة ، التى كانت فى حد ذاتها جرما كبيرا لابد وانها كانت أفظع جرم أيضا بما ترتب عليها من آثار جهلتها دائما ولو أن الندم صورها لى أشد ما يمكن أن تكون قسوة . ومع ذلك ، فلو لم أدخل فى الاعتبار سوى الحالة التى كنت عليها حين ارتكبتها ، فان تلك الاكذوبة لم تكن سوى نتيجة خزى شائن ، وأبعد ما تكون عن قصد الاساءة الى من كانت ضحية لها ، ويمكننى ان افسم امام وجه الله أنه فى اللحظة نفسها التى كان ينتزعها هذا الخزى الذى لا يقهر ، وددت لو بذلت كل دمي راضيا لأحول أثرها الى وحدى ، ان هذا لون من ألوان الهذيان لا أستطيع أن أفسره الا بقولى - كما أظننى أحسه - انه فى تلك اللحظة قهرت طبيعتي الخجول كل أمانى قلبى . ان ذكرى تلك القعلة التعسة ، والندم الذى لا يخبو أواره الذى حلفته لى ، بشت فى نفسى من ناحية الكذب نفورا كان حريا أن يجنب قلبى هذه الرذيلة بقية حياتى . وعندما اتخذت شعارى ، كنت أحس بأننى مهيبا لان أستحقه ولم يكن لدى شك فى أننى لست جديرا به حين بدأت أختبر نفسى فى جدية أكثر على ضوء مقالة الراهب « ر . . . »

وعندئذ دهشت جدا - وأنا أفحص نفسى فى عناية متزايدة - لكثرة ما اخترعت مما كنت أذكر اننى قلت على أنه الصدق ، فى الوقت نفسه الذى كنت - وانا مزهو فى قرارة نفسى بحبى للحقيقة - أضحي سبيلها بسلامتى ، ومصالحي ، وشخصى ، بعدم تحيز لا أعرف له ضريبا بين البشر . وكان أشد ما آثار الدهشة فى نفسى ، هو اننى عند تذكرى لتلك

(١) المقصود هنا حادثة سرقة شريط ترك روسو الاتهام فيها ينصب على الخادمة ماريون Marlon ، وجاء فى « الاعترافات » فى الكتاب الثانى ان روسو كان قد سرق شريطا « بلون الورد والفضة » ، اما ماريون التى ألقى عليها التهمة فهى طباخة لدى مدام دو فرسليس Mme de Vercellis

الأمور المختلفة ، لم أكن أحس إزاءها أى ندم حقيقى . . وأنا من ليس فى قلبه مكان للتردد فى الاشتمزاز من الزيف . أنا من قد يخوض ألوان التعذيب لو أن تجنبها ما كان يستدعى الكذب . . أى تناقض عجيب ذلك الذى كان يدفعنى الى الكذب مختاراً ودون موجب وبلا فائدة تجنى؟ وأى تعارض غير معقول ذلك الذى يجعلنى لأحس مع ذلك بأدنى أسف . . أنا من لم يكف الندم على أكذوبة واحدة عن إيلامه طيلة خمسين عاماً ؟

اننى لم أكن أبداً عنيدا إزاء أخطائى ، وكان لى فى الوازع الحلقى خير رائد . وقد احتفظ ضميرى بنقائه الاول ، وحتى لو أن التغيير تناوله ادعانا منه لمصالحى فكيف يتأتى له وهو محتفظ باستقامته فى الظروف التى يستطيع الإنسان - وقد قهرته عواطفه - أن يعتذر على الأقل بضعفه ؟ كيف يتأتى له أن يفقد هذه الاستقامة فى ما لا أهمية له من الأمور فحسب حيث لا يكون للرديلة مبرر مطلقاً ؟ لقد وجدت أنه على حل تلك المسألة تتوقف سلامة الحكم الذى كان على أن أطبقه هنا على شخصى . وهماهى ذى الوسيلة التى مكنتنى من تفسيرها لنفسى بعد أن درست تلك المسألة دراسة وافية

أذكر أننى قرأت فى كتاب للفلسفة أن الكذب هو إخفاء حقيقة يجب إظهارها . ويترتب تماماً على هذا التعريف أن السكوت عن قول الحق الذى لا يكون المرء مضطراً للجهر به لا يعد كذباً ، ولكن من لا يقنع فى مثل تلك الحالة بسكوته عن قول الحقيقة فيذكر ما يخالفها ، أ يكون عندئذ كاذباً أم غير كاذب ؟ انه - طبقاً للتعريف - لا يمكن أن يقال انه كاذب ، ذلك لانه اذا أعطى عملة زائفة لشخص هو ليس مديناً له بشيء فانه يخدع ذلك الشخص - ما فى ذلك من شك - ولكنه لا يسرقه . ويعرض هنا سؤالان كلاهما بالغ الأهمية يستدعيان البحث . أما السؤال الاول فهو : متى وكيف يجب قول الحقيقة للآخرين مادام ليس من الواجب قولها دائماً ؟ وأما السؤال الثانى فهو ما اذا كانت هناك حالات يمكن أن يخدع المرء فيها غيره بحسن نية .

ان هذا السؤال الثانى أمر قطع فيه - وأنا أعلم ذلك تماماً - نفياً فى الكتب حيث لا يكلف أشد مبادئ الأخلاق تزمناً المؤلف شيئاً ، وإيجاباً فى المجتمع ، حيث لا تعدو مبادئ الأخلاق التى تنادى بها الكتب أن تكون ثرثرة تستحيل ممارستها . فلأدع اذن جهات الاختصاص هذه فى تضاربها ولابحث لنفسى عن حل لهذه الاسئلة عن طريق مبادئ الشخصية .

أن الحقيقة العامة المجردة هي أغلى ما يملكه المرء . فبدونها يغدو أعشى ،
 أنها العين المبصرة للعقل ، عن طريقها يتعلم المرء السلوك ، ويصبح
 ما يجب أن يكونه ، ويعمل ما يجب عليه عمله ، وكيف يصل الى هدفه
 الحقيقي . أما الحقيقة الخاصة والفردية فليست خيرا دائما ، فقد تكون في
 بعض الاحيان شرا ، وهي في أغلب الامر شيء لا هو خير ولا هو شر .
 أن الامور التي تهم المرء معرفتها ، والتي تكون الدراية بها ضرورية لاسعاده ،
 قد لا تكون كثيرة العدد ، ولكن مهما يكن من أمر عددها فانها تعتبر ملكه
 الخاص ، له الحق في المطالبة به حيثما يجده ، ولا يمكن لأحد أن يهضمه
 هذا الحق دون أن يرتكب أحسن انواع السرقات ، اذ انها — أى تلك الامور —
 من تلك الملكيات التي يشترك فيها الجميع والتي لا يحرم شيوعها البتة
 واهبها هذا الحق .

أما بالنسبة للحقائق التي ليست لها منفعة من أى نوع ، لا علما
 ولا عملا ، فكيف يمكن أن تعد ملكا واجبا مادامت ليست لها حتى صفة
 الملك ؟ ومادامت الملكية لا تقوم الا على أساس المنفعة ، فحيث تنعدم المنفعة
 لا يمكن أن تكون هناك ملكية .

ان المرء يستطيع أن يطالب بقطعة ارض ولو كانت مجذبة لأنه يمكنه
 على الأقل أن يقيم عليها ، ولكن أن تكون واقعة ما ، عقيمة ليست ذات بال
 من كافة الاعتبارات وليس لها من أثر على أى انسان ، أن تكون صحيحة
 أو زائفة فان هذا لا يهم كائنا من كان . وليس هناك في مجال المعنويات
 شيء غير ذى منفعة ويستوى في ذلك مجال الماديات ، اذ لا يمكن أن يعد
 حقا واجبا مالا ترجى فائدة من ورائه ، ولكي يصبح الشيء واجبا . . يجب
 أن يكون — أو أنه يمكن أن يكون — نافعا . وهكذا تكون الحقيقة الواجبة هي
 تلك التي تفيد العدالة ، وانه لتدنيس — لسمي الحقيقة المقدس — أن نطلقه
 على العقيم من الامور التي لا يهم الجميع وجودها ، كما أن معرفتها غير مجدية
 في أية ناحية . والحقيقة ان تجردت من أية فائدة ، ولو كانت ممكنة
 لا يجوز أن تكون اذن شيئا واجبا ، وبالتالي لا يكون من يسكت عنها او
 يموها كاذبا البتة .

ولكن هناك من الحقائق ما هي عقيمة تماما بحيث تكون عديمة النفع
 في أى شيء ومن جميع الوجوه ؟ ان هذه مسألة أخرى تستحق المناقشة ،
 وسأعود اليها فورا . أما الآن فلننتقل الى السؤال الثاني .

إن عدم ذكرها — مع انه حق — والجهر بالكذب أمران مختلفان جد
 الاختلاف ، ولكن يجوز أن ينجم عنهما مع ذلك الأثر نفسه ، ذلك لأن هذه

النتيجة هي بالتأكيد النتيجة نفسها كلما كان هذا الاثر معدوما . وحيثما لا يهيم قول الحقيقة فان قول الخطأ الذي يقابله لا يكون مهما كذلك ، ومن ثم فانه في مثل تلك الحالة لا يعد من يخدع الناس بقول ما يناقض الحقيقة أشد ظلما من ذلك الذي يخدعهم وهو لا يجهر بها لانه في حالة الحقائق غير المجدية لا يكون الخطأ أسوأ من الجهل . وانه لو اعتقدت أن لون الرمال في قاع البحر أبيض أو أحمر ، فان ذلك لا يهمني أكثر مما يهمني الجهل بلونها بالفعل . وكيف يتأتى للمرء أن يكون ظالما وهو لا يؤذى أحدا ، ما دام الظلم لا يكون الا بالاساءة للآخرين ؟ ولكن هذه الاسئلة ، وقد قطعت فيها بهذا الاجاز ، لا تستطيع أن تزودني كذلك بما يضمن لي تطبيقها من الناحية العلمية دون أن يسبقها ايضاح كثير ضروري حتى يكون التطبيق سليما في جميع الحالات التي قد تعرض ، ذلك لانه اذا ما كان الالتزام بقول الحقيقة لا يقوم الا على أساس النفع المرجو من ورائها ، فكيف لي أن أنصب من نفسي حكما على هذا النفع ؟ ان ما يجنيه المرء من مزية يكون ضارا في أغلب الامر بغيره ، فالمصلحة الخاصة غالبا ما تتعارض مع المصلحة العامة ، فكيف يسلك الانسان في هذه الحالة ؟ أيجب أن يضحي بالنفع الذي يعود على القائب في سبيل نفع يعود على المخاطب ؟ أيجب السكوت أم الجهر بالنسبة للحقيقة التي اذ تفيد امرا تؤذى آخر ؟ أيجب أن نزن كل ما يجب قوله بميزان الصالح العام فحسب أم بميزان العدالة الفردية ؟ وهل أنا مطمئن الى أنني أعرف جيدا كل ما له صلة بهذا الامر حتى لا أنصرف فيما لدى من معلومات الا على أساس قواعد العدالة ؟ بل أكثر من ذلك : هل قمت بفحص كاف لما يجب على الانسان نحو نفسه ، وما يجب عليه ازاء الحقيقة المجردة لذاتها ، وأنا أتحرى ما يجب عليه نحو الآخرين ؟ لئن لم أسبب لانسان آخر أى ضرر عن طريق الحديعة ، أفيتبع ذلك ألا يضيقني ضميريا من وراء ذلك ؟ وهل يكفي ألا أكون ظالما أبدا لأكون بريئا دائما؟

كم من مناقشات محيرة يكون من الميسور التخلص منها بقولنا لأنفسنا : « فلنلزم دائما جانب الحق ، معرضين أنفسنا لكل ما قد يحدث من جراء ذلك . ان العدالة نفسها كامنة في صدق الأمور ، والكذب ظلم دائما كما أن الخطأ خداع دائما ، وذلك عندما يقول المرء ما لا يتفق وأصول ما يجب عليه عمله أو الايمان به . ومهما يكن الاثر الذي يترتب على قول الحقيقة ، فالمرء يكون دائما غير مذنب اذا ما قالها لانه لم يصف إليها شيئا من عنده » .

ولكن ذلك حسم للمسألة دون حلها : اذ لم يكن المطلوب بيان ما اذا كان من الخير دائما قول الحقيقة ، وانما ما اذا كان الانسان ملزما كذلك

بالجهر بها دائما • ثم انه ، على ضوء التعريف الذى كان محل دراستى ،
مفترضاً النفسى ، وهو التمييز بين الحالات التى يتحتم قول
الحقيقة فيها ، وبين تلك التى يمكن السكوت عنها دون أن يحيق الظلم
بأحد ، وتمويهها دون أن يعد ذلك كذبا : ذلك لأننى وجدت أن مثل هذه
الحالات قائمة فعلا ، ومن ثم فالمطلوب هو البحث عن قاعدة مؤكدة تؤدي
الى معرفتها وتحديدها تحديدا دقيقا ..

ولكن من أين نستخلص تلك القاعدة والدليل على سلامتها ؟ لقد
وجدت نفسى دائما فى جميع المسائل الخلقية العسيرة مثل هذه ، أكثر
استعدادا لحلها بوحى من ضميرى ، منى ، بهدى من عقلى • ولم يحدث أبدا
أن ضللتنى غريزتى الخلقية ، فقد ظلت حتى الآن محتفظة بنقاها فى قلبى
بالقدر الذى أستطيع معه أن أركن إليها ، ولئن سكنت أحيانا أمام انسياقى
لعواطفى فى سلوكى ، فإنها تستعيد سيطرتها تماما عندما أستعرض
ذكرى . وعندئذ أحاسب نفسى حسابا قد يبلغ فى عسره حساب القاضى
الاعظم بعد هذه الحياة •

ان الحكم على أحاديث الناس على ضوء ما يتخلف عنها من آثار هو
فى أغلب الأحيان أساءة تقدير لها ، فضلا على أن هذه الآثار ليست دائما
ملموسة ومن الميسور معرفتها ، فهى تتغير دائما مثلما تتغير الملابس التى
تلقى فيها تلك الاحاديث ومع ذلك فلا يقدر قيمتها أو يحدد مدى ما بها
من مكر أو طيبة قلب الا قصد ملقيها وحده . فقول الخطأ لا يعد كذبا الا
أن كان بقصد التضليل ، والقصد نفسه من التضليل ، فى بعده من أن
يكون دائما مصحوبا بقصد الاضرار ، يكون له أحيانا هدف معتاد تماما •
ولكن لكى نسم أكذوبة بالبراءة ، لا يكفي ألا يكون القصد من الاضرار
واضحا ، بل يجب علاوة على ذلك التأكد من أن الخطأ الذى يقع فيه
المخاطبون ، لا يستطيع أن يسبب لهم أو لآى كان ضررا بحال من الأحوال •
انه لمن النادر والعسير أن يصل المرء الى ذلك التأكد ، ولذا فانه من العسير
والنادر كذلك أن تكون هناك أكذوبة بريئة تماما . ان الكذب الذى
يستهدف النفع الشخصى خداع ، والكذب لنفع الغير غش ، وأما الكذب
من أجل الإيذاء فهو افك : انه أسوأ أنواع الكذب . والكذب الذى لا ينطوى
على مصلحة أو اضرار بالنفس أو بالآخرين ليس كذبا : انه ليس أكذوبة
بل هو توهم •

وتسمى القصص الخيالية ذات الموضوع الاخلاقى عبرا أو حكايات ،
ولما كان موضوعها ليس - ولا يجب أن يكون - سوى غلاف يضم حقائق
نافعة فى صور ملموسة لطيفة ، فان المرء لا يستمسك اطلاقا فى مثل هذه

الحالة باخفاء كذب الواقعة ، الذى ليس سوى دثار للحقيقة ، ومن لا يروى حكاية خيالية الا من أجل الحكاية نفسها فليس بكاذب بحال من الاحوال .

وهناك قصص لخيالية أخرى بالغة أقصى التفاهة ، مثل ذلك معظم القصص والروايات التى لا تستهدف سوى التسلية اذ أنها تخلو من أى تثقيف حق . وتلك التخيلات - وقد تجردت من أية فائدة خلقية - لا يستطيع ادراك قيمتها الا اذا عرف قصد مخترعها ، وهو حين يرويها مؤكدا ايهاا كانما هى حقائق واقعة ، لا يسع المرء اطلاقا أن ينكر أنها أكاذيب حقة . ومع ذلك فمن ذا الذى عنى كثيرا بتلك الاكاذيب ، ومن ذا الذى وجه يوما الى قائلها لوما عنيفا ؟ لئن كان هناك ، على سبيل المثال ، مرمى خلقى فى قصة « معبد نيسد (١) Le Temple de Gnide » فان هذا المرمى قد حجبته تماما وأفسدته التفاصيل الماجنة والصور الخلية . ماذا فعل المؤلف ليغطي ذلك بطلاء من التواضع ؟ لقد تظاهر بأن مؤلفه كان ترجمة لخطوط يوناني وسرد قصة اكتشاف هذا المخطوط على خير وجه يستطيع به اقناع قرائه بصدق روايته . فلئن لم يكن فى ذلك كذب ايجابى أكيد، فلتقولوا لى ما هو الكذب اذن ؟ ومع ذلك ، فمن ذا الذى فطن الى جريمة المؤلف فى هذه الاكذوبة ، والى اعتباره من أجل ذلك مخادعا عبثا . ان الامر لا يعدو أن يكون دعاية ، وان المؤلف - وهو ماض فى تأكيده - لم يكن راغبا فى اقناع أحد ، بل انه فى الواقع لم يقنع أحدا ، وان الناس لم يشكوا لحظة واحدة فى أنه هو مؤلف الكتاب نفسه الذى زعم أنه يوناني والذى قدم نفسه كمترجم له . وسأرد على ذلك بأن مثل تلك الدعاية التى لا هدف من ورائها لم تكن سوى عمل صبيانى تافه . وبأن الكاذب لا يكون أقل كذبا عندما يؤكد ما يقول ، مع كونه غير مقنع ، وبأنه يجب أن نستبعد من الجمهور المثقف ، كثرة من القراء السذج البسطاء ، الذين اعتقدوا فى صدق قصة المخطوط ، وقد رواها لهم مؤلف جاد ، وباهجة واثقة ، والذين شربوا دون نخشية ، من كأس غثيقة الصورة ، السم الذى لو قدم لهم فى اثناء حديث لكان من الممكن على الاقل أن يتشككوا فيه .

وسواء وجدت تلك التفرقة فى الكتب أو لم توجد ، فانها كائنة فى قلب كل انسان واثق من نفسه ، لا يود أن يجيز لنفسه شيئا يستطيع ضميره أن يلومه بسببه ، ذلك لان قول الزور لمصلحة شخصية لا يقل كذبا عن الجهر به بقصد الاضرار بالغير ، وان كانت الاكذوبة أقل جرما .

(١) معبد نيسد ، أو معبد فينوس Le Temple de Gnide Venus هو رواية غرامية لونتسكيو Montesquieu

أن منح ميزة لمن لا يستحقها اخلال بمجرى العدالة ، وأن ينسب شخص لنفسه أو لغيره - زورا - عملا قد ينجم عنه ثناء أو تقييد ، اتهام أو تبرئة ، لهو إجراء ظالم . وعلى ذلك ، فإن كل شيء بمخالفته للحقيقة - يخدش العدالة على أية صورة - كذب . ذلك هو الحد الدقيق ، ولكن كل ما يناقض الحقيقة ولا شأن له بالعدالة بأية حال ليس الا من خلق الخيال . واني أعترف أن أى امرئ يلوم نفسه على توهم محض ، عده كذبا ، له ضمير أشد حساسية من ضميرى .

ان ما يسميه الناس أكاذيب المجاملة هي أكاذيب حقيقية ، ذلك لان من يضلل اما لمصلحة الغير أو لمصلحة نفسه ، ليس أقل ظلما ممن يضلل ملحقا ضررا بنفسه . وان أى امرئ يمتدح أو يلوم مخالفا الحقيقة يعد كاذبا اذا ما وجه ذلك الى شخص حقيقى . أما اذا كان ذلك موجها الى كائن خيالى فانه يستطيع أن يتحدث عنه بكل ما يريد دون أن يكذب ، على ألا يحكم على مغزى الوقائع التى يخلقها ، وألا يصدر عليها حكما خاطئا : اذ أنه عندئذ ، ولو لم يكن كاذبا في الوقائع ، فانه يرتكب الكذب ضد الحقيقة الاخلاقية ، تلك الحقيقة التى يجب احترامها مائة مرة أكثر من حقيقة الوقائع .

لقد صادفت فى الحياة أشخاصا ممن يسمون بصادقين . ان كل صدقهم يستند فى الحادثات التافهة وهم يسردون فى أمانة الامكنة والأوقات والأشخاص ولا يسمحون لانفسهم بأى تخيل ، ولا ينسجون أية ملابس من الخيال ، ولا يبالغون فى شيء . وهم فى كل ما لا يمس مصلحتهم ، يلتزمون فيما يقصون الامانة المطلقة . ولكن ما أن يتطلب الامر معالجة مسألة تهمهم ، أو رواية واقعة ما تمسهم من قريب ، فانهم يستخدمون كافة الألوان ليعرضوا الاشياء على النحو الذى يكون أكثر نفعا بالنسبة لهم . واذا ما كان الكذب مفيدا لهم - وان كانوا يتجنبون قوله بأنفسهم - فهم يجذبونه فى لباقة ، ويمامون على أن يلتزمه الآخرون دون أن يتمكن أحد من نسبته اليهم . هذا ما يوجبه الحرص : وداعا أيها الصدق .

أما الانسان الذى أسميه « صادقا » فهو يفعل عكس ذلك تماما . ففي الامور التى لاتعنيه بتاتا ، فان الحقيقة - التى يحترمها الغير حينئذ احتراما شديدا - لا تؤثر فيه الا بقدر ضئيل جدا ، كما أنه لا يعنى أبدا بتسليّة جماعة من صحابه بوقائع مختلفة لا ينجم عنها أى حكم خاطيء ، لصالح - أو ضد - أى من الناس حيا كان أو ميتا . ولكن كل حديث يترتب عليه بالنسبة لأى شخص كسب أو خسارة ، تقدير أو اجتقار ، مدح أو

لوم ، يتنافى مع العدالة والحقيقة ، هو كذب لن يجد سبيله أبدا الى قلبه أو فيه أو يراعه . وهو راسخ في الصدق حتى ولو ضد مصلحته ، ولو أنه قلما يدعى ذلك في المحادثات التافهة . انه صادق في عدم محاولته خداع أحد ، وفي أن أمانته على الحقيقة التي تتهمه ، تستوى وأمانته على الحقيقة التي تشرفه ، وفي أنه لا يضل لصالحه أو للاضرار بعسوه . فالفرق اذن بين رجل صادق وغيره هو أن رجل المجتمع يكون بعيد المغالاة في أمانته بالنسبة لكل حقيقة لا تكلفه شيئا ، ولكنه لا يتجاوز هذا المدى ، وأما رجل أنا فهو لا يخدمها أبدا بمثل تلك الأمانة اللهم الا حين يرى من واجبه أن يضحي بنفسه في سبيلها .

ولكن قد يقال : كيف يمكن التوفيق بين هذا التساهل وهذا الحب الشديد للحقيقة الذي أمجده من أجلها ؟ واذن ، أفهذا الحب زائف ما دام يستغل كل هذه الشوائب ؟ كلا أنه لطاهر وصادق ، ولكنه ليس سوى مظهر لحب العدالة ، ولا يمكنه أبدا أن يكون زائفا ، برغم أنه غالبا ما يكون خياليا . ان العدل والحق لفظان مترادفان في ذهنه ، يحل الواحد منهما محل الآخر بدون تفرقة ، والحقيقة المقدسة التي يعبدها قلبه ، ليست وقائع لا قيمة لها ، وأسماء لا طائل وراءها ، ولكنها اعطاء كل ذي حق حقه فيما يملكه حقيقة ، وفيما ينسب اليه خيرا كان أو شرا ، وما يجزى به من تشريف أو تقريع ، من ثناء أو استهجان ، وهو ليس مخطنا لا في حق الغير لان عدالته تمنعه من ذلك ولأنه لا يريد الاضرار بأحد ظلما ، ولا في حق نفسه لان ضميره يذوده عن ذلك ، ولأنه لا يمكن أن ينتحل لنفسه ما لا يملكه . ولكنه يغار بصفة خاصة على احترام ذاته ، فهي ملك له وآخر ما يسعه التخلي عنه . وهو قد يشعر بخسارة حقة ان هو نال احترام الآخرين على حساب احترامه لذاته . واذن فانه سيكذب أحيانا فيما لا أهمية له بدون تحرج ودون أن يعتقد أنه يكذب ، ولكن هذا لا يحدث أبدا للاحاق خسارة أو كسب للغير أو لنفسه . أما في كل ما يتعلق بالحقائق التاريخية وكل ما يمت بصلة بسلوك الناس وبالعدالة وبواجب المعاشرة وبالايضاحات المفيدة ، فانه يجنب نفسه كما يجنب الآخرين الخطأ ، ما دام ذلك متوقفا عليه . وكل كذب فيما عدا ذلك ليس كذبا في نظره . وإذا كان « معبد نيد ، Le Temple de Gnide مؤلفا ناعما فان قصة المخطوط اليوناني ليست سوى تخيل بالغ البراعة ، ولكنها كذبة تستحق العقاب الشديد اذا كان الكتاب خطرا .

تلك كانت شريعة ضميري فيما يتصل بالكذب والصدق . ولقد كان قلبي يتبع هذه الشريعة أليا قبل أن يعتنقها عقلي . ولكن الوازع الخلقى

هو الذى قام وحده بتطبيقها . ان الكذبة الاجرامية التى كانت «ماريون» Marion (١) التعمسة ضحية لها ، خلفت لى ندما لا يمضى ، وقانى فيمابقى لى من حياتى ، لا أية أكذوبة من هذا القبيل فحسب ، بل كافة الاكاذيب التى على تنوع صورها ، كانت تستطيع أن تمس صالح وسمعة الغير . ولما جاء الاقناع شاملا على هذا النحو فقد أحللت نفسى من موازنة النفع والضرر موازنة دقيقة ، ومن تعيين الحدود الفاصلة بين الكذب الضار وكذب المجاملة، ولما كنت أعد كليهما اثما ، فاننى حرمتها معا على نفسى .

وسواء فى تلك المسألة أو فيما عداها ، كان لمزاجى تأثير كبير على مبادئى ، أو بالاحرى على عاداتى ، ذلك لاننى لم أنصرف بتاتا متبعا قاعدة ما أو التزمت قواعد أخرى فى أى شىء سوى دوافع طبيعتى . ولم يحدث مطلقا أن مرت بخاطرى أكذوبة مدبرة ، كما لم يحدث مطلقا أن كذبت سعيا وراء مصلحة شخصية ، ولكننى كذبت كثيرا بسبب الحجل ، أو لاختصاص من الحرج فى أمور لا أهمية لها ، أو لم تكن تهم على الاكثر سوى وذلك حين يكون على أن أوصل حديثا ، فيضطررنى ببطء تفكيرى ونضوب حديثى للالتجاء الى التخيل حتى أجد ما أقوله . وحين يكون الكلام ضروريا ولا تعرض لذهنى سريعا حقائق تبعث على التسلية فاننى أقوم برواية حكايات خيالية حتى لا أظل أبكم ، ولكننى أعنى ، عند اختراع هذه الحكايات بقدر ما يسعنى ذلك - ألا تكون أكاذيب بمعنى أنها لا تخدش العدالة ولا الحقيقة الواجبة ، وألا تكون سوى تخيلات لا قيمة لها بالنسبة للناس جميعا ولى . ولقد كان بودى لو أننى استبدلت فيها على الأقل حقيقة الوقائع بحقيقة أخلاقية، أى بأن أصور فيها تصويرا صادقا الاحاسيس الطبيعية للقلب الانسانى ، وأن أستخلص منها دائما درسا نافعا ، وقصارى القول أن أصنع منها قصصا أخلاقية ، وعبرا ، ولكن كان من اللازم لذلك قسبط من حضور البديهة أوفر مما أملك ، ومزيد من طلاقة اللسان حتى أستطيع أن أحقق فائدة التعليم من لغو المحادثة ، ذلك لان سيرها فى سرعة تفوق سرعة أفكارى ، وهو يضطررنى دائما الى النطق قبل التفكير غالبا ما أوحى الى بسخافات وتفاهات لم يكن عقلى ليرضى عنها ، وكان قابى ينكرها فى حين أنها تفلت من شفتى ، ولكنها اذ تسبق حكمى الشخصى فانه لا يعود من الممكن اصلاحها بمراقبتها . وانه ليحدث كذلك بسبب هذا الدافع الأول العنيف لمزاجى ، فى لحظات خاطفة غير متوقعة ، أن ينتزع منى الخجل والحياء غالبا أكاذيب لا دخل لارادتى فيها ، ولكنها

(١) ماريون Marion هى الخادم التى أشرنا اليها فى هامش ص ١٢٨ وانتهما روسو ظلما بالسرقة .

تسببها مدفوعة بضرورة الإجابة على التو • ان الانطباعة العميقة التي خلفتها ذكرى « ماريون » المسكينة يمكنها أن تمنع دائماً الأكاذيب التي تضر بالغير ، ولكن لا يقوى على منع تلك التي يمكنها مساعدتى على التخلص من الحرج حين يكون الأمر متعلقاً بى وحدى ، وهى لا تقل معارضة لضميرى ومبادئ من تلك الأكاذيب التي تصنع التأثير فى مصير الآخرين •

وانى لأشهد السماء على أنه اذا كان فى استطاعتى فى اللحظة التالية للأكذوبة التي تبرئنى منها وقول الحق الذى يدننى دون أن أسبب لنفسى مهانة جديدة بتراجعى لفعلت ذلك من كل قلبى • ولكن الحجل من اظهار نفسى على هذا النحو مخطئا يجعلنى أحجم كذلك ، وانى لأندم مخلصاً جداً على خطئى دون أن أجروء مع ذلك على اصلاحه • ولعل مثلاً يفسر خيراً من ذلك ما أريد قوله ، وبين أننى لا أكذب سعياً وراء المصلحة ولا عن كبرياء بل وأدنى من ذلك عن حسد أو خبت ، ولكن عن حرج وخجل مزور فحسب ، بل وأنا أعلم تمام العلم فى بعض الاحايين أن هذا الكذب مفضوح ولا يمكن أن يجدى بالمرّة : حدث منذ حين أن دعانى السيد ف • • (١) - بخلاف ما جرت عليه عادتى - على الخروج مع زوجتى وتناول الطعام اثناء النزهة معه ومع السيد ب • • • عند السيدة • • • وهى صاحبة مطعم ، تناولت هى وابنتاها الطعام معنا • واثناء تناول الطعام خطر للكبرى ، وهى متزوجة من وقت قصير وكانت حاملاً ، أن تسألنى فجأة وهى تحديق فى ان كنت قد رزقت بأولاد • فأجبته وقد احمر وجهى حتى الجفنين أننى لم أنل هذا الحظ ، فابتسمت فى خبت وهى تتطلع الى الجماعة ، ولم يكن كل ذلك خافياً ، حتى على •

ومن الجلى قبل كل شيء أن هذه الإجابة لم تكن أبداً ما كنت أود أن تكون ولو فيما اذا كانت لدى النية عندئذ فى التضليل ، ذلك لأننى تبعاً للاستعداد الذى شهدته فى المدعوين ، كنت واثقاً تمام الثقة من أن اجابتى لم تغير شيئاً من رأيهم فى هذا الامر • لقد كانوا يتوقعون هذا النفى ، بل انهم أثاروه ليستمتعوا بلذة دفعى الى الكذب • ولم أكن من الغفلة بحيث لا أدرك ذلك • وبعد دقيقتين ، لاحظت لى من تلقائها الإجابة التي كان على أن أجيب بها وهى « هذا سؤال تعوزه الحصافة من سيدة شابة ، لرجل تقدمت به السن وهو أعزب » • وكنت يتحدثنى على هذا النحو ، بغير كذب ودون أن يكون هناك ما يدعوا الى الحجل بسبب أى اعتراف ، كنت مستطيعاً أن أضم الضاحكين الى صفى ، وألقنها درساً صغيراً كان من شأنه طبعاً أن يقلل من وقاحتها فى سؤالى • ولكننى لم أفعل شيئاً من

(١) هو السيد فولكويه Foulquier طبقاً لما جاء بطبعة Bernard Groethuysen

هذا كله ، ولم أقل أبدا ما كان يجب قوله ، بل قلت ما لم يكن ضروريا ولم يعد علي بالنفع في شيء . ومن المؤكد ، إذن انه لا عقلي ولا ارادتي أمليا علي اجابتي ، بل انها كانت النتيجة الآلية للحرج الذي كنت فيه . لم يغتورني هذا الحرج قط من قبل بل كنت اعترف بأخطائي بصراحة أكثر مما كان في ذلك لأنني لم أكن أشك في أن الناس لا يرون ما يكفر عنها وما كنت أستشعره في قرارة نفسي ، ولكن نظرة الخبث تشقيني وتبحرني: لقد ازداد حيائي بازدياد شقوتي ، ولم يحدث أن كذبت الا حياء .

لم يحدث أبدا أن أحسست بنفوري الطبيعي من الكذب أشد مما أحسست به عند كتابة « اعترافاتي » ، ذلك لأن الاغراء فيها كان من الممكن أن يتكرر ويشتد مهما أبعدتني ميولي عن هذه الناحية ، ولكن بدلا من أن أكتم شيئا أو أخفي شيئا مما قد يدينني ، كنت أحس وأنا أفكر بطريقة يشق علي شرحها - لعلها بسبب البعد عن كل محاكاة - كنت أحس أن ميل للكذب عكس الاتجاه المعتاد ، باتهام نفسي في مزيد من القسوة أشد منه بتبرئتها في مزيد من التسامح ويؤكد لي ضميري أن محاكمتي في يوم من الأيام ستكون أقل قسوة مما حكمت به علي نفسي . أجل ، انني أقول ذلك وأحسه باباء وعزة نفس ، ولقد حملت هذا المكتوب حسن نية وصدقا وصراحة بلغت فيها - في اعتقادي علي الاقل - ما بلغه ، بل أبعد مما بلغه ، أي انسان آخر علي الاطلاق (١) ، ولاحساسي بأن الخير يفوق الشر ، وجدت من مصلحتي أن أقول كل شيء ، وقد قلته .

لم يحدث أبدا أن قلت أقل مما يجب ، بل انني قلت أحيانا أكثر مما يجب ، لا في الوقائع بل في الملابسات ، وهذا النوع من الكذب كان نتيجة تخبط الحيال أكثر منه فعلا اراديا ، بل انني لأحيد عن جادة الصواب أن أسميته كذبا ، ذلك لا لأن واحدة من هذه الاضافات لم تكن كذبا . لقد كنت أكتب اعترافاتي بعد أن تقدمت بي السن (٢٥) ، وبعد أن

(١) قال روسو في مستهل « الاعترافات » : « لقد صورت نفسي على حقيقتها : في سعتها وزرايتها . وفي صلاحها وحصافة عقلها ، وسموها بما للحال التي كنت فيها . . لقد كشفت عن أعماق اغوار نفسي ، كما كنت انت تراها ، ايها الخالد الحشد الذي لا حصر له من أبناء جنسي ، ودعهم يصفون الي اعترافاتي ، فيرون لخستي ، ويخجلون لمثالي . ثم ادع كلا منهم الي أن يتكشف بدوره - ويعين الصراحة - أسرار قواده ، عند قوائم مرثك ، وليقل ان جرؤ : » لقد كنت خيرا من ذلك الرجل » .

(٢) بدأ روسو كتابة « الاعترافات » Les Confessions عام ١٧٦٥ أي كان يبلغ اذ ذاك الثالثة والخمسين .

اشمأزت نفسي من المتع الباطلة في الحياة تلك المتع التي كنت مررت بها جميعا من قبل ، والتي أحس قلبي تماما بتفاهتها . كنت أكتبها من الذاكرة ، وكثيرا ما كانت تلك الذاكرة تخونني أو لا تمدني الا بذكريات ناقصة ، فكنت أسد الثغرات بتفاصيل كنت أتخيلها بالإضافة الى تلك الذكريات ، وان لم تكن متعارضة معها أبدا . كنت أحب أن أتوسع في تناول اللحظات السعيدة في حياتي ، وكنت أجملها أحيانا بمجملات كان يزودني بها أسفى عليها . كنت أردد ما أكون قد نسيتته كما كان يبدو لي أنها لابد كانت كذلك في رأيي ، أو كما لو كان من الجائز أن يحدث في الواقع ، ولكن ليس بعكس ما كنت أتذكرها عليه أبدا . وكنت أسبغ أحيانا على الحقيقة مفاتن غريبة عليها ، ولكن لم يحدث مطلقا أن أحللت الكذب مكانها لأموه على رذائلي أو لانتحل لنفسي فضائل .

وإذا ماحدث في بعض الأحيان أن أخفيت - دون أن أفكر في الأمر بدافع غير ارادى - الناحية الشوهاء ، مصورا نفسي تصويرا جانبيا ، فإن هذا الكتمان كان يستعاض عنه تماما بكتمان آخر أشد غرابة كثيرا ما جعلني أحرص على الامساك عن ذكر الخير في عناية أشد من حرصى على كتمان الشر ، وهذه غرابة في طبعي لابد أن يغتفر للناس عدم تصديقهم ، ولو أنها - على بعدها عن التصديق الا أنني أتصورها - انني كثيرا ما قلت الشر بكل حقارته ، ونادرا ما قلت الخير بكل ما فيه من جمال ، وكثيرا ما كتمته تماما لانه كان يسبغ على شرفا زائدا ، ولأننى - اذ كنت أسجل اعترافاتي - كنت خليقا أن أبدو كمادح نفسه . لقد وصفت أيام شبابي دون أن أزهى بالحصال الحميدة التي وهب اياها قلبي، بل وبحذف الوقائع التي كانت تجعلها واضحة تماما . واني لأذكر منها الآن واقعتين حدثتا في طفولتي الباكورة مرتين بذاكرتي وأنا أكتب ولكنني أغضيت عنهما للسبب الوحيد الذى ذكرته الآن .

كنت أقضى طيلة نهار أيام الاحاد تقريبا في « باكى » Paquis لدى السيد فازى Fazy الذى كان متزوجا من اخدى عماتى ، والذي كان يمتلك هناك مصنعا للشيت الهندى . وفي يوم كنت بالمنشر في حجرة الجندرة أتطلع الى اسطوانات من حديد الزهر وكان يريقها يمتع ناظرى وقد زين لي أن أضع عليها أصابعى وأخذت أمرها فى استمتاع على صفحتها المصقولة ، حين جاء « فازى » الصغير وأدخل نفسه فى العجلة وأدارها ثمن دورة باحكام حتى لم يأخذ الا طرفي أطول اصابع يدي ، ولكن كان هذا كافيا لأن يستحق الطرفين مع بقاء الظفرين فيها ، وصرخت صرخة حادة فأرجع « فازى » العجلة للنو ولكن الاظافر بقيت بالاسطوانة ،

وانسال الدم منهمرا من أصابعى ، وأخذ « فازى » فى ذهول يصرخ « اخرج من العجلة » وأخذ يقبلنى ، ويقسم لى أنه سيهدىء من صراخى مضيقا أنه يحس نفسه مضيقا . ومع احساسى بالألم الشديد ، فإن ألمه أثر فى ، فسكت ، وذهبت الى المغسل حيث ساعدنى على غسل أصابعى ، وتجفيف دمي برغوة الصابون . ثم توسل الى والد الموع فى عينيه ألا أشير الى اتهامه بما حدث ، فوعده بذلك ، وبررت بوعدى حتى أنه بعد أكثر من عشرين عاما لم يكن هناك من يدرى شيئا عن ذلك الحادث الذى خلف ندبتين فى أصبعى ذلك لانهما ظلا دائما كذلك . ولقد ظللت رهين سريرى أكثر من ثلاثة أسابيع ، وقضيت أكثر من شهرين فى حالة لا تمكننى من استخدام يدى مرردا دائما أن كتلة ضخمة من الحجر سحقمت أصابعى حين سقطت عليها .

(1) Magnanima menzogna : or quando è il vero

Si bello, che si possa a te preporre ?

أيتها الاكذوبة الشامخة ، متى أمكن الحقيقة

مهما بلغت من جمال ، أن تفوقك ؟

ومع ذلك فقد جعلنى هذا الحادث شديد الحساسية للظرف الذى حدثت فيه ، لأنه جاء فى وقت التمرينات التى كانوا يقومون خلالها بتشغيل الأهلين ، وكنا قد كونا صفا من ثلاثة أطفال آخرين من سنى ، كان على - وأنا فرقة الزى الرسمى - أن أبشر التمرين مع الجماعة فى الحى الذى أقطنه . وقد سمعت وأنا أتالم صوت طبول الجماعة وهى تمر تحت نافذتى ومن بينهم زملائى الثلاثة فى حين أنا طريح الفراش .

وأما قصتى الأخرى . فشبيهة تماما بهذه القصة وإن دارت وقائعها فى سن متقدمة نسبيا . كنت أعب لعبة الصوالج فى بلان باليه Plain - Palais مع واحد من رفاقى يدعى « بلانس » Plince وتشاجرنا أثناء اللعب وتضاربنا فوجه الى رأسى العارية خلال المعركة ضربة

Magnanima menzogna ; Or quando è il vero

Si bello, che si possa a te preporre ;

(1)

وقد ترجمها من الإيطالية الى الفرنسية

Magnanime mensonge, quand la vérité est-elle

Si belle qu'elle puisse te surpasser ; فكانت :

وبالعربية : أيتها الاكذوبة العظيمة ، متى كانت الحقيقة من الجمال

بحيث يمكنها أن تفوقك ؟

بالصولج بلغت في احكامها أنها لو سددت من يد اشد قوة لكانت كفيلة ان تهشم رأسى . ولقد سقطت على الفور ، ولم أر فى حياتى اضطرابا كاضطراب ذلك القتيى المسكين . شهد الدم يسيل بغزارة من شعرى فخيّل اليه أنه قتلنى فاندفع نحوى يقبأنى ويضمنى اليه بقوة وهو يسكب دموعه ويصرخ صراخا حادا ، فأخذت أقبله كذلك بكل قوتى وأنا أبكى مثله فى عاطفة مضطربة لم تخل من بعض حنان ، وفى نهاية الأمر اخذ يجفف دمى الذى ظل يسيل ، ولما رأى أن منديلينا لم يعودا كافيين ، اخذنى الى امه التى كانت لها حديقة صغيرة على مقربة ، وكاد يغمى على هذه السيدة الطيبة حين رأتنى على هذه الجبال ، ولكنها استطاعت أن تمالك لتضمدنى وبعد أن غسلت جرحى جيدا وضعت عليه زهور الزنبق Lxs المنقوعة فى الكحول وهو دواء شاف للجروح يكثر استعماله فى بلادنا . ولقد نفذت دموعها ودموع ابنها الى قلبى ، وحتى ظلمت أنظر اليها وقتا طويلا كام لى ، وظلمت اعتبر ابنها أخا لى ، حتى توارى الاثنان عن ناظرى فنسيتهما شيئا فشيئا .

ولقد احتفظت بسر ذلك الحادث احتفاظى بسر الحادث الآخر ، ثم مر بى فى حياتى مائة حادث آخر من النوع نفسه لم أحاول التحدث عنها فى « اعترافى » ما دمت لم أكن أسعى فيها وراء وسيلة تجعل الناس يقدرّون الناحية الخيرة التى كنت استشعرها فى خلقى . كلا ، انى حين تحدثت مخالفا الحق الذى كنت اعرفه ، لم يكن ذلك الا فى أمور تافهة ، بل ان ذلك كان اما عن تحرج عن الكلام ، أو لمجرد الرغبة فى الكتابة أكثر منه بسبب أى دافع لمصلحة خاصة أو بسبب نفع أو ضرر الغير . وان أى شخص سيقرا اعترافى دون تحيز - لو قدر حدوث ذلك - سيحس أن الاعترافات التى سجلتها هناك أكثر اذلالا وأشق عند الادلاء بها ، من اعترافات بائس أشد وان كان أقل مجلبة للخزى ، والتى لم أذكرها لأننى لم أفعلها .

ويستخلص من كل هذه الخواطر أن اشهار الحقيقة الذى التزمته يستند الى أساس من مشاعر الاستقامة والعدالة أكثر من استناده الى حقيقة الامور ، واننى اتبعت من الناحية العملية التوجيهات الاخلاقية لضميرى أكثر من اتباعى الآراء المجردة عن الصواب والخطأ . وكثيرا ما قصصت حكايات ، ولكنى نادرا جدا ما كذبت . وبتابعى هذه المبادئ يسرت للآخرين الكثير من المآخذ على ، ولكننى لم أخطئ فى حق أحد مهما يكن ولم أنسب لنفسى البتة أكثر مما استحق . ويبدو لى أن أقول

الحقيقة هنا فقط بعد فضيلة ، وأما في النواحي الأخرى فإنها ليست بالنسبة لنا سوى كائن ميتافيزيقي لا ينجم عنه خير أو شر .

ومع ذلك فإن قلبي لا يكاد يحس بالرضى لهذه التفرقة حتى يجعلني أعتقد أنني غير ملوم تماما ، وحين أزن بهذه العناية ما أدين به للآخرين أفتراني درست دراسة كافية واجبي ازاء نفسي ؟ لئن كان من الواجب على المرء أن يكون عادلا بالنسبة للغير فإن من الواجب عليه أن يكون صادقا بالنسبة لنفسه . أن ذلك لولاء على الرجل الشريف أن يؤديه لكرامته . وحين كان يكرهني جذب حديثي على أن استكملة بتخيلات بريئة كنت مخطئا ، ذلك لأنه لا يجب أبدا - رغبة في تسلية الغير - أن يخس الإنسان نفسه . وعندما كنت أضيف إلى أمور واقعة حواشي من اختراعي - مسوقا إلى ذلك بالرغبة في الكتابة - كنت أرتكب خطأ أكثر كذلك لأن تزوين الحقيقة بالخرافات هو في الواقع تشويه لها .

ولكن ما يجعل ذنبي لا يفتقر هو ذلك الشعار الذي كنت قد اتخذته كان هذا الشعار يضطرنني أكثر من أي إنسان آخر إلى التزام الدقة في إشهار الحقيقة ولم يكن يكفي أن أضحي من أجله في كل شيء بمصلحتي وميولي ، بل كان يجب كذلك أن أضسحي من أجله بضعفي وبطبيعتي الحينة . كان لا بد من الشجاعة والقدرة لآكون صادقا دائما وفي كل مناسبة ، وألا تخرج البتة تخيلات أو خرافات من فم ومن قلم كرهسا للحق قبل كل شيء . ذلك ما كان يجب على أن أقوله لنفسي حين اتخذت هذا الشعار الرفيع ، وأن أردده باستمرار ما دمت قادرا على الأخذ به . لم يحدث قط أن أملى الخداع أكاذيبي بل إنها نجمت جميعها عن ضعف ، ولكن ليس هذا عذرا لي بالمرّة يستطيع المرء ذو النفس الضعيفة أن يجتنب الرذيلة على أكثر تقدير ، ولكنه يكون متجبرا ومتهورا إن هو جرد على أن ينادى بفضائل كبيرة .

تلك خواطر كان من المحتمل ألا تعرض لذهني لو لم يوح بها إلى الراهب « ر . . . » ، وليس من شك أن الانتفاع بها بات متأخرا ، ولكن الوقت لم يمت على الأقل لتقويم خطئي وإخضاع ارادتي للمبدأ ، ذلك لأن هذا هو كل ما يتوقف على منذ اليوم وإذا فانه في هذا وفي كل ما يشابهه من أمور يمكن تطبيق مبدأ « سولون » بالنسبة لكل الأعمار فالقرصبة قائمة دائما كي تعلم المرء - حتى من أعدائه - كيف يكون عاقلا ، صادقا ، متواضعا ، وأن يعرف على الأقل قدر نفسه .

الرحلة الخامسة

من بين الديار التي أقيمت فيها جميعا (١٦) ، وكانت لي من بينها ديار بديعة ، لم تسعدني حقا ولم تخلف لي كل ذلك الأسى سوى جزيرة سان بيير Saint-Pierre القائمة وسط بحيرة بين (٢) Bienne وهذه الجزيرة الصغيرة التي يطلقون عليها في نيوشاتل Neuchâtel جزيرة لاموت La Motte ليست معروفة حتى في سويسرا ، الا قليلا ، ولا يورد لها ذكرا واحد من الرحالة ، على ما أعلم . ومع ذلك فهي لطيفة جدا ، وتفردت بموقع كفيل باسعاد من يهوى الانطواء على نفسه الا أنه برغم أنني ربما كنت الوحيد في العالم من جعل قدره من نفسه (٣) أي من القدر (قانونا له فأنني لا أستطيع أن أصدق أنني الوحيد من ذلك النوع الطبيعي ، برغم أنني لم أجده حتى الآن لدى أي شخص آخر .

وشطآن بحيرة « بين » أكثر ميلا للقطرة والشاعرية من شواطئ بحيرة جنيف « ذلك لأن الصخور والغابات هناك أكثر قربا في مجاورتها للماء ولكنها ليست أقل بهجة . ولئن كان ما بها من زرع الحبوب وكروم ومدن ومساكن أقل ، فإنها تفوقها من ناحية الخضرة الطبيعية والمراعي ، وكنيف الايك تظللها الخماثل ، والتباين الغالب بها والتنوءات المتقاربة . ولما لم يكن هناك على تلك الضفاف الباسمة من طرق كبيرة معبدة للعربات فان الاقليم لم يكن يؤمه المسافرون كثيرا ، وان كان يروق للبتاملين

(١) من الديار البديعة التي خلفت الذاكرة الطيبة في نفس روسو اقامته وهو طفل في قرية بوسى Bossey بالقرب من القس ليرسييه Lambercier وفي الشارميت Les Charmettes عند مدام دوفواران وفي ارميتاج Ermitage في ضيافة مدام دابنای Mme d'Epinay ، ويلاحظ ان تلك الديار جميعا كانت تحيط بها المناظر الطبيعية التي أجها روسو دون سواها .

(٢) استقر روسو في جزيرة سان بيير في النصف الثاني من سبتمبر ١٧٦٥ وعاش هناك حتى ٢٥ من أكتوبر من العام نفسه (الاعترافات الجزء الثاني مشر) ، حين امر بمفاداة مكانه بناء على أمر مجلس شيوخ « برن Berne »

المنعزلين الذين يرغبون فى أن ينتشروا كما يشاءون بمفاتيح الطبيعة ، وأن ينظروا على أنفسهم فى سكون لا يتخلله أى صوت سوى صرخات العقبان وشقشقة متقطعة لبعض الطيور ، وهدير السيول التى تنحدر من الجبل . ويضم هذا الحوض الجميل ذو الشكل الدائرى تقريبا جزيرتين صغيرتين فى وسطه ، احدهما مأهولة ومزروعة محيطها نصف فرسخ تقريبا ، والأخرى تصغرها ، وهى قفراء قاحلة وسيبقى عليها فى نهاية الأمر بسبب ماينقل من أرضها تباعا لاصلاح ما تفسده الأمواج والعواصف البحرية فى الجزيرة الكبرى . وهكذا تستغل دائما مقومات حياة الضعيف لصلحة القوى .

ليس فى الجزيرة سوى منزل واحد ، ولكنه كبير ، ولطيف ، ومريح ، وهو ملك لمستشفى برن Berne كالجزيرة كذلك ، ويقيم فيه محصل مع أسرته وخدمه ، ويتولى هناك تربية عدد كبير من الدواجن ، كما أن هناك حظيرة للدواجن وأحواض للسماك ، والجزيرة على صغرها ، بلغت من التنوع فى أراضيها ومشاهدها ما جعلها تعرض للرأى اكل أنواع المواقع وتحتل كل ألوان المزروعات : فيها حقول وكروم وغيابات وبساتين ومراع كثيفة تظللها الاعراش وتحفها الشجيرات من كل نوع ، ويكفل نضارتها مجاورتها للماء ، ويحف بطول الجزيرة شريط مرتفع من الأرض زرع به صفان من الاشجار ، وشيد فى وسطه بهو جميل يجتمع سكان الشواطىء المجاورة فيه حيث يأتون أيام الاحاد فى موسم قطاف الكروم .

كانت هذه الجزيرة هى المكان الذى لجأت اليه بعد رجم موتيه Motiers (١) وقد وجدت الإقامة فيها رائعة وعشت هناك حياة تتفق ومزاجى ، حتى أننى وقد عزمتم على أن تنتهى حياتى بها ، لم يساورنى أى قلق اللهم الا احتمال عدم تمكينى من تنفيذ هذا المشروع الذى لم يكن ليتفق ومشروع اجتذابى الى انجلترا ، الذى كنت قد بدأت أحس بوادزه . وفيما كان يعتورنى من أحاسيس تقلقنى ، وددت لو أنه جعل من ذلك المأوى سجنأ أبديا لى ووددت لو أننى احتبست فيه طيلة حياتى ولو أنه بسلبى كل قدرة وكل أمل فى الفكاك منه حرمت على كل أنواع الاتصال بالأرض حتى اننى - بجهلى كل ما يجرى فى العالم - كنت أستطيع أن أنسى وجوده كما يستطيعون من به أن ينسوا وجودى كذلك .

(١) اعتبر أهل « موتيه Motiers » روسو خارجا على الديانة لما جاء فى « اقرار ايمان كاهن من سفوا Profession de foi du Ciccire Savoyard فرجموا منزله بالحجارة . ويقول بعض الكتاب ان ذلك كان بشحريض من توين Thérèse لأنها لم تكن تريد الإقامة هناك .

انهم لم يدعوني قط أقضى سوى شهرين فى تلك الجزيرة ، وكنت خليقا أن أقضى بها عامين بل قرنين ، بل والى الأبد ، دون أن ينال منى المسامحة لحظة واحدة ، برغم أنه لم يكن لى فيها مع صاحبتى من رفقة أخرى سوى رفقة المحصل وزوجه وخدمه الذين لم يكونوا جميعا - فى الحقيقة - سوى قوم طبيين . ولكن كان هذا بالضبط ما أنا بحاجة اليه . اننى أعد هذين الشهرين أسعد وقت مر بى فى حياتى ، بل بلغت فيه درجة من السعادة كانت تكفينى طوال عمرى دون أن تولد فى نفسى ولو للحظة واحدة الرغبة فى حال أخرى .

أنى كانت اذن هذه السعادة ؟ وفيم كانت متعتها ؟ سادع من يعيشون فى هذا القرن يخمنون وصف الحياة التى كنت أحيها هناك . كان الفراغ الناعم far niente أول وأهم هذه المتع التى وددت التلذذ بتذوقها بكل ما فيها من حلاوة فلم يكن فى الواقع كل ما فعلته طيلة اقامتى سوى ذلك الانهماك اللذيذ الذى يلزم رجلا كرس نفسه للبطالة .

كان الأمل فى ألا يطلب أكثر من أن أترك فى هذا المقام المنعزل حيث قيدت نفسى بنفسى ، والذى كان من المستحيل الخروج منه دون عون وبغير أن ينتبه الى ، وحيث لم أكن أستطيع أن يكون لى اتصال أو مراسلة الا بمساعدة من كانوا يحيطون بى أقول ان هذا الأمل كان يبعث فى أملأ آخر هو قضاء أيامى فى هدوء أكثر من ذى قبل . وكانت فكرة أنه كان أمامى متسع من الوقت لتدبير كل أمورى عندما يطيب لى ذلك ، قد جعلتنى لا أبدا فى القيام بعمل أى ترتيب . ولما كنت قد نقلت الى هناك فجأة ، وحيدا ومجردا ، فقد أحضرت تبعا مدبرة بيتى وكتبى وأمتعتى القليلة التى وجدت لذة فى عدم فتحها تاركا حقائبى وصناديقى ، على حالها حين وصولها ، ومقيما بالمسكن الذى عولت على قضاء آخر أيامى به كما لو كنت أعيش فى فندق يتعين على مغادرته فى الغد . وظلت الأشياء جميعا وهى على ما هى عليه ، فى حالة طيبة حتى أن الرغبة فى ترتيبها خيرا من ذلك كانت بمثابة افساد جانب منها . وكان من أكبر المتع لدى أن أدع كتبى دائما محفوظة فى الصناديق وألا تكون لدى محبرة على الإطلاق . وحين كانت تضطرنى خطابات منكودة الى تناول القلم للرد عليها كنت أستعير - وأنا ضجر - محبرة المحصل وكنت أسارع بردها اليه بأمل عقيم فى ألا تدفعنى الحاجة الى استعارتها فيما بعد . وقد شغلت حجرتى بدلا من تلك الاوراق الكثيرة وكل هذه الكتب القديمة بالزهور والنباتات ذلك لأننى كنت اذ ذاك فى بداية شغفى بدراسة النبات التى

بث الميل اليهنا في نفسى الدكتور ديڤرنوا D'Ivernois (١) حتى غدا هذا الميل شغفا . ولما كنت لا أرغب فى القيام بعمل جاد فانه كان يلزمنى عمل مسهل يروقنى ولا يسبب لى جهدا أكثر مما يرتضيه كسول لنفسه . وشرعت فى تصنيف أزهار الجزيرة الصخرية *Flora petrinsularis* (٢) وفى وصف كل نباتات الجزيرة دون اغفال واحد منها وذلك بتفصيل يكفى ليشغلنى بقية أيام حياتى . ويقال ان ألمانيا ألقت كتابا عن قشرة ليمونة ، وكان فى استطاعتى تأليف واحد عن كل بقل من بقول المراعى وعن كل طحلب من طحالب الغابات وعن كل حزاز يمكن أن يوشى الصخور ، وقصارى القول اننى لم أكن أريد أن أترك خيطا من العشب أو ذرة من النبات دون أن أتناولها بالوصف الشامل ، وتشميع هذا المشروع البديع كنت أذهب كل صباح ، بعد الافطار الذى كنا نتناوله مجتمعين ، كنت أذهب وبىدى عدسة وأنا متأبط كتابى «نظام التقسيم الطبيعى للنباتات» *Systema naturae* (٣) كى أزور ناحية من الجزيرة التى كنت قد قسمتها لهذا الغرض الى مربعات صغيرة مستهدفا التجول فيها الواحد بعد الآخر فى كل فصل . وليس هناك أغرب من تلك المفاتن والنشوات التى كنت أستشعرها عند كل ملاحظة أقوم بها فيما يتصل بالتركيب والتنظيم النباتى وفيما يتصل بدور الاعضاء الجنسية فى التلقيح الذى كان نظامه اذ ذاك جديدا تماما بالنسبة الى ، وكانت التفرقة بين المميزات النوعية التى لم يكن لدى من قبل أدنى فكرة عنها تستحوذ على مشاعرى عند تطبيقها على الانواع الشائعة وأنا أتوقع بأن تعرض لى أنواع أكثر ندرة .

وكان الشق الموجود فى نصلى Brunelle القلاع البرى الطويلين وبروز نصال Ortie السميع (القريص . ابرة العجوز) وحشيشة الزجاج Pariétaire (حشيشة الرمل) وتفتح ثمرة البهاء البلسمية (النعناع الرومى) Balsamine وجوزة البقس والف حيلة للتلقيح كنت ألحظها لأول مرة فتفعمنى سرورا . وكنت أذهب لاتساءل ان كان الناس قد شهدوا القلاع البرى Brunelle كما كان يسألهم «لافونتين»

(١) ديڤرنوا D'Ivernois جان انتوان (١٧٠٢ - ١٧٦٥) هو طبيب كان أول من

تلقى روسو على يديه الميل الى دراسة النبات .

(٢) عمل روسو تصنيفا للأزهار التى تنبت فوق الصخور فى الجزيرة .

(٣) كتاب نظام التقسيم الطبيعى للنباتات *Systmea naturae* هو من تأليف عالم

النبات السويدي لينيه Linné (١٧٠٧ - ١٧٧٨) نشر الكتاب عام ١٧٣٥ ،

وكان روسو معجبا به .

وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات كنت أعود من هناك محملا بمحصول وفير هو زادى من التسلية بعد الغداء بالمنزل فيما لو أمطرت السماء . وكنت أقضى بقية فترة الصباح فى الذهاب مع المحصل وزوجه ومعنا تيريز ، لزيارة عمالهما ومحصولاتهما وكثيرا ما كنت اسهم فى العمل معهم بل وكثيرا ما وجدنى بعض أهالى « برن » الذين كانوا يأتون لرؤيتى معتليا أشجارا كبيرة وقد شد الى وسطى كيس كنت أملؤه بالفاكهة ثم أدليه الى الأرض بعد ذلك بواسطة حبل . وكان العمل الذى أقوم به فى الصباح ، والانشراح الذى يصحبه ، يجعلان الاستراحة عقب الغداء ممتعة جدا . ولكن حين كان الأمر يطول كثيرا بسبب اغراء الجو الجميل لم أكن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، وبينما كانوا لا يزالون جلوسا الى المائدة كنت أنسلل وحدى لألقى بنفسى فى قارب أفوده الى وسط البحيرة ، حين يكون الماء ساكنا ، وهناك ، وأنا مستلق بجسمى كله فى القارب وعينائى متجهتان الى السماء ، كنت أدع نفسى أروح وأجىء مع التيار وفق هواء ، وكان ذلك يمتد أحيانا لساعات كثيرة أظل خلالها مستغرقا فى ألف حلم من أحلام اليقظة المبهمة ، الممتعة مع ذلك ، التى كانت فى رأى أفضل مائة مرة من كل ما لقيته من أحلى المتع فيما يطلقون عليه مباحج الحياة وان لم يكن لها موضوع محدد أو ثابت . وكثيرا ما نبهنى غروب الشمس أن قد آذن وقت عودتى فأراني وقد بعدت كثيرا عن الجزيرة مضطرا الى أن أسعى جاهدا للوصول قبل أن يرخى الليل سدوله . وكنت فى مرات أخرى أجد لذة فى محاذاة شطآن الجزيرة الخضراء التى كثيرا ما أغرتنى مياهها الصافية وظلها الرطيب بالاستحمام فيها ، وذلك بدلا من أن أوغل فى وسط الماء . ولكن أكثر تنقلاتى البحرية حدوثا كانت الذهاب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الصغرى ، فأرسو هناك وأقضى بها فترة ما بعد الغداء طورا فى جولات محدودة جدا خلال أشجار الصفصاف والخوخ والفرزخ (نوع من الخوخ) وخلال الشجيرات من كافة الأنواع ، وتارة جالسا فوق قمة كثيب رملى تغطيه الحشائش (النجيل) والنبات والزهور بل وجلبان الحية (السلة) والبرسيم التى يبدو أنها كانت قد بذرت عليه من قبل وهى متناسبة تماما لاقامة الارانب

(١) يخطئ روسو فيذكر حبقوق Habacuc وهو نبى له سفر في العهد القديم ، بدلا من باروش Baruch الذى كان لافونتين La Fontaine قد قرأ سفره لا فأنجبه وظل بعد ذلك يسأل كل من يصادفه اذا كان قد قرأ ذلك . وهى نكتة أدبية .

التي كان يمكنها أن تتكاثر هناك فى أماكن دون أن تخشى شيئا ودون أن تسبب ضرا لشيء . وقد أبديت هذه الفكرة للمحصل الذى طلب أن تستحضر من نيوشاتل أرناب ذكورا وأنانا . وقد توجهنا فى مظاهرة كبيرة : زوجته وإحدى أخواته وأنا لنضعها فى الجزيرة الصغيرة حيث بدأت تعمرها قبل رحيلي وحيث كان من الممكن أن تتكاثر بغير شك لو انها استطاعت احتمال قسوة الشتاء . ولقد كان تأسيس تلك المستعمرة الصغيرة عسدا . ولم يكن قبطان الارجننوت (١) Argonauts بأكثر منى فخرا وأنا أقود منتصرا الجماعة والأرناب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الصغرى . وكنت ألحظ فى خيلاء أن زوجة المحصل التى كانت تخشى الماء الى أبعد حد وتحس بتأثير دواره عليها دائما ، قد أبحرت تحت قيادتي فى ثقة ، ولم تظهر أى خوف أثناء الرحلة . أما حين كان يضطرب ماء البحيرة بحيث لايسمح لى بالملاحظة، فأننى كنت أقضى فترة مابعد الظهيرة فى التجول بالجزيرة ألتقط الاعشاب من يمين ومن شمال جالسا طورا فى النواحي الأكثر بهجة المعنة فى العزلة لأطلق فيها أحلامي كما يحلو لى ، وتارة فوق القلاع والقمم لأجول بعينى فى المناظر الرائعة الخلابة للبحيرة وشطآنها التى تتوجهها من ناحية الجبال القريبة والتى تتفرج من ناحية أخرى على سهول غنية خصبة ، يستطيع البصر أن ينطلق خلالها حتى الجبال البعيدة التى تحدها والتى يميل لونها الى الزرقة .

وحين يقترب المساء كنت أهبط من فنن مرتفعات الجزيرة ، وأذهب راضيا للجلوس على حافة البحيرة ، على الحصى ، فى أى ملاذ خبيء ، وهناك كان هدير الأمواج واضطراب الماء وهما يهدئان من ثائرة حواسي ويطردان من نفسى أى اضطراب آخر ، يغرقانها فى حلم لذيذ ، كثيرا ماكان الليل يدهمنى خلاله دون أن أنتبه الى ذلك . وكان مد الماء وجزره ، وخريره المتصل ، الذى كان يعلو فى فترات متقطعة ، ويصك مسمعى ويبهير عيني دون توقف ويزيدان من الانفعالات الداخلية التى كان من دأب حلم اليقظة أن يخمدها فى نفسى ، ويكفيان لاشعاري بلذة وجودى دون أن أحس عناء التفكير . وكان يومض من آن لآخر خاطر باهت خاطف حول عدم استقرار أمور هذا العالم الذى كان سطح الماء يعكس صورته لى . ولكن سرعان ما كانت تتلاشى تلك الانطباعات الخفيفة فى الحركة الرتيبة المتصلة التى كانت تهدهدنى ، والتى كانت دون أن تتجاوب معها روحى

(١) الارجنوت Les Argonautes من أبطال الاساطير اليونانية الذين يزعم أنهم كانوا اخصيين من الابطال تحت قيادة جازون Jason خرجوا في غزوة وعادوا منها منتعبرين

- تقيدنى اليها لدرجة أنه حين كانت تدعونى الساعة والعلامة المتفق عليها لا أستطيع أن أنتزع نفسى من هناك دون مشقة .

أما بعد العشاء ، وحين تكون الأمسية جميلة فكنا نذهب كلنا سويا لنقوم بجولة على المرتفع كى نستنشق هواء البحيرة والنسيم العليل ، وكنا نستريح فى الفضاء ، ونضحك ، ونحدث ، ونغنى أغنية قديمة تفوق الأغاني الحديثة المعقدة ثم نذهب أخيرا لننام ، راضين عن يومنا ، لانرغب الا فى أن يصبح الغد على غرابه .

وعلى هذا المنوال ، بغض النظر عن الزيارات المفاجئة الثقيلة ، قضيت وقتى فى هذه الجزيرة خلال اقامتى بها . والآن فليقل لى الناس ما فى ذلك من أشياء جذابة تثير فى قلبى تلك الحسرات العميقة الرقيقة المقيمة ، حتى أننى بعد خمسة عشر عاما ، لا يزال من المستحيل أن أفكر فى تلك الدار الحبيبة دون أن أستشعر كل مرة أننى انتقلت اليها مرة أخرى على أجنحة الرغبة .

وقد لاحظت خلال مراحل حياة طويلة أن الفترات التى تزخر بأحلى ما فى الحياة من متع وأبلغ ما فيها من مسرات ليست مع ذلك هى التى تجذبنى ذكرها وتؤثر فى نفسى أبلغ الأثر .

فهذه اللحظات القصار من الهذيان والانفعال بكل ما فيها من قوة ليست مع ذلك ، وبهذه القوة نفسها ، سوى نقط تنتشر جليلة على خط الحياة . انها لشديدة الندرة والسرعة بحيث لا تستطيع أن تنشئ حالة ما ، أما السعادة التى يأسى عليها قلبى فليس قوامها مطلقا لحظات عابرة وانما هى حالة بسيطة ودائمة ليس لها فى ذاتها أية حيوية ولكن استمرارها يزيد فى سحرها حتى لأجد فيها فى نهاية الامر السعادة العظمى .

لكل شئ فى هذه الدنيا دورته ، وليس بها من شئ يحتفظ بصورة مستمرة ثابتة . ان مشاعرنا المتعلقة بالأمور الخارجية لا بد وأن تنقضى وتتغير مثلها - وهى قائمة دائما - من أمامنا ومن ورائنا تذكرنا بالماضى الذى انقضى أو تنبئنا بالمستقبل الذى ليست هناك غالبا من ضرورة لوجوده ، فليس بها من ثبات يستطيع قلب المرء أن يتعلق به ، وليس لنا فى هذه الحياة ، على ذلك ، سوى لذة تنقضى أما السعادة التى تدوم فأننى أشك فى أن تكون معروفة فيها ، ولا تكاد توجد - ونحن فى أوج متعتنا - لحظة يستطيع القلب أن يقول لنا بحق « وددت لو أن هذه اللحظة ظلت أبدا ! »

وكيف يستطيع المرء أن يسمى سعادة ، حالة عابرة تخلقنا والقلب لا يزال قلقلًا فارغًا ، فتجعلنا نتحسر على شيء انقضى أو نظل نشتهي هذا الشيء فيما بعد .

ولكن ان كانت هناك حالة تجد النفس معها مستقرا وطيدا تستطيع أن تركز عليه بكليتها وتجمع فيه شتات كيائها دون أن تحس بحاجة لتذكر الماضي أو تقفز نحو المستقبل حيث لا يكون للزمن بالنسبة لها أى اعتبار وحيث يظل الحاضر قائما دون أن نلاحظ مع ذلك استمراره أو أى أثر لاتباعه ودون أن نستشعر مع ذلك ، حرمانا أو استمتاعا ، لذة أو ألما ، رغبة أو رهبة ، اللهم إلا الاحساس بوجودنا وبأن هذا الاحساس وحده يستطيع أن يملأ هذا الوجود كله . وما دامت تلك الحال قائمة فان صاحبها يستطيع أن يسمى نفسه سعيدا : لا سعادة منقوصة ضئيلة ونسبية كذلك التى تصحب مباحج الحياة ، ولكن سعادة كافية مكتملة مطلقة لا تترك أى فراغ فى النفس يمكن أن تحس حاجتها الى ملئه . تلك هى الحال التى كثيرا ما وجدتني عليها فى جزيرة سان بيير خلال أحلام عزلتى سواء كنت مستلقيا فى قاربى الذى كنت أدعه يسير وفق هوى التيار أو جالسا على ضفاف البحيرة المضطربة ، وسواء اكنت فى مكان آخر على حافة نهر جميل أو جدول يهدر على الحصباء .

بم يستمتع المرء فى مثل تلك الحال ؟ بلا شيء خارج ذاته وبلا شيء اللهم إلا ذاته وكيانه الشخصى وما دامت تلك الحال قائمة فان المرء يكتفى بنفسه شأنه فى هذا شأن الله . ان الاحساس بالموجود مجردا من كل عاطفة أخرى هو فى حد ذاته احتساس قيم بالقناعة والسلام يكفى وحده ليجعل من هذا الوجود شيئا محببا حلوا يستطيع عن طريقه أن ينأى بنفسه عن كل المشاعر الحسية الدنيا التى لا تفتأ تلهينا عنه وتفسد علينا حلاوته . ولكن أغلب الناس الذين تستثيرهم شهوات مستمرة لا يدركون تلك الحال الا قليلا ، وما داموا لم يتذوقوها الا جزئيا فى لحظات قليلة فانهم لا يحتفظون منها سوى بفكرة غامضة مضطربة المعالم لا تدعهم يحسنون سحرها . بل انه قد لا يكون من الخير فى شيء - والامور على ما هى عليه - أن ينفروا بتلهفهم على تلك النشوة الحلوة ، من الحياة العاملة التى تملئ واجبهم نحوها ضروراتها المتجددة دائما . ولكن امرا سييء الطالب أقصى من المجتمع ولا يسهه أن يقدم هنا على أمر فيه نفع أو خير للآخرين أو لنفسه ، يستطيع أن يجد فى مثل هذه الحال تعويضا عما يستمتع به الناس ، مما لا يمكن القدر والبشر أن يسلبوه اياه .

والحق أن ذلك التعويض لا تستطيع أن تحس به كل النفوس أو بتوافر في كل الاحوال فمن الضروري أن يكون القلب في سلام وألا تعكر صفو هدوئه أية عاطفة ، ومن الضروري أن يكون هناك استعداد لدى الشخص الذي يحس به وهو استعداد ضروري كذلك عندما تتزاحم الأمور من حوله . ولا يستلزم ذلك راحة مطلقة أو اضطراباً زائداً . ولكن حركة رتيبة معتدلة لا تكتنفها هزات أو فترات ركود . ان الحياة ليست سوى سبات ان خلت من الحركة . أما ان تفلوتت الحركة أو اشتدت فانها توقظ ، وهي حين تنبهنا الى الأمور من حولنا تهدم سحر الحلم وتنتزعنا من صميم أنفسنا لتضعنا فوراً تحت وطأة القدر والبشر وتسلمنا الى الاحساس بشقوتنا . ان السكون المطلق يسلم للحزن . انه يعرض صورة الموت . واذن فعون الخيال الباسم أمر ضروري وهو يعرض بصورة طبيعية لأولئك الذين تنعم عليهم السماء به . ان الحركة التي لا تأتي من الخارج تعمل اذن في داخل نفوسنا . حقا ان الراحة أقل ، ولكنها كذلك ، أشد امتاعاً حين تلامس - كما يقال - خواطر خفيفة حلوة صفحة النفس دون أن تثير أعماقها . ولا يلزم منها الا ما يكفي ليتذكر الانسان نفسه متناسياً آلامه ، جميعاً ، وهذا النوع من الاحلام يستطاع تذوقه حيثما يمكن أن يكون المرء هائلاً وطالما فكرت في أنني في « الباستيل » بل وفي « زنزانة » لا ترى عيني فيها شيئاً ، كان يمكنني مع ذلك أن أستغرق في أحلام جميلة .

ولكن يجب أن أعترف بأن هذا كان يحدث على صورة خير من هذه وأفضل في جزيرة خصبة منعزلة لها حدودها الطبيعية ومنفصلة عن بقية العالم حيث لا تعرض لي الا صور ضاحكة ، وحيث لا شيء يجعلني أستعيد ذكريات محزنة ، وحيث كان المجتمع المكون من عدد قليل من السكان متألفاً طيباً دون أن يكون ذا شأن لدرجة يجعلني أشغل باستمرار ، وحيث كان يمكنني أخيراً أن أستسلم طيلة اليوم دون ما عقبة أو شاغل لأعمال تتفق ومزاجي ، أو الى فراغ مترف . لقد كانت الفرصة مواتية من غير شك لحالم ، عرف كيف يتزود بأوهام حلوة وسط أشياء أشد تنفيراً فاستطاع أن يرتوي منها كما يحلو له وذلك باستجماعه كل ما أثر على حواسه فعلاً . وكنت بعد أن أخرج من حلم طويل جميل وأشهد نفسي محاطاً بالخضرة والزهور والطيور سارحاً بنظري بعيداً في الشيطان الخيالية التي تحف امتداد المياه الشاسعة الصافية المتلألئة كنت أغذى خيالاتي بكل تلك الأشياء المحببة . حين أراني في نهاية الامر أرجع تدريجياً الى نفسي والى ما يحيط بي لم أكن أستطيع أن أميز الحد الفاصل

بين الخيال والحقيقة ما دامت تسهم جميعا كذلك فى أن ترفع من قيمة الحياة الانطوائية المنعزلة التى كنت أحيها خلال تلك الإقامة الجميلة ألا ليته تبعث من جديد ! ألا ليتنى أستطيع أن أقضى آخر أيامى فى تلك الجزيرة الحبيبة دون أن أبرحها أبدا أو دون أن أشهد بها البتة إيا هن سكان القارة يستطيع أن يعيد الى ذكرى الكوارث من كل نوع التى طالما راق لهم أن يهيئوها على منذ أعوام كثيرة ! اننى بذلك سرعان ما كنت أنساهم الى الأبد ، ولكن ليس من شك فى أنهم ما كانوا لينسوننى . ولكن ماذا كان يهمنى ما داموا لن يجدوا سبيلا لاقلاق راحتى ؟ اننى وقد تخلصت من كل شهوات الدنيا التى هى وليدة صخب الحياة الاجتماعية سوف تتسامى روحى مزارا متخفية ذلك الجو وتتصل سلفا بالادراك العلوى الذى تأمل فى الاستزادة منه فى مدى قصير . واننى لأعلم أن الناس سوف يحولون دون أن أستمع بمثل هذا الملاذ الهنىء الذى لم يشاءوا أن يدعونى فيه . ولكنهم لن يمنعونى على الأقل من أن أنتقل اليه يوميا على أجنحة الخيال ، ومن أن أتذوق فيه مدى بضع ساعات نفس اللذة كما لو كنت لا أزال أقيم به . وان أمتع ما كنت أفعله هناك هو أن أحلم كما يروق لى . أو لست أفعل نفس الشيء حين أحلم بأننى هناك ؟ بلى اننى أفعل أكثر من ذلك . اننى حين يجذبنى حلم معنوى يسير على وتيرة واحدة أردف له صورا رائعة تبعث فيه الحياة ، وغالبا ما كانت موضوعاتها تنقلت من حواسى أثناء انتشائى . أما الآن فكلما ازداد حلم يقظتى عمقا . صورها لى بجزيرة أكثر ، واننى غالبا ما أحس بنفسى محوطا بها مستمتعا بلذة أكبر مما عليه عندما كنت هناك فى الواقع ، والمؤسف فى الأمر أنه كلما فتر الخيال كان ذلك يتأتى فى جهد أشد ولا يستغرق طويلا . وأأسفاه ! ان المرء ليشعر أنه أكثر ما يكون رزوحا بجسده حين يشرع فى التجرد منه !

الجملة السادسة

ليست هناك أية حركة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا فى قلبنا
إذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بحثا عن ذلك التعليل .

بالأمس أثناء مرورى بالطريق الجديد ذاهبا للاستعشاب على ضفة
« البييفر » Bièvre فى ناحية جنتيى Gentilly أنعطف يمينا مقتربا
من سور دانفير d'Enfer وعندما توغلت مبعدا فى الحقول توجهت عن طريق
« فونتينبلو » Fontainebleau كى أصل الى المرتفعات التى تجاور ذلك
النهر . ولم يكن ذلك المسير ليعنى شيئا بالمرة فى حد ذاته ، ولكن حين
تذكرت أننى قمت بنفس الدورة تلقائيا مرارا من قبل فقد بحثت عن
الدافع عن ذلك فى نفسى ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك بعد
أن تبينته .

فى ركن من الطريق ، عند مخرج سور دانفير D'Enfer تقف
يوميما فى فصل الصيف امرأة تبيع الاعشاب الطبية tisane
وأرغفة الخبز الممتاز ولهذه المرأة ولد صغير لطيف جدا لكنه أعرج يروح
يلتمس الاحسان من المارة بشيء من الظرف وهو يتعارج على مكازيه .
وكان لى بهذا الغلام الصغير بعض المعرفة . ولم يكن يفوته كلما مرت به
أن يتقدم ليحيينى تحيته البسيطة التى كانت تتلوها دائما هبتى الصغيرة
وقد سرتنى رؤيته فى المرات الأولى فكنت أمنحه بارتياح كبير ، وظللت
أفعل ذلك بعض الوقت بنفس السرور بل فان يلد لى الى جانب ذلك فى
أغلب الأحيان أن أدفعه الى ثرثرته الصغيرة التى كانت تروقنى .

وقد تحولت - ولست أدرى كيف تحولت - هذه المتعة التى بغدت
عادة بالتدرج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه ،
وخاصة بسبب تلك الخطبة الافتتاحية التى كان لابد من الاستماع إليها ،
والتي لم يكن يفوته أبدا أن يدعونى فيها بالسيد روسو ليظهر أنه كان
يعرفنى معرفة كافية ، مما كان يجعلنى على العكس من ذلك أدرك أنه لم
يكن يعرفنى أكثر ممن لفتوه ذلك . ومنذ ذلك الحين كنت أمر من هناك

أقل رغبة ، وأخيرا اعتدت تلقائيا أن أنعطف فى أغلب الاحايين حين كنت أقرب من ذلك الحاجز . ذلك ما اكتشفته وأنا أمعن الفكر فيه لأنه لم يكن قد عرض لذهنى بوضوح شئ من هذا كله حتى ذلك الوقت . وقد ذكرتني تلك الملاحظة على التوالي بكثيرات أخر أيدت لى تماما أن الدوافع الحقيقية الأولى لمعظم تصرفاتى لم تكن كذلك واضحة بالنسبة لى كما تصورتها طويلا . اننى أعرف وأدرك أن عمل الخير هو أقصى مراحل السعادة الحققة التى يستطيع أن يتذوقها القلب البشرى . ولكن مر دهر طويل منذ أن بوعد بين تلك السعادة وبينى ، ولا يستطيع من له مثل حظى المنكود أن يأمل فى أن يفيد مختارا موقفا من عمل واحد طيب حقا . ومادام قصارى جهد أولئك الذين يرسمون خطوط قدرى ألا يكون لى الا المظهر الباطل الخداع فإن حافظا الى الفضيلة لم يكن مطلقا سوى خدعة تقدم لى لاجتذابى نحو فتح يراد اطباقه على . اننى أدرك ذلك ، اننى أدرك أن الخير الوحيد الذى هو فى مقدورى منذ الآن هو أن أمتنع عن العمل خشية أن أسىء دون قصد ودون دراية .

ولكن كانت هناك فترات أكثر سعادة كنت أستطيع خلالها أحيانا - مستجيبا الى خلجات قلبى - أن أدخل السرور الى قلب آخر ، وانى لأدين لنفسى بالشهادة المشرفة وهى أنه فى كل مرة استطعت أن أتذوق هذه المتعة وجدتها أعذب من أى متعة أخرى . كان هذا الميل قويا وصادقا وطاهرا ، ولم يحدث البتة أن نقصه شئ فى أعماق كوامن نفسى ، ومع ذلك فغالبا ما أحسست بثقل أعمالى الخيرة بسبب سلسلة الواجبات التى كانت تستتبعها ، ومن ثم فقد اختفت المتعة ولم أجد فى استمرار الرعاية نفسها - التى كانت تفتننى فى أول الأمر - سوى ضيق يكاد يكون غير محتمل . كان كثير من الناس يلجأون الى خلال أيام رخائى القصيرة ، ولم يحدث أبدا فى كل الخدمات التى استطعت أداءها لهم أن صددت أيا منهم ولكن على أثر تلك الحسنات التى كنت أسديها بائشراح كانت تنشأ سلسلة التزامات متتابعة لم أكن أتوقعها ولم أعد أستطيع التخلص من نيرها . لم تكن خدماتى الأولى فى نظر أولئك الذين كانت تسدى اليهم سوى عربون لما يجب أن يتلوها من خدمات ، وما ان كان يتسلط على يائس ما من أجل معروف أسدى اليه حتى ينتهى أمره عندئذ ، وتصبح هذه الحسنة الأولى - الخالصة الصادرة عن طوعية - حقا مطلقا لكل من يحتمل أن يحس الحاجة اليها فيما بعد دون أن يكفى لاعفائى منه ، حتى عدم القدرة على أدائه . وهكذا كانت متع بالغة الروعة تستحيل بالنسبة الى الى استعباد فادح فيما بعد .

ومع ذلك فلم تبد لى تلك القيسود ثقيلة جدا ، فطالما كان الناس يجهلوننى كنت أعيش مغمورا ، ولكن ما أن أعلنت كتاباتى عن شخصى - وهو خطأ خطير ما فى ذلك من شك ، ولو أن رزاياى قد كفرت عنه وأكثر - حتى أصبحت منذ ذلك الوقت المكتب العام الذى يرأسه المعوزون ، أو من يزعمون أنهم كذلك ، والمغامرون الذين يبحثون عن مفقلين ، وكل من يرغبون فى فرض سلطانهم على بوسيلة أو بأخرى تحت ستار الثقة الكبيرة التى كانوا يتظاهرون بأنهم يولوننى اياها . اذ ذاك أمكنتنى أن أدرك أن كل ميول الطبيعة - دون أن يستثنى منها عمل الخير نفسه - وسواء انطوت عليها جوانح أصحابها أو هم أتبعوها فى المجتمع دون حذر . وكما اتفق ، فانها تتغير فى طبيعتها . بل غالبا ما تصبح ضارة بقدر ما كانت نافعة فى وجهتها الأولى ، كم من تجارب قاسية غيرت شيئا فشيئا من استعداداتى الاولى ، أو بالأحرى ، علمتنى وهى تحتجزها فى نهاية الامر داخل حدودها الحقيقية ، أن أتبع - بعدم تبصر أقل - ميلى لعمل الخير حين لا يكون من شأنه سوى اذكاء روح الشر عند الآخرين . ولكننى لا آسف مطلقا على تلك التجارب نفسها ما دامت قد زودتنى عن طريق التفكير ، بأضواء جديدة من أجل معرفتى بذاتى وبالذوايق الحقيقية لسلوكى فى ألف من الملابس التى كثيرا ما خدعت فيها . ولقد وجدت أنه - لكنى أستمتع بأسداء الخير - كان يلزمنى التصرف بحرية دون اكراه ، وأنه ، لكى أسلب كل لذة من وراء عمل طيب كان يكفى أن يصبح هذا العمل التزاما ، ومن ثم كان ثقل الالتزام يغلب أحلى المتع عبثا . وكما قلت فى كتاب ال « اميل » Emile (1) على ما أعتقد ، أننى كان من الممكن أن أعد لدى الأتراك زوجا فاشلا حين يدعوهم « المنادى » الى أن يؤدوا واجباتهم كأزواج .

ذلك هو ما يعادل كثيرا الراى الذى كونه منذ زمن بعيد عن فضائلى الشخصية لأنه لينس من الفضيلة فى شيء أن ينساق المرء وراء ميوله ، وأن يتفانى فى الخير عندما تدفعنا هذه الميول الى ذلك . ولكن تلك الفضيلة تمكن فى التغلب عليها حين يتطلب الواجب ذلك لنؤدى ما يملية علينا ، وهذا هو أقل ما استطعت عمله كرجل مجتمع . اننى وقد ولدت حساسا طبيبا ، تنطوى نفسى على الرحمة الى حد الضعف ، وأستشعر انتشارا

لم يقل روسو ذلك فى اميل « Emile » ولكن فى « الاعترافات Les Confessions » عند الحديث عن آتسة من الراهبات كان يعطيها دروسا فى الموسيقى . واما هذا القول الذى لا أساس له من الصحة اطلاقا فهو يدل على جهل فاضح من روسو بتعاليم الديانة الإسلامية .

الروح بكل ما يتصل بالكرم ، غدوت انسانا خيرا ، معينا للناس ، عن ميل ، بل وعن شغف ، ما دام الامر لا يهم سوى قلبي . وقد كنت أصبح خيرا للناس وأكثرهم رحمة اذا ما قدر لي أن أكون أقواهم . ولكي أحمده في نفس كل رغبة في الانتقام ، كان يكفيني أنني أستطيع أن أنتقم . وكان من الجائز أن أكون عادلا كذلك بغير عناء ، وإن تعارض ذلك مع مصلحتي الخاصة ولكنني لم أكن لأستطيع أن أقنع نفسي بأن أكون كذلك ضد مصلحة من كنت أعدهم أعزاء علي . وحين كان يتعارض واجبي مع قلبي فانه نادرا ما كانت تكتب الغلبة للأول اللهم الا اذا كان الامر لا يتطلب سوى الامتناع من جانبي ، وعندئذ ، أكون قويا في أغلب الأحيان . وأما التصرف ضد ميل فكان مستحيلا دائما بالنسبة لي . وسواء كان الامر صادرا عن الناس أو الواجب أو الضرورة حين يصمت قلبي ، فان ارادتي تظل صماء ولا أعود قادرا على الطاعة . انني أرى الشر الذي يتهددني ، وأدعه يأخذ طريقه الى بدلا من أن أتحرك لتوقيه ، وانني لأبدأ أحيانا في جهد ، ولكن هذا الجهد يرهقني ويستنزف قواي بسرعة فائقة فلا أقوى على الاستمرار . وفي كل ما يتصوره العقل يستحيل على أداء ما لا أجد متعة في القيام به .

وهناك ما هو أكثر من ذلك : فالأكراه ، وإن اتفق مع رغبتى ، كفيل بالقضاء عليها وتحويلها الى نفور ، بل والى اشمزاز مهما كان تجاوزه لحده العنف ضئيلا . وهذا هو ما يجعل العمل الطيب الذى يقوم به الانسان أمرا شاقا ، وهو ما كنت أؤديه طواعية حين لم يكن يفرضه أحد . إن عملا خيرا بغير مقابل مطلقا هو بالتأكيد عمل أرحب بأدائه ، ولكن حين يتخذ صاحب هذا العمل منه سندا كي يفرض استمراره والا تعرضت لكرهيته ، وحين يلزمنى أن أكون صاحب فضل عليه الى الأبد لأننى وجدت لذة فى ذلك فى أول الامر ، حينئذ يبدأ الضيق وتلاشى اللذة ، ويكون ما أفعله حين أستسلم ، ضعفا وعارا كريها ، لا مكان فيه من بعد للرغبة الصادقة ، وبدلا من أن أتهلل لما أفعل أعتب على نفسى فى سريرتى لأننى فعلت الخير مكرها .

اننى أدرك أن هناك نوعا من العقود ، بل هو أكثرها قداسة : وهو المبرم بين المحسن وبين المحسن اليه ، وهو نوع من أنواع الشركة يكونها الأول مع الثانى ، أشد أحكاما مما يربط بين الافراد عامة ، ولئن التزم المحسن اليه ضمنا بالإعتراف بالجميل فان المحسن يلتزم كذلك بأن يحفظ للآخر - طالما هو لا يبدو غير أهل له - نفس الرغبة الصادقة التى سبق أن أبدأها نحوه ، وأن يجدد له نفس الافعال فى كل المرات التى

يستطيع فيها ذلك والتي يطلب منه أداؤها . وهذه ليست شروطا صريحة، ولكنها آثار طبيعية للصلة التي قامت بينهما . وان من يرفض للمرة الأولى أن يسدى خدمة يطلب اليه أداؤها، بغير مقابل لا يخول حق الشكوى لمن رفض أن تسدى اليه ، ولكن من يأبى في حالة مشابهة أن يتفضل على نفس الشخص بمثل ما تفضل عليه به من قبل فهو يخيب اذا أهلا سمح له أن يراوده بل هو يخلف ويخيب أمنية ولدها في نفسه . ان المرء ليحس في هذا الرفض شيئا من الظلم بل من الامعان في القسوة أكثر مما في الآخر ، ولكنه مع ذلك ليس الا نتيجة استقلال يحبه القلب ولا يستطيع ان يتنازل عنه بغير جهد . اننى حين أرد دينا فان هذا واجب أؤديه ، وحين أعطى منحة فأنما هي متعة أوفرها لنفسي ، واذن فالنتيجة في أداء المرء لواجباته هي من تلك المتع التي يبعثها الاعتياد وحده لممارسة الفضيلة، أما تلك التي تأتينا من الطبيعة مباشرة فلا تتسامى الى ذلك الحد .

لقد تعلمت بعد تلك التجارب المريرة أن أتبصر من بعيد عواقب استجابتي لنزعاتي الأولى وغالبا ما امتنعت عن أداء عمل خير كنت أحس رغبتى فيه وقدرتى على أدائه متخوفا مما سوف يفرضه على من سلطان ان أنا استسلمت اليه بغير روية . ولم أستشعر تلك الرهبة دائما بل على العكس من ذلك كنت أتعلق في شبابي بأعمال الحيرة وغالبا ما كنت أحس كذلك أن أولئك الذين كنت أسدى اليهم معروفا انما كانوا يتعلقون بشخصي عرفانا بالجميل أكثر منه سعياء وراء مصلحة . ولكن الامور قد تغير وجهها تماما في هذه الناحية ، كما في غيرها ، بمجرد أن بدأت المصائب تحل بي ، وقد عشت منذ ذلك الوقت في حقبة جديدة لاتشابه الأولى في شيء ، وقد اعترت مشاعري تجاه الآخرين تغيرات وجدت صداها لديهم . ان نفس الاشخاص الذين لقيتهم على التوالي في هذين الجيلين ، على اختلافهما ، قد تشابهوا جدا - على حد القول - ببعضهم البعض على التوالي كذلك ، فمن صادقين مخلصين كما كانوا في أول الامر أصبحوا ما هم عليه الآن ، شأنهم في ذلك شأن الآخرين جميعا . وفي هذا وحده تغير الزمن ، وتغير الناس كما تغير ... ايه ... كيف أستطيع أن أحتفظ بنفس المشاعر نحو أولئك الذين ثقيت فيهم عكس ما ولد تلك المشاعر ... اننى لا أكرههم قط لأننى لا أعرف كيف أكره ... ولكننى لا أستطيع منع نفسي من الاحتقار الذي يستحقونه ولا أن أرددها عن اظهاره لهم .

ربما - دون أن ألاحظ ذلك - تغيرت أنا نفسى أكثر مما يجب : وأى

طبع يستطيع أن يثبت دون أن يتغير وهو يمر بحالة مثل حالتى ؟ اننى ،
وقد أقنعتنى عشرون سنة (١) من التجربة بأن ما غرسته الطبيعة فى
قلبى من استعدادات طيبة قد تحول - بسبب ما خط لى فى لوح القدر
وبسبب من يتحكمون فى - الى اضرار بنفسى أو بالغير ، لم أعد أستطيع
أن أنظر الى أى عمل خير يعرض على أدائه الا كشرى ينصب لى ويخفى
تحت شرا ما . واننى لأدرك أنه مهما يكن أثر العمل فان جزائى عن نيتى
الطيبة لن يكون أقل . أجل . . ان هذا الجزاء قائم هناك دائما من غير
شك ولكن السحر الكامن فيه لم يعد موجودا . وما ان ينقضى ذلك الحافز
حتى استشعر عدم المبالاة والبرودة فى داخل نفسى ، وحين يتأكد لى اننى
بدلا من أن أقوم بعمل نافع حقا لم أفعل سوى ما يفعله كل مغفل فان ثورة
الكرامة - مضاعفا الى انكار العقل - لا تبعث فى الانفورا وعنادا حيث
كان من المحتمل أن أكون ممثلا حمية وحماسا فى حالتى الطبيعية .

هناك ألوان من المحن تسمو بالروح وتقويها ، ولكن من بينها كذلك
ما يحطمها ويقضى عليها ، كذلك التى أنا فريسة لها . فمهما يكن قليلا
ما فى محنتى من خمرة فاسدة فان هذا القدر كان كفيلا بأن يجعلها تختمر
الى أقصى حد فتتهيجنى ، ولكنها لم تجعل منى الا عدما ، واننى لأمتنع عن
التصرف حين لا أستطيع أن أقدم خيرا لنفسى أو للآخرين ، وتلك الحال
التي لا تستمد براءتها الا من كونها اضطرابية ، تجعلنى أحسن شسيتا
من الارتياح فى الاستسلام كلية ، دون لوم لىلى الطبيعى ، ولا شك فى
أننى أذهب بعيدا جدا ما دمت أتخاض فرص التصرف حتى حيث لا أرى
سوى خير يستطاع أدائه ، ولكننى ، وقد ثبت لى أن الناس لا يدعوننى
أرى الأمور كما هى عليه ، فأننى أمتنع عن الحكم بالظواهر التى يصفونها
على تلك الأمور . ومهما يكن الزيف الذى يحجب دوافع التصرف فانه
يكفى أن تكون هذه الدوافع فى متناول يدى حتى أتأكد من أنهم مخادعون .
ويبدو قدرى وكأنما نصب لى منذ طفولتى الشريك الأول الذى يسر
لفترة طويلة وقوعى فى الشراك الأخرى جميعا . لقد ولدت وأنا أشد
الناس ثقة ، ولم يحدث مدى أربعين حولا كاملا أن غرر بتلك الثقة مرة
واحدة ، أما وقد ألقى بى فجأة بين طراز آخر من الناس ومن الأمور فقد
سقطت فى ألف كمين دون أن ألحظ مطلقا من بينها واحدا ، وكانت عشرون
عاما من التجربة تكفى بالتأكيد لتلقى الاضواء على مصيرى . وما أن اقتنعت
أن ليس وراء اسرافهم فى منافقتى سوى كذب وزيف ، حتى تحولت سريعا

(١) يشير روسو هنا الى خصامه مع ديدرو عام ١٧٥٧ .

الى النقيض ذلك لأنه ما أن يخرج المرء عن طبيعته حتى لا تعود هناك حدود تعوقنا . ومنذ ذلك الوقت أشعزت نفسى من الناس ، وأما ارادتى التى تتنافس وارادتهم فى هذا المضمار فاتها لا تزال تقف بى بعيدا عنهم أكثر مما تفعل حيلهم جميعا .

ومهما يفعلوا فلن يستطيع هذا النفور أبدا أن يبلغ حد الكراهية . اننى حين أفكر فى التبعية التى وضعوا أنفسهم فيها بالنسبة لى مستهدفين أن تكون حالى بالنسبة لهم كذلك . فانهم بهذا يستبدون شفقتى الحق . ولئن لم أكن تمسا فانهم . لكذلك ، وفى كل مرة أرجع الى نفسى أجدهم يستحقون الرثاء دائما . ان الزهو قد يخالط كذلك هذه الاحكام ، فاننى لأحس بأننى أسمى منهم حتى أكرههم . ان كل ما يستطيعون على الأكثر أن يثبروه فى نفسى من اهتمام هو احتقارى لهم ، ولكن لن يبلغ ذلك حد الكراهية أبدا . وأخيرا ان حبى لنفسى من القوة بحيث لا أستطيع معه أن أستشعر الكراهية نحو كائن ما والا فاننى أكون كمن يحصر ويضغط كيانه بينا أنا أود لو . وسع الكون كله .

اننى أفضل أن أهرب منهم عن أن أكرههم . ذلك لأن مرآهم يشير فى حواسى ، وعن طريقها فى قلبى ، انطباعات تجعلها ألف نظرة قاسية شاقة على نفسى ، ولكن لا يلبث الضيق أن يتوقف بمجرد أن تخفى دواعيه وانى لأشغل نفسى بهم على الرغم منى تماما فى حضورهم ، ولكن ذلك لا يحدث أبدا بتذكرى إياهم ، فعندما لا أراهم يفدون فى نظرى وكأنما لم يكن لهم وجود مطلقا .

انهم لا قيمة لهم كذلك بالنسبة لى الا فيما يتصل بى من أمور ، ذلك انهم فيما يقوم بينهم من علاقات يستطيعون كذلك أن يثيروا اهتمامى وأن يؤثروا فى كما قد تؤثر فى شخصيات مسرحية أشهدها . لقد كان من الضرورى - كى تكون العدالة غير ذات بال بالنسبة الى - أن يقضى على كيانى المعتوى . ان منظر الظلم والشر لا يزال كذلك يدفع الدم الى الغليان فى عروقى غضبا ، أما الأعمال الصالحة التى لا أرى فيها أثرا للعنف أو المباهاة فاتها تجعلنى دائما أهتز فرحا ، وتنتزع كذلك الدموع الرقيقة من عينى . ومع ذلك ، فانه يجب أن أشهد تلك الافعال وأن أقدرها قدرها بنفسى ، ذلك انه بعد ما حدث لى شخصيا لا بد وأن أعقدو مخبولا لأعشق - فى أى أمر من الامور - آراء الناس ولاصدق أى شىء على عهدة الآخرين .

لو أن وجهى وعلامحى كانت مجهولة تماما لدى الناس ، كخلقى وطبعى ، إذن لعشت بينهم كذلك فى غير مشقة . ولكن من الجائز أن تروق

لى صـحبتهم ما دمت غريبا عنهم تماما . لقد كنت أحبهم كذلك لو لم يشغلوا أنفسهم بى أن أنا استسلمت دون ضغط لميولى الطبيعية . لقد كنت أسبغ عليهم رعاية شاملة غير مفرضة إطلاقا ولكن دون أن أنشىء علاقة خاصة ودون أن أخضع لآى التزام ، وكنت أقدم لهم - بكامل حريتى وعن طواعية - كل ما يلقون عناء كبيرا فى تقديمه مدفوعين باثرتهم مكرهين على أدائه بحكم شرائعهم جميعا .

لو أننى ظلمت حرا ، منسيا ، منعزلا - كما خلقت لأكون - لما فعلت الا خيرا ، ذلك لأنه ليسيت بقلبى نواة لآى ميل للأذى . ولئن كنت محجوبا قديرا مثل الله لأصبحت خيرا كريما مثله . ان القوة والحرية هما اللتان تخلقان الرجال الممتازين ، أما الضعف والعبودية فلم يخلقهما الا أشرارا . ولو كنت أملك خاتم « جيجيس » (1) Gyges لخلصنى من تبعيتى للناس ولجعلهم تابعين لى . اننى كثيرا ما تساءلت فى « قصورى التى أبنيتها على الرمال » فيم كنت أستخدم ذلك الخاتم ، ذلك لأن هننا يكون اغراء اساءة استعماله ممكنا . واذا ما أصبح فى مقدورى أن أشبع رغباتى وأن أقوم بعمل كل شيء دون احتمال أن يخدعنى أحد فماذا كنت أستطيع أن أشتبهى بعد ؟ شيئا واحدا : هو أن أرى القلوب جميعا راضية . ان مظهر الهناء الشاملة هو وحده الذى كان من الممكن أن يمس قلبى بحنان دائم ، كما أن الرغبة الحائرة فى أن أسهم فى ذلك كانت عاطفتى المقيمة دواما . ولما كنت عادلا دائما بغير تحيز ، خيرا دائما فى غير ضعف ، فاننى كنت خائفا أن أجنب نفسى الشكوك البمياء والكراهية المقيتة ، لاننى وقد رأيت الناس على ما هم عليه ، مستطلعا فى يسر ما فى أعماق قلوبهم قلما كنت أجد من بينهم من بلغوا من اللطف حدا يستحقون معه كل محبتى ، أو بلغوا من القبح حدا يستحقون معه كراهيتى ، وأن نزعة الشر فيهم ذاتها تهيننى للاشفاق عليهم لمعرفتى الاكيدة بالضر الذى يصنعونه بأنفسهم وهو يودون اصابة الغير به . ربما كنت أستطيع فى لحظات المرح أن أعبت عبثا صبيانيا فى بعض الاحايين باتيانى أمورا معجزة ، ولكن ، لما كنت لا أستهدف أبدا أية منفعة شخصية وليس هناك من شريعة لدى سوى ميولى الطبيعية، فاننى كنت أقوم بألف عمل من أعمال الرحمة والانصاف مقابل بعض الأفعال التى تتسم بالعدالة الصارمة . وكرسول للعناية الالهية وكناشر لقوانينها - على قدر استطاعتى - كنت أقوم بعمل

(1) جيجيس Gyges هو راع صغير من ليديا (من أقاليم آسيا الصغرى قديما) عاش فى القرن السابع قبل الميلاد كان له خاتم سحرى يستطيع بواسطته أن يصبح غير مرئى واستطاع بذلك أن يصل الى العرش وأن يؤسس أسرة حاكمة هناك .

معجزات أكثر حكمة وأشد نفعا من معجزات الاسطورة المذهبية
Légende dorée (١) وقبر القديس ميدار Saint-Médard (٢) •

ليست هناك سوى ناحية واحدة كان من الممكن أن تدفعني الى
الدخول ، متخفيا ، الى أى مكان للبحث عن مغريات ربما
ضعفت مقاومتي ازاها • ولئن دخلت مرة قبي تلك الطرق المضللة فترى
الى أين تؤدى بى ؟ انه يكون من الجهل المطلق بالطبيعة وبذاتى أن أتغلل
بأن تلك التسهيلات لم تكن لتغرينى مطلقا ، أو أن العقل كان يستوقفنى
عند ذلك المنحدر المشئوم • ومع ثقتى فى نفسى فى كل أمر آخر ، ألا
أننى ضيعت بسبب ذلك وحده • ان من ترتفع به قدرته فوق مستوى
البشر يجب أن يكون فوق مواطن الضعف الانساني ، والا فان هذا
الفيض من القوة لن يجدى فى الواقع الا فى النزول به الى مستوى أدنى
من مستوى الآخرين ومن المستوى الذى كان من الجائز أن يلتزمه هو
نفسه ان ظل مساويا لهم •

وبعد أن تمعنت جيدا فى الأمر كله ، فأننى اعتقد أنى أفل خيرا لو أننى
القيت بخاتمي السحرى قبل أن يدفعنى الى الاقدام على حماقة ما • ولئن
كان الناس يصرون على رؤيتى على صورة تخالف تماما ما أنا عليه ، وإذا
كان مظهرى يثير ظلمهم فمن الواجب التهرب منهم كى أحجب عنهم هذا
المنظر لا أن أتوارى بينهم • انهم هم الذين يجب أن يختفوا من أمامى
وأن يحجبوا عنى خيلهم وأن يفروا من ضوء النهار وأن يغوصوا فى الأرض
كالخلد • وأما بالنسبة لى فلئن رأونى - ان استطاعوا الى ذلك سبيلا -
كان ذلك خيرا ، ولكن هذا مستحيل بالنسبة لهم فانهم لن يروا أبدا فى
مكانى سوى الـ « جان جاك » الذى صاغوه لأنفسهم وشكلوه وفق هواهم
ليكرهوه كما يشاءون ، واذن ، فأننى أكون مخطئا لو أننى تأثرت من
الطريقة التى يرونى بها ، اذ لا يجب أن أعيرها أى اهتمام حقيقى ، لأننى
لست أنا من يرونه على هذه الصورة •

ان النتيجة التى أستطيع أن أستخلصها من هذه الخواطر جميعا
هى اننى لم أكن أبدا خليقا حقا بالمجتمع المتمدين حيث ليس هناك سوى

(١) الاسطورة المذهبية La Légende dorée هى مجموعة ضخمة من حياة القديسين

الفها « جاك دونفوراجين Jacques de Voragine » فى القرن الخامس عشر

(٢) يقصد بمقبرة سان ميدار Saint-Médard « المقبرة التى دفن بها الشماس «باريس»

المتوفى فى عام ١٧٢٧ - وكان الباريسيون يتوجهون اليها لاعتقادهم فى امكان شفاء
المرضى عن طريق صاحبها • وقد أغلقت المقبرة بأمر السلطات العامة فى عام ١٧٢٢ •

الخرج والالتزام والواجب وإن طبعى الاستقلال جعلنى عاجزا على البوام
عن الرضوخ للآزم لمن يريد أن يعيش بين الناس . وما دمت أتصرف فى
حرية فأننى خير لا أفعل إلا خيرا . ولكن ما أن أحس بالتسلط : تسلط
الحاجة أو تسلط الناس ، حتى أغدو متمردا أو بالأحرى ، جموحا : وعندئذ
أكون لا شيء . حين يكون لزاما على أن أفعل ما يناقض رغبتى فأننى
لا أفعله البتة مهما يحدث ، بل أننى لا أفعل كذلك ما يطابق رغبتى نفسها
لأننى ضعيف . أننى أمتنع عن العمل ذلك لأن كل ضعفى فى مباشرته ،
ولأن كل قوى سلبية ، ولأن كل زلاتى ناجمة عن الاحجام ، ونادرا عن
الاقدام . أننى لم أعتقد مطلقا أن حرية المرء تعنى انجاز ما يود ولكنها
فى الأ يصنع مطلقا ما يريد أن يصنعه ، ذلك هو ما طالبت به دائما
وما التزمته غالبا وما كنت من أجله منددا بى لدى معاصرى : ذلك أنه
بالنسبة لهم كعاملين نشيطين طموحين ، كارهين الحرية لدى الغير ، غير
راغبين فيها بالمرّة لأنفسهم ، ماداموا يفعلون أحيانا ما يشاءون أو بالأحرى
يسيطرون على مشيئة الآخرين . . . يضيّقون طيلة حياتهم بأداء مايكرهون
ولا يتورعون عن الاستعباد مستهدفين السيطرة . واذن فإن خطاهم لم
يكن فى أن يبعثونى عن المجتمع كعضو لا جدوى منه بل أن ينبئونى
كعضو خبيث ، ذلك لأننى قلما فعلت الخير وأنا مقر بذلك ، أما عن الشر ،
فانه لم يدخل فى نطاق رغبتى فى حياتى ، وأننى أشك فى أن هناك إنسانا
فى العالم أقترف منه حقا أقل مما فعلت .

الجملة السابعة

لم يكذب يبدأ سجل أحلامي الطويلة حتى أحسست بها تشارف خاتمها وتبعها متعة أخرى تستغرقني حتى لتسلمني فترة الحلم . اننى لأستسلم لها فى ولع مفرط يضحكنى أنا نفسى حين أمعن التفكير فيها ، ولكننى لا أقلل من إستسلامى لها ، ذلك لاننى - فى الوضع الذى انا به - لم تعد لدى قاعدة أخرى للسلوك اللهم الا ان أتابع ميولى فى كل الامور بغير اكرام . اننى لا أملك شيئاً حيال قدرى ، وليست لى سوى ميول بريئة ، ومادامت آراء الناس ليست شيئاً بالنسبة لى منذ اليوم فان الحكمة نفسها تقتضى أن أقوم بعمل ما يرضينى فيما لا يزال فى متناولى ، سواء أكان ذلك أمام الناس أم بينى وبين نفسى ، دون أن ألتزم قاعدة سوى ما يروق لى ، ودون معيار سوى ما بقى لى من قوة ضئيلة . أما بعد ، فهأنذا والاعشاب الجافة كل زادى ودراسة النبات كل شغلى . أما وقد تقدمت بى السن فاننى كنت قد تلقيت الانطباعة الاولى لعلم النبات فى سويسرا بالقرب من العالم ديفرنوا d'Ivernois وكنت قد جمعت الاعشاب خلال أسفارى بتوفيق يكفى لالام لا بأس به بمملكة النبات . أما وقد جاوزت الستين ، وأقيم فى باريس ، وقواى آخذة فى الاضمحلال بحيث تمنعنى من ممارسة الاستعشاب على نطاق واسع ، ومع هذا متفرع الى حد كبير لكتابة الموسيقى حتى لا أغدو وفى حاجة لأن أشغل بعمل آخر ، فقد هجرت هذه المتعة التى لم تعد ضرورة بالنسبة لى . لقد بعث معشبنى وبعث كتنى قانعا بأن أعاود أحيانا مشاهدة النباتات الشائعة التى كنت أعثر عليها حول باريس خلال تجولاتى . وخلال هذه الفترة كاد يمحى من ذاكرتى تماماً القليل الذى كنت أعرفه ، بل انه انمحى فى سرعة تفوق ما استغرق نقشه عليها .

وفجأة ، وبعد أن انقضت خمسة وستون عاماً من عمرى محروماً من الذاكرة الطويلة التى كنت أستمتع بها ومما كان متبقياً لى من قوى للتجول فى الريف بغير مرشد وبغير كتاب وبغير حديقة وبغير معشب ،

أراني وقد عاودني هذا التهوس ولكن في عتف أشد كذلك مما انتابني عندما استسلمت له في المرة الأولى . هأنذا مشغول جديا بمشروع حكيم هو استظهار مؤلف « موري » Murray (١) عن المملكة النباتية Regnum vegetable والتعرف الى كافة أنواع النبات المعروفة على سطح الأرض . ولما كنت في حالة لا تسمح بمعاودة شراء كتب النبات فقد أخذت على عاتقي أن أنسخ ما كانوا يعيرونني اياه . ولما كنت أعزم إعادة انشاء معشب أغنى في محتوياته من الاول ، وبأمل أن أضع فيه كل نباتات البحر والألب وكل أشجار الهند ، فأنني أبدأ كمعادتي بالرخيص مثيل « الرتم » (عين القط) Mouron (٢) و « الكريزة الخضراء » (المقدونس الافرنجي) cerfeuil و « لسان الثور » Bourrache « والمرار » (حشيشة يعقوب) Senegon وأنا أجمع العشب عن خبرة فوق قفص طيورى وكلما عثرت على نبتة جديدة من العشب كنت أقول لنفسى فى ارتياح « هاك أيضا نبات آخر » .

لست أحاول أن أبرر اختياري لمتابعة تلك الهواية . اننى أجدها معقولة جدا ، وأنا موثق ، فى وضعى الراهن ، أن استسلامى للمتعة التى ترصينى هو حكمة كبيرة بل هو فضيلة كبيرة كذلك : ان هذه الوسيلة التى لا تدع أية جرثومة للانتقام أو الكراهية تتوالد فى قلبى ولكى أجد فى حياتى طعما لتسلية ما ، يتعين على من غير شك أن يكون هناك طبع مصفى تماما من كل انفعالات الحلق . ان هذا لهو بمثابة انتقام من مضطهدى على طريقيتى : ولم أك لأستطيع أن أنزل بهم من العقاب ما هو أقسى من أن أكون سعيدا بالرغم منهم .

أجل ، من غير شك ، أن الحكمة تبيح لى بل تملئ على أن أستسلم لكل ميل يستهوئنى ولا يعوقنى شئ عن الانسياق وراءه ، ولكنها لا ترشدنى عن سبب استهواء هذا الميل لى وعن أى اغراء أستطيع أن أجده فى دراسة عقيمة لا جدوى من وراءها ولا تقدم يرجى لها . وتعود بى الى تمرينات الشباب والى دروس التلاميذ بينا أنا عاجز مخرف . وقد أصبحت متهاككا ثقيل الحركة قد ذهبت مرونتى وذاكرتى جميعا ، واذن فهذه مسألة بها من الغرابة ما أحب أن أفسره لنفسى . ذلك أنه يخيل لى ، حين تنجل

(١) موري « جوان - أندريا » Joannes-Andreas ، Murray طبيب وعالم نبات سويدي ولد في استكهلم سنة ١٧٤٠ ومات في جوتنجة بألمانيا سنة ١٧٩١ وهو واحد من تلاميذ لينية Linné المقربين .

(٢) من «المعجم المصور لاسماء النباتات» : القاهرة : ١٩٣٦ - لارميناك .ك. بديفيان .

تماما ، انها تستطيع أن تلقى ضوءا جديدا على هذه المعرفة لذاتى ، تلك المعرفة التى كرسى لتحصيلها أيام فراغى الأخيرة .

لقد فكرت أحيانا تفكيرا عميقا ، ولكن نادرا ما كنت راضيا ، بل كان ذلك فى أغلب الاحيان على غير رغبة منى وكانا بالاكراه . ان أحلام اليقظة تريحنى وتسرى عنى ، وأما امعان الفكر فيجهدنى ويحزننى . ان التفكير كان بالنسبة لى على السوام شاغلا شاقا لا سحر فيه . وقد تنتهى أحلام يقظتى أحيانا بالتأمل ، ولكن تأملاتى فى أغلب الامر تنتهى بحلم يقظة . وخلال هذا الشرود تهيم روحى وتسبح فى العالم على أجنحة الخيال فى نشوات تفوق كل متعة أخرى .

اننى كلما تذوقتها فى كل صفائها غدا كل شاغل آخر لا طعم له دائما بالنسبة لى ، ولكن ما أن كان يلقي بى فى المجال الأدبى بسبب دوافع غريبة حتى أحس بالاجهاد من جراء العمل الذهني ومن عبء شهرة منكودة وحتى أحس فى الوقت نفسه بأحلام يقظتى الحلوة تسقم وتفتت ، وحالما أضطر لاشغل بارغم منى بوضعى المرير لا أعود أستطيع العثور من جديد - الا فى القليل النادر - على هذه النشوات العريضة التى ظلت خلال خمسين عاما تحتل منى مكانة الثراء والمجد ، والتى - من غير أن تقتضينى سوى الوقت - جعلتنى فى فراغى أسعد الاحياء طرا .

لقد كان ما أخشاه كذلك فى أحلام يقظتى أن يجمع خيالى بنشاطه فى نهاية الامر الى هذه الناحية مدعورا من نكباتى . وان الشعور المستمر بالآلمى وهى تعصر قلبى تدريجيا ينوء على فى نهاية الأمر بكل وطائها . وفى هذه الحالة فرضت غريزة طبيعيتى لدى - تجعلنى أتخاشى كل فكرة مقبضة - السكينة على خيالى ، وجعلتنى - بتركيز انتباهى على كل ما يحيط بى من أمور - أتناول بالتفصيل للمرة الاولى مشهد الطبيعة الذى لم أكن قد تأملته اطلاقا حتى اذ ذاك الا ككل متكامل .

ان الأشجار والشجيرات والنباتات هى زينة الأرض ودثارها ، وليس من شئ يدعو الى الأسى كمشهد ريف عار أجرد ، لا تعرض للعين منه سوى أحجار وطمى ورمال . ولكن ما أن تجيى الطبيعة الارض فتعاود ارتداء ثوب عرسها بين خريبر الماء وأهازيج الطيور حتى تقدم للانسان بين تناسق الممالك الثلاث مشهدا زاخرا بالحياة والاثارة والفتنة هو المشهد الوحيد فى العالم الذى لا تكل منه عيناه وقلبه أبدا .

وكلما كانت للمتأمل روح حساسة كلما استسلم لنشواته التى تثير فيه هذا التوافق . عندئذ يستحوذ على حواسه حلم يقظة حلو عميق

فيضل بخدر لذذ في سعة هذا الكون الرائع الذى يحس أنه امتزج به ، وعندئذ تشرذ منه التفصيلات فلا يرى ولا يحس شيئا سوى ما يداخل المجموعة . ولا بد من ظرف خاص يلم أفكاره ويحصر خياله حتى يستطيع أن يلاحظ - مجزءا - هذا العالم الذى كان يجهد نفسه فى الإحاطة به .

ان هذا هو ما حدث لى بطبيعة الحال عند ما كان قلبى - وقد حاق به الضيق - بقارب ما بين ويركز كل انتفاضة من حوله كى يحتفظ بهذه البقية من الحرارة على أهبة التبخر والضباع فى ثنايا الانهيار الذى كنت انحدر اليه تدريجيا . اننى كنت أتسكع متجولا فى تكاسل فى الغايات والجبال ، لا أجسر على التفكير خشية استثارة أوجاعى . وكان خيالى الذى يتأبى عند الشاق من الامور يدع حواسى تستسلم للانطباعات الخفيفة ، الحلوة مع ذلك ، لما يحيط بى منها . وكانت عينى تجولان باستمرار من شيء الى آخر ، ولم يكن من المستطاع وسط مثل هذا التباين الكبير ألا يوجد فيه ما يزيد من تركيز انتباهها واستيقافها مدة أطول .

لقد راقى لى رياضة العيون هذه التى تريح وتسلى وتروح عن الذهن وتوقف الاحساس بالآلام حين يستشعر المرء الشقاء . ان طبيعة الأشياء تساعد كثيرا على هذه السلوى وتجعلها أشد اغراء . ان الروائح الشدية والالوان الزاهية والصور البالغة الرشاقة تبدو وكأنما تتنازع حق استرعاء انتباهنا . وما علينا الا أن نحس المتعة كى نستسلم الى أحاسيس بهذه الدرجة من الحلاوة ولو أن هذا الاثر لم يبد على كل من صادفتهم تلك المتعة فان ذلك يرجع لدى البعض الى انعدام الحساسية الطبيعية ، وهو لدى الأغلبية يرجع الى أن أذهانهم وقد شغلت بأفكار أخرى لم تعد تنصرف الا خلسة الى الامور التى تصك حواسهم .

وهناك أمر آخر يسهم كذلك فى ابعاد انتباه ذوى الذوق السليم عن المملكة النباتية ذلك هو اعتياد عدم البحث فى النبات عن غير العقاقير والادوية . ولقد تناول «ثيوفراست» (1) Théophraste ذلك من زاوية أخرى . ويمكن اعتبار هذا الفيلسوف كأنما هو عالم النبات الوحيد فى العصور القديمة ، ولذا فهو لا يكاد يكون معروفا بيننا ، ولكن بفضل من يدعى «ديوسكوريد» Dioscoride وهو مصنف مشهور للوصفات الطبية ، وبفضل شراحه ، استطاع الطب أن يستحوذ على نباتات محولة الى عقاقير حتى لا يرى المرء فيها سوى ما كان لا يراه فيها أبدا ، بمعنى

(1) ثيوفراست Théophraste فيلسوف يونانى ولد فى جزيرة لسبوس (حوالى

٢٧٢ - ٢٨٧ ق م) ، كتب مؤلفا عنوانه Caractères

انه يرى فيها المزايا المزعومة التي ينسبها اليها «فلان أو علان» ولا بدرك المرء أن التنظيم النباتي يستحق في حد ذاته أن ينال عناية ما ٠٠ ان الأشخاص الذين يقضون حياتهم في ترتيب القواقع ترتيبا علميا يسخرون من علم النبات كأنما هو دراسة غير ذات نفع وذلك حين لا تلحق بها كما يقولون دراسة الخواص ، أى حين لا يهمل المرء ملاحظة الطبيعة التي لا تكذب أبدا والتي لا تروى لنا شيئا من هذا كله ، ليستسلم فقط لرأى الناس وهم كاذبون ، والذين يؤكدون لنا أشياء كثيرة يجب التسليم بها بناء على قولهم الذى يستند فى أغلب الامر على أساس رأى الآخرين . قف فى مرعى مزهر كى تتفحص تباعا الأزهار التي يزدان بها ، فان من يرونك كذلك سيظنونك « حلاق صحة » فيسألونك بعض الاعشاب لشفاء « قوبة الزيتون » للأطفال أو « جرب » الرجال أو « تنين » الخيل .

ان هذا الاعتقاد قد انهار جانب منه فى البلاد الاخرى وبخاصة فى انجلترا بفضل ليناوس Linnaeus (١) الذى أبطل الى حد ما دراسة النبات فى مدارس الصيدلة ناقلًا اياها الى حقل التاريخ الطبيعى وميدان الانتفاع الاقتصادى . أما فى فرنسا حيث كان تغفل هذه الدراسة أقل لدى الطبقة المتمدنة ، فقد ظلوا فى هذه الناحية من البدائية حتى ليصبح متطرف باريس متمدنا ، حين يشهد فى لندن حديقة فريدة مليئة بالاشجار والنباتات النادرة . قائلا : « هاكم حديقة بالغة الجمال لصيدلانى » وعلى هذا الاعتبار كان آدم الصيدلى الاول ، ذلك لانه ليس من الميسور أن نتخيل حديقة تجمع شتات النباتات خيرا من جنة عدن . هذه الافكار الطبية ليست بالتأكيد كفيلا بأن تجعل من دراسة النبات دراسة مستحبة ، فهى تذبل ازدهار المراعى وتآلق الزهور وتجفف نضارة الخمائل وتجعل الخضرة والظلال تافهة ممجوجة . ان كل تلك المركبات الرائعة الرقيقة لا تهم بحال من لا يود الا أن يجمع ذلك كله فى هاون ، ولن يبحث المرء عن أكاليل للراعيات بين أعشاب لغسيل الامعاء . ان هذه الصيدلة كلها لم تكن تفسد أبدا صور الريف لدى ، فلم يكن هناك ما هو أبعد منها أكثر من « منقوعات الاعشاب » و « اللزقات » وطالما فكرت ، وأنا اتأمل عن كشب الحقول والبساتين والغابات وسكانها العديدين ، أن مملكة النبات كانت مستودعا للمواد الغذائية التي تمنحها

(١) كتاب نظام التقسيم الطبيعى للنباتات System anaturae هو من تأليف عالم النبات السويدى لينيه linne (١٧٠٧ - ١٧٧٨) نشر الكتاب عام ١٧٣٥ ، وكان روسو معجبا به

الطبيعة للانسان والحيوان ، ولكن لم يخطر ببالي مطلقا أن أبحث فيها عن عقاقير وأدوية . ولست أرى شيئا في هذه المحصلات المتباينة يرشدني الى مثل هذا الاستعمال . ولعلها كانت تحدد لنا الاختيار لو أنها أملتة علينا ، كما فعلت بالنسبة للمواد الغذائية ، بل اننى لأحس أن المتعة التى أنالها بتجولى بين الحماثل قد يفسدها الشعور بالضعف البشرى ان هو أتاح لى التفكير فى الحمى والحصوة والنقرس ومرض الشيوخوخة . ومن ثم فلن أناقش البتة النباتات فيما ينسب اليها من مزايا ضخمة ، بل سأكتفى بأن أقول : انه بافتراض أن تلك المزايا حقيقية فإنه من الخبث المحض أن يظل المرضى غاى مرضهم لانه من بين كل الامراض التى يتعرض الناس لها ليس هناك مرض واحد لا يقطع دابره عشرون نوعا من الاعشاب .

ان اتجاهات الفكر هذه - التى ترجع دائما كل شيء الى مصلحتنا المادية والتى تدعو الى البحث فى كل شيء عن كسب أو دواء ، والتى كانت حرة بأن تدفع الى النظر الى الطبيعة جميعا بغير تحيز لو أن المرء كان دائما فى صحة طيبة - لم يكن لى منها نصيب مطلقا . وانى لأحس فى ذلك اننى على نقىض الآخرين ، فان كل ما يتصل بالاحساس بحاجائى يحزن أفكارى ويفسدها ، ولم أجد مطلقا أى سحر حقيقى فى متع الفكر الا اذا أسقطت من حسابى تماما مصلحة جسدى . وهكذا - حتى حين كنت أومن بالطب ، وحتى لو أن الدواء كان مستساغا - فاننى لم أكن لأجد نفسى أشغل مطلقا بهذه المتع يضيفها تأمل خالص مجرد ، ولن تستطيع روحى أن تهلل وتحلق فوق الطبيعة ما دمت أحس بها تتشبث بقيود جسدى .

هذا الى اننى برغم انه لم تكن لى مطلقا ثقة كبيرة فى الطب الا انه كان لدى الكثير منها فى أطباء كنت أقدرهم وأحبهم وكنت أترك لهم مطلق الحرية فى التسلط على جسدى بسلطان كامل . أن خمس عشرة سنة من التجربة زودتنى بالعلم على حساب نفسى . أما وقد عدت الآن تحت سلطان قوانين الطبيعة وحدها فقد استعدت عن طريقها سابق صحتى . وحين لا يغدو للأطباء شكوى أخرى ضدى فمن ذا يستطيع أن يدهش من كراهيتهم ؟ اننى البرهان الجنى على تفاهة فنهم وعلى عدم جدوى جهودهم .

كلا . . ليس هناك أمر شخصى ، وليس هناك من شيء يتصل بمصلحة جسدى يستطيع أن يشغل روحى حقا . اننى لا أفكر ولست أحلم مطلقا أحلاما أكثر امتاعا منها الا حين أتناسى نفسى . وانى لأحس انتشاء وسعادة غامرة لا يستطيع التعبير عنهما الى حد أننى أفنى - كما

يقال - فى نظام الكائنات حتى امتزج بالطبيعة جمعاء . وطالما كان الناس أخوة لى فقد كنت أشيد مشروعات سعادة دنيوية ، ولما كانت هذه المشروعات دائما متعلقة بالمجموع ، فلم أكن أستطيع أن أكون سعيدا الا بسعادة الجميع ، ولم يحدث أن منست قلبى مطلقا فكرة السعادة الفردية الا حين رايت اخوانى لا يبحثون عن سعادتهم الا فى شقتى . وعندئذ كان من الواجب حتما تجنبهم حتى لا أبغضهم وعندئذ - بالتجائى الى أم الجميع - حاولت بين أحضانها أن أفلت مما يصيبنى به أبنائها ، وأصبحت منعزلا ، أو كما يقولون ، غير اجتماعى ، كارها للناس ، ذلك لأن أشد ألوان الوحدة قسوة كان يبدو لى أفضل من مجتمع الاشرار الذى لا يقتدى الا بالخيانة والبغضاء .

أما وأنا مضطر الى الامتناع عن التفكير خشية أن أفكر فيما حل بى من شرور على الرغم منى ، ومضطر أيضا الى اختزن مخيفات خيالى الضاحك - وان كان فاترا - حتى لتستطيع كل تلك المفزعات أن تنفرنى فى نهاية الامر ، ومضطر كذلك الى محاولة نسيان أولئك الذين يهيلون على المهائات والسباب خشية أن يثيرنى الغضب ضدهم ، فاننى لا أملك مع ذلك أن أتركز كلية فى ذاتى، لأن روحى الفياضة تسعى - برغم ما بى - الى أن تبسط مشاعرها وكيانها على الكائنات الاخرى ، ولست أستطيع بعد - كما كانت الحال من قبل - أن أنقى بنفسى مطايط الرأس فى محيط الطبعة الشاسع هذا ، لأن ملكاتى - وقد ضعفت ووهنت - لم تعد تلقى أمورا على قدر من التحديد والثبات ، وفى متناولى كذلك ، بحيث أعتد بها فى عنف، ولا أحس معها بقوة تكفى لتمكننى من السباحة فى هذا الخضم من نشواتى القديمة . أن أفكارى لم تعد تقريبا سوى مشاعر ، وان مجال ادراكى لا يتعدى الامور التى تحيط بى مباشرة .

أما وأنا هارب من الناس وساع وراء العزلة وعاجز عن التخيل ، وعن التفكير أكثر عجزا وموهوب مع ذلك فى الوقت نفسه مزاجا متوقدا يبعدنى عن البلادة المسقمة المحزنة . . فقد بدأت أشغل بكل ما يحيط بى ، وفضلت بغيرزة طبيعية جدا - الاشياء الأكثر امتاعا ، ولم يكن فى المملكة المعدنية فى ذاتها ما يجيب فيها أو يجذب اليها ، ان ثرواتها المدفونة فى باطن الارض تبدو كأنما أبعدت عن أنظار الانسان حتى لا تثير شرهه وهى هناك وكأنما احتفظ بها لتستخدم يوما لتزود الثروات الحقيقية التى هى اقرب الى متناوله والتى يقد لذة مذاقها كلما ازداد فسادا ، وعندئذ يجب أن يلجأ الى الصناعة والى الكد والعمل لتتقذه من فاقتة . انه ينقب فى باطن الارض ويتوغل باحثا فى صميمها ، مخاطرا بحياته، وعلى حساب

صحته ، عن ثروات خيالية بدلا من الثروات الحقيقية التى كانت تهبها ايام
عن طواعية عندما كان يعرف طريقه الى الاستمتاع بها . انه يهرب من
الشمس والنهار اللذين لم يعد جديرا برؤيتهما . انه يدفن نفسه حيا ،
وخيرا يفعل ، اذ لم يعد يستحق الحياة فى ضوء النهار . . هناك المحاجر
والاغوار وورش الحدادة والافران ومعدات من السندان والمطارق ودخان
ونار ، تخلف جميعها الصور الحلوة للعمل فى الحقول . . ان الوجوه
المصفرة لاولئك البؤساء الذين يسقمون من جراء الابخرة الكريهة فى
المناجم والحدادين السود والمسوخ المنفرين . . كل أولئك هم المشهد
الذى تحله معدات المناجم - فى باطن الارض - محل الخضرة والازهار
ومحل السماء الزرقاء والرعاة العاشقين والفلاحين الاشداء على سطوحها .

اننى اعترف أنه أسير للمرء أن يجمع الرمال والاحجار وأن يملأ بها
جيوبه ومكتبه ، وأن يضفى على نفسه بذلك سيماء دارس الطبيعة . أما
الذين يتعلقون بهذه الالوان من المجموعات ويقتصرون عليها فهم فى العادة
أغنياء جهلة لا يرومون من وراء ذلك سوى غرور المظهر . يجب على
المرء أن يكون كيميائيا ومن علماء الطبيعة كى يفيد من دراسة المعادن .
يجب القيام بتجارب شاقة باهظة التكاليف ، والعمل فى المعامل
وانفاق الكثير من المال والوقت بين الفحم والبواتق والافران والموجات ،
بين الدخان والابخرة الخائفة ، معرضا حياته للخطر على الدوام على حساب
صحته فى أغلب الامر . ومن وراء كل هذا العمل الكتيب المرهق يتأتى
عادة من المعرفة اقل بكثير مما يتأتى من الغرور . وابن هو اقل
الكيميائيين شأنا الذى لا يظن أنه قد استطاع أن يتغلغل فى أعماق العمليات
الكبرى للطبيعة لانه كشف - ربما عن طريق الصدفة - بعض التركيبات
الفنية الصغرى ؟

ان مملكة الحيوان أقرب إلينا من غيرها وهى تستحق كذلك من غير
شك أن تدرس دراسة أوفى . ولكن أليست لهذه الدراسة أيضا فى النهاية
صعوباتها وآمازقتها ومنفراتها ومتاعبها ولا سيما بالنسبة لمعتزل ليس له
أن يأمل فى عون أحد فى لهوه أو عمله ؟ كيف يمكن ملاحظة تشریح أو
درس أو التعرف على الطيور فى مساكنها والاسماك فى مساكنها والدواب
أخف من الريح وأقوى من البشر . . . التى لايزيد استعدادها لان تتقدم
لتعرض نفسها لباحثي عن استعدادى لمتابعتهما بغية اخضاعها عنوة
لدراستها ؟ واذن فستكون مصادرى القواقع والديدان والذباب وساقضى
حياتى لاهثا سعيها وراء الفراشات خارقا للحشرات النعسة ومشرحا
للفقران - حين أستطيع الحصول عليها - أو جيف البهائم التى قد أصادفها

ميتة • ان دراسة الحيوان لا تعد شيئا بغير التشريح إذ به يتعلم الانسان كيف يرتبها ويميز بين أنواعها وفصائلها ، ويجب أن تكون هناك حظائر وأحواض وزرائب كى تدرس من ناحية طبائعها وخصائصها ، كما يجب أن ترغم بطريقة كائنة ما تكون كى تبقى متجمعة حولي • انه ليس لدى من الميل أو الوسائل ما يمكننى من أن أحتفظ بها حبيسة ، كما انه ليست لدى الخفة اللازمة لتتبعها فى مراحها حين تكون طليقة • واذن فمن اللازم أن تدرس وهى ميتة وأن تقطع أوصالها وتنتزع عظامها وينقب بتؤدة فى أحشائها النابضة • يا له من جهاز كريبه ، معمل التشريح هذا ! فمن جثث عفنة ولحم رخو وسائل ••• ودم وأمعاء تثير الاشمئزاز وهياكل كريبه وأبخرة وبائية ! أقسم بشرفى أن جان جاك لن يلجأ اليها ليسعى وراء ملهاته فيها •

أيتها الزهور المتألثة •• يازينة المرامى ! أيتها الظلال الرطبة والجداول والاعراش والخضرة ! تقدمن لتطهير خيالى الملوث بكل هذه الامور الكريهة ! ان روحى اذ تقضى أمام كل الاحداث الكبار لم تعد تتأثر الا بالمحسوسات • انه لم يبق لى الا أحاسيس ، ولم يعد الالم واللذة فى هذه الحياة الدنيا يستطيعان أن ينالانى الا عن طريقها • اننى حين يجتذبني المبهج مما يحيطنى من أمور أناملها وأشهدها وأقارن بينها ثم أعرف أخيرا كيف أصنفها • ثم هانذا فجأة دارس نبات يحتاج الى أن يكونه من لا يود دراسة الطبيعة الا ليجد دائما أسبابا جديدة لتعشقها •

اننى لا أرمى البتة الى أن أتعلم فقد فات أو ان ذلك ، هذا الى أننى لم أر مطلقا ان كل ذلك العلم أسهم فى سعادة الحياة ، ولكننى أحاول أن أتزود بألوان من التسلية السارة الميسرة التى أستطيع أن أتذوقها فى غير عناء ، والتى تستطيع أن تلهينى عن متاعبى • لن يكلفنى شيئا أو يسبب لى ألما أن أتنقل متكاسلا من عشب الى عشب ومن نبات الى نبات لأفحصها وأقارن بين خصائصها المتباينة ولأسجل وجوه التشابه والاختلاف بينها ولألاحظ التنظيم النباتى بحيث أتتبع تطور هذه الادوات الحية والدور الذى تقوم به ، وبحيث أوفق أحيانا للكشف عن قوانينها العامة وسبب اختلاف تركيبها والغرض منه ، وبحيث أستسلم لسحر الاعجاب العارف بالفضل لليد التى جعلتنى أستمتع بهذا كله •

أن النباتات تبدو وكأنها قد نثرت بوقرة على الارض كما تنتثر النجوم فى السماء لتدعو الانسان - باغراء المتعة والفضول الى دراسة الطبيعة •• أما الكواكب فبعيدة عنا ويتطلب الوصول اليها وتقريبها لنا

معارف أولية وأدوات وآلات وسلالم بالغة الطول • أما النباتات فهي موجودة بالطبيعة هنا • انها تولد تحت أقدامنا وبين أيدينا - كما يقال - ولئن كان صغرى أجزائها الأساسية يحجبها أحياناً عن العين المجردة ، فإن الأدوات التي تكشف عنها ذات استعمال أبسر بكثير من الآلات علم الفلك • ان علم النبات هو مجال دراسة المعتزل الفارغ الكسول ، وان سنا مدببة وعدسة هما كل ما يلزمه من جهاز ليفحص النباتات • انه يتنزه ويتجول بحرية من شيء الى آخر ويستعرض كل زهرة باهتمام وفضول وما ان يبدأ في ادراك قواعد تركيبها حتى يتذوق في ملاحظتها لذة بغير ألم • • • شديدة مع ذلك - كما لو كانت قد تكلفت الكثير • ان في هذا الشاغل الفارغ سحراً لا يحسه المرء الا في هدوء العواطف الكامل ، ولكنه يكفي وحده عندئذ ليجعل الحياة سعيدة حلوة ، ولكن ، ما ان يخالطه دافع لمصلحة أو غرور اما لشغل وظائف أو لتأليف كتب • • أى أنه عندما لا يرغب المرء في التعلم الا بقصد التعليم ولا يستعشب الا ليقدم مؤلفاً أو معلماً حتى يتلاشى ذلك السحر الحلو فلا يعود يرى في النباتات سوى وسائل الهواية ولا يعود المرء يرى متعة حقة في دراستها ، فهو لا يريد بعد أن يعرف ولكنه يظهر أنه يعرف • والمرء في الغاب ، كأنما هو على مسرح الحياة ، مشغول بالعمل على اعجاب الناس به أو هو مقتصر على دراسة النبات في المكاتب أو الحديقة على الأكثر بدلا من ملاحظة النباتات في الطبيعة ، ثم لا يشغل نفسه الا بالطريقة والمنهاج وهما مادة خالدة للجدل لا تعرف بنبات جديد ولا تلقى أى ضوء حقيقى على التاريخ الطبيعى أو مملكة النبات • من هنا كانت الكراهية والاحقاد التى يثيرها التنافس على الشهرة لدى المؤلفين من علماء النبات على غرار ما يحدث بين العلماء الآخرين بل أكثر • وبتشويه تلك الدراسة المحبة ينقلونها الى داخل المدن والاكاديميات حيث لا يقل انحطاطها عما تنحط اليه النباتات المجلوبة التى يؤتى بها الى حدائق محبى الاستطلاع •

ولقد أسهمت استعدادات متباينة لتجعل من هذه الدراسة بالنسبة لى نوعاً من الهوايات يملأ الفراغ الذى خلفته كل الهوايات التى لم يعد لدى منها شيء • • انى أتسلق الصخور والجبال وأتوغل في بطون الوديان، وفي الغابات لأتوارى بقدر الامكان عن تفكير الناس وعن أذى الاشرار • وانه ليخيل الى وأنا فى ظلال الغابة أننى متشى ، حر ، هادى ، كما لو لم يعد لى من أعداء أو كأنما عملت أوراق أشجار الغابة على حمايتى من أذاهم كما تبعدهم عن ذاكرتى • واننى لأتخيل - فى جهالتى اننى حين أقصيتهم عن تفكيرى سوف لا يفكرون هم فى أيضا • أننى لأجد لذة كبرى فى هذا

الوهم حتى لا كاد أستسلم له كلية لو أن مركزي وضعفى واحتياجاتي كانت تسمح لي بذلك . وكلما أوغلت العزلة التي أحيا فيها في عمقها ، كلما كان من الضروري أن يملأ فراغها شيء ما ، فكل من يأباه خيالي أو تطرده ذاكرتي تشغل مكانه النباتات التلقائية التي تعرضها لعيني في كل ناحية الارض التي لم يسخرها الانسان . ان اللذة في الخروج الى الصحراء للبحث عن نباتات جديدة تطفئ على لذة الهروب من مضطهدي ، وما ان أصل الى مواطن لا أرى فيها أي اثر للناس حتى آنسهم الهواء في حرية أكثر كما لو كنت في ملجأ لا تلاحقني فيه بغضاؤهم .

اننى سوف أذكر طيلة حياتي استعشابا قمت به يوما من الايام في ناحية روبيللا Robaila جبل القاضي كلير (Clerc) . لقد كنت وحيدا وتوغلت في منحنيات الجبل وأخذت أتقل من غابة الى غابة ومن صخرة الى صخرة حتى بلغت ملاذا بلغ من انزوائه أننى لم أشهد في حياتي من قبل منظرا أكثر استيعاشا منه . كانت أشجار الشوح السوداء تختلط بأشجار الزان الضخمة التي تهاوى العديد منها من الشيشوخة وتشابكت ببعضها البعض حتى احتجزت هذا الملاذ بحواجز لا يمكن اختراقها ، وكانت بعض الفتحات التي تتخلل هذا الحاجز المظلم لا تعرض للناظر من ورائها سوى صخور قطعت عموديا وسوى هوى مخيفة لم أكن لأجرؤ على النظر اليها الا ان انبطحت على بطني . وكان اليوم والمصاصة وعقاب البحر يتردد صدى نعيها في صدع الجبال وكان يخفف مع ذلك من وحشة هذه العزلة قليل جدا من الطيور الصغيرة المعروفة . وقد وجدت هناك حشيشة السنان السباعية *Dentaire heptaphyllos* وبخور مريم (سيكلامان) *Cyclamen* وعش النحل (سرخس عش التمر) *Nidus avis* وعشبا من الاعشاب الراتنجية والخيمية يشبه البقدونس *Grand laserpitium* وبعض نباتات أخرى فتننتي وأدخلت السرور الى نفسي طويلا . ولكننى ، وقد سيطر على الطابع القوى لهذه الاشياء دون أن أشعر ، نسيت علم النبات والنباتات وجلست على حشيات من المساكية (رجل الذئب) *Lycopodium* والعشب الندى والطحلب وأخذت أحلم في مزيد من الراحة ، أرانى وكأنى في مأوى مجهول من العالم جميعا حيث لا يستطيع مضطهدي أن يتتبعني منه ، وسرعان ما خالطت ذلك الحلم نزعة غرور فكنت أقارن نفسي بأولئك الرحالة الكبار الذين يكتشفون جزيرة مهجورة ، وكنت أحدث نفسي في اعجاب قائلا : « لا ريب أننى أول كائن وصل الى هذا المكان » وكتب أجد فى شخصي (كولومب) آخر . وبينما أنا أختال فى هذا التفكير ، سمعت على مبعده قليلة منى قرقة ما خيل الى أننى أعرفها . فأصغيت ، وتكرر

الصوت نفسه وتضاعف فقامت من مكاني دهشا يجدوني الفضول ونفذت من خلال أجمة من الاعشاب في اتجاه مصدر الصوت ولاحظت وجود مصنع للجوارب في منخفض يبعد عشرين خطوة من المكان نفسه الذي كنت أحسبني أول من ارتاده .

ولست أستطيع أن أعبر عن الاضطراب الغامض المتناقض الذي أحسسته في قلبي عند هذا الاكتشاف ، كان أول ما انتابني شعور بالفرح حين وجدتني بين آدميين في مكان كنت أحسبني وحيدا فيه . ولكن هذا الاحساس - في أسرع من البرق - سرعان ما أفسح مكانا لشعور أليم أطول مدى كما لو كنت لا أستطيع في مغاور جبال الألب نفسها أن أفلت من القبضة القاسية لأولئك المتجسسين لتعديبي ، ذلك لأنني كنت واثقا تماما أنه ربما لم يكن هناك رجلان في هذا المصنع لم يسهما جديا في المؤامرة التي كان يتزعمها الواعظ (مومولين) Montmolin (١٥) والتي كان يحرك من بعيد دوافعها الأولى ، وسرعان ما أبعدت هذا الحاطر الكئيب وانتهى الامر بي الى أن أضحك في سريرتي وأضحك من غروري الصبيان ومن الطريقة الهزلية التي عوقبت بها من أجله .

ولكن في الواقع من ذا الذي كان يتوقع أن يجد مصنعا في هوة سحيقة ؟ انه ليست هناك في العالم سوى سويسرا التي تستطيع أن تعرض هذا الخليط من الطبيعة البرية والصناعة الانسانية . وليست سويسرا بأكملها - على حد القول - سوى مدينة كبيرة ، شوارعها أكبر وأطول من شوارع سانت أنطوان Saint-Antoine تنتشر فيها الغابات وتخللها الجبال وتصل الحدايق الانجليزية ما بين بيوتها المتناثرة المنعزلة عن بعضها وبهذه المناسبة تذكرت استشعابا آخر كان دي بيرو du Peyrou وديشرني d'Escherny والكولونيل بيوري colonel Pury والقاضي كلير justicier Clere وأنا ، قد قمنا به منذ وقت على جبل Chasseron شاسيرون (٢) الذي يكشف المرء من قمته سبع بحيرات . وقد قيل لنا انه لم يكن هناك فوق هذا الجبل سوى بيت واحد ولم يكن في استطاعتنا التكهن على وجه الدقة بمهنة ساكنه لو لم يضاف الى ذلك القول بأنه كان

(١) كانت خطبة الواعظ مومولين Montmolin ضد روسو سببا في خروج أهل موتييه Môtiers غاضبين فالتقوا بالحجارة على نوافل بيت روسو في اليوم الاول من سبتمبر عام ١٧٦٥ .

(٢) لا يقصد هنا جبل شاسيرون Chasseron بل شاسيرال Chasseral ومن هذا الجبل يمكن مشاهدة البحيرات السبع .

كتبيا وأنه كان يباشر أعماله كذلك بنجاح كبير في الاقليم . ويختل الى أن واقعة واحدة من هذا النوع تعرفنا بسويسرا أكثر من كل ما يقدمه المسافرين من أوصاف .

وهاك واقعة أخرى من هذا النوع - أو تكاد - ليست أقل تعريفا لنا بشعب مختلف عنا تماما : ذلك أنه خلال اقامتي في جرونوبل Grenoble كثيرا ما كنت أقوم باستشعابات صغيرة خارج المدينة مع السيد بوفيه Bovier (١) المحامي بذلك الاقليم لا لأنه كان يحب علم النباتات أو كان على دراية به ، ولكن لأنه نصب من نفسه حارسا لي وآلى على نفسه ألا يتركني خطوة واحدة ما استطاع الى ذلك سبيلا . وذات يوم كنا نتنزه على ضفة نهر الايزير L'Isère في منطقة خافتة بالصفصاف الابري ورايت على هذه الشجيرات فاكهة ناضجة ، وتملكني الفضول لتذوقها ، ولما وجدت بها بعض الحموضة التي راقت لي جدا ، أخذت آكل من هذه الثمار لانهش نفسي . وكان السيد بوفيه واقفا الى جوارى دون أن يقلدني ودون أن يقول شيئا . وفجأة أقبل أحد اصدقائه الذي ما أن رأيته التقط هذه الثمار حتى قال : ايه يا سيدى ! ما هذا الذي تفعله ؟ ألا تدري أن هذه الفاكهة سامة ؟ فصحت دهشا جدا : هذه الفاكهة سامة ! فأجاب : ما في ذلك من ريب ، وكل الناس يعلمون ذلك تماما حتى أن واحدا من الاقليم لم يفكر في تذوقها. فنظرت الى السيد بوفيه وقلت له : لم اذن لم تنبهني الى ذلك ؟ فأجابني باحترام قائلا : آه يا سيدى ! اننى لم أكن أجروؤ لأسمح لِنفسي بهذه الحرية . فأخذت أضحك من هذا التواضع الخاص بمقاطعة دوفينييه Dauphiné وأنا أتوقف مع ذلك عن الاستمرار في تناول هذه الوجبة الصغيرة . وكنت مقتنعا - كما لا أزال - أن كل انتاج للطبيعة مستساغ الطعم لا يمكن أن يسبب اذى للجسم ، أو هو - على الاقل - لا يؤذيه الا بالافراط فيه . ومع ذلك فأعترف أننى طاوعت نفسي قليلا ببقية اليوم وأن خالط ذلك بعض القلق وتناولت وجبة عشاء في شهية كبيرة ونمت خيرا من ذلك وصحوت في الصباح وأنا أكمل ما أكون صحة بعد أن التهمت في اليوم السابق خمس عشرة أو عشرين ثمرة من ذلك الغاسول الرومى hippophoeه الفطيع الذى تكفى منه كمية ضئيلة جدا للتشم ، على نحو ما قاله لي

(١) رواية المحامي بوفيه Bovier حوالى عام ١٨٠٢ تختلف عن رواية روسو ، وذلك في A. Jevy : Un document inédit sur le séjour de J.J. Rousseau à Grenoble en 1768 Vitry — le — Français, 1898, p.p. 42 - 8,

اذ يقول فيها انه لم يقرأ تفسير روسو لتلك الحادثة الا بعد نشر « الاعترافات » التى تلها « احلام اليقظة » .

الجميع قى جرنوبل فى اليوم التالى . وقد بدت لى تلك المغامرة من الطرافة بحيث لا أذكرها أبدا دون أن أضحك من الحذر المستغرب الذى أبداه السيد بوفيه المخامى .

كانت كل جولاتي لدراسة النبات والانطباعات المختلفة لمواطن الاشياء التى أثرت فى ، والافكار التى بعثتها فى نفسى ، والاحداث التى خالطتها ، كل ذلك خلف فى نفسى انطباعات تتجدد بمشاهدة النباتات التى تستعشب من تلك المواطن نفسها .

اننى سوف لا ارى مطلقا هذه المناظر الريفية الرائعة وهذه الغابات وهذه البحيرات وهذه الاعراش وهذه الصخور وهذه الجبال التى طالما مست رؤيتها شغاف قلبي . أما الآن وأنا لا أستطيع بعد أن أجوب هذه البقاع السعيدة فلست أملك سوى أن أفتح معشبي وسرعان ما ينقلني اليها . ان أجزاء النباتات التى جمعتها منها تكفى لتذكرني بذلك المشهد الرائع . ان هذا المعشب بالنسبة لى بمثابة يوميات استعشاب تجعلني أعاوده بسحر جديد ، ولها من الاثر ما هو بمثابة المنظر الذى يعيد تصويرها أمام عيني .

هذه هي سلسلة الافكار الثانوية التى تربطني بعلم النبات . انها تجمع وتعيد الى خيالى كل تلك الافكار التى تزيد من ارضائه . فالراعى والامواه والغابات والعزلة ثم السلام بصفة خاصة والراحة التى يلقيها المرء خلال هذا كله . . انها جميعا تعاد الى ذاكرتي باستمرار عن طريق هذه السلسلة من الافكار الثانوية . . وهي تجعلني أنسى اضطهادات الناس وكراهيتهم واحتقارهم وامتهاناتهم وكل الآلام التى قدموها ثمنا لتعلقى الحنون الصادق بهم . . انها تنقلني الى ديار هادئة بين قوم بسطاء طيبين كاولئك الذين عشت معهم فى سائف الزمان . . انها تذكرني بأيام شبابي ومتعى البرية ، وتجعلني أستمتع بها من جديد ، وهي غالبا كذلك ما تجعلني سعيدا فى ثنانيا قدر أشد ما يكون نكدا يمكن أن يكون قد ابتلى به انسان .

الجلوة الثامنة

كلما أمعنت الفكر فى حالات نفسى وفى كل مواقف حياتى ، أذهنتنى
للمفاية أن أرى مبلغ ضالة التناسب بين تدابير قدرى المختلفة وبين مشاعرى
المعتادة - من هناء أو شقاء - التى اعترتنى بسبب تلك المواقف . ان
الفترات المختلفة لهنائى القصير لم تترك لى تقريبا أية ذكرى حلوة
للاحاساس الكامن المقيم الذى كانت تؤثر على به ، بل وعلى العكس من ذلك
كنت أحسننى على الدوام ، خلال ما انتاب حياتى من مكاره ، مفعما بمشاعر
رقيقة مثيرة حلوة ، كانت تبدو - وهى تسكب بلسما شافيا على جراح
قلبى المضى - وكأنما تحول الالم الى لذة تعاودنى ذكرها المحبة وحدها
مخجرة من ذكرى الالم التى كنت أستشعرها فى الوقت نفسه . انه يخيل
الى اننى تذوقت من حلوة الوجود أكثر مما عشت حقيقة ، وذلك حين
صحت يد القدر - كما يقال - مشاعرى حول قلبى . فلم تكن لتبدد
خارجة حول أمور هى موضع تقدير الناس لا تستحق لدايتها منه سوى
القليل وهى الشغل الشاغل لأناس يظن أنهم سعداء .

حين كانت الامور منتظمة من حولى ، وحين كنت راضيا عن كل
مايحيط بى وعن الوسط الذى كان على أن أعيش فيه ، كنت أملؤه بمحبتى .
وكانت روحي الفياضة ترفرف فوق أشياء أخرى . ولما كان يباعد بينى
وبين ذاتى ألف لون من الميول عن طريق روابط الود التى كانت تحتل قلبى
على الدوام ، كنت أتناسى نفسى بصورة ما وكنت أفرغ كلية لكل مااستغرب
من أمر على ، وكنت أحس فى اضطراب قلبى المستمر بكل تقلبات الامور
الانسانية . ان هذه الحياة العاصفة لم تدع لى سلاما فى الداخل أو راحة
فى الخارج . كنت سعيدا فى مظهرى ولم تكن لدى عاطفة تقوى على
احتمال محنة التفكير أستطيع بها حقا أن ارضى عن نفسى . اننى لم
أستشعر قط رضا كاملا عن الآخرين أو عن نفسى ، كان صخب الناس
يطيش صوايى وكنت أضيق بالعزلة . كنت دائما فى حاجة الى تغيير
المكان ولم أكن أحس بالراحة فى أى مكان . ومع ذلك فقد كتبت موضع
الترحيب وكان الناس يودوننى ويحسنون استقبالى ويدلوننى فى كل

مكان ٠٠٠٠ لم يكن لى من عدو أو حقود أو حسود ، ولما كان الناس لا يسعون الا لاسداء المعروف لى ، فأننى غالبا ما كنت أحسن بلذة اسداء المعروف لكثير من الناس . كنت بغير مال أو وظيفة ولم يكن هناك من يرعانى ولم تكن لدى مواهب كبيرة أحسنت تنميتها أو التعرف عليها ، وكنت أستمتع بالمزايا المتصلة بذلك كله ولم أك أرى أحدا فى أية حال له من الحظ أفضل من حظى ، واذن فماذا كان ينقصنى لأكون سعيدا ؟ اننى لاجهل ذلك ، ولكننى أعلم أننى لم أكن سعيدا . ماذا ينقصنى اليوم لأكون أتعس الخلق طرا ؟ لا شىء من كل ما استطاع البشر اضافته من عنده للوصول الى ذلك . واذن ففى هذه الحالة التى تستحق الرثاء لن أغير كذلك من حالى أو قدرى مقابل أسعدهم حظا بل اننى أفضل أكثر من ذلك لو ظلمت أنا نفسى بكل شقوتى على أن أكون أيا من أولئك الناس بكل هنائهم . وباقتصادى على نفسى وحدى ، فأننى أغتذى حقاً على الغذاء الخاص بى . ولكن هذا الغذاء لا ينفد . اننى أكفى نفسى بنفسى ولو أننى اجتر - كما يقال - على لا شىء ، وإن خيالى الذى نضب وأفكارى التى خمدت لم تعد تمد قلبى بزاد . ان روحى المشقة التى تعطلها أعضائى تنهار يوما بعد يوم ولم يعد لها - تحت وطأة هذه الانتقال - من قوة تستطيع معها ان تنطلق ، كما كان العهد من قبل ، خارج ردائها البالى .

ان هذا الرجوع الى أنفسنا هو ما تضطرننا اليه الشدائد ولعل ذلك ما يجعلها أقل ما تكون احتمالا لدى معظم الناس . أما بالنسبة لى - أنا من لا أجد فى لوم نفسى سوى هفوات - فأننى أتهم ضعفى من أجلها ، وأتعزى لان شرا مدبرا لم يخامر قلبى قط .

ومع ذلك - فما لم أكن غيبيا - انى لى أن أتأمل موقفى لحظة واحدة دون أن أراه كذلك مريعا كما شاء لهم أن يجعلوه ، ودون أن أقضى حزنا وبأسا ؟ اننى بدلا من ذلك ، وأنا أشد الناس حساسية ، أتأمله ولا أتأثر له ، كما أننى بغير صراع أو مجاهدة مع ذاتى أرى نفسى بغير مبالاة تقريبا فى حال قد لا يستطيع أى انسان آخر أن يحتمل مشهدها دون فزع .

كيف وصل بى ذلك الى هذا المدى ؟ لقد كنت أبعد ما أكون عن هذه الحالة الآمنة لدى أول شك فى المؤامرة التى حيكت خيوطها من حولى منذ امد بعيد دون أن أتنبه اليها مطلقا . لقد قلب هذا الاكتشاف الجديد كيانى رأسا على عقب ، وفاجأتنى النبذلة والحيانة على حين غرة . ترى أية نفس فاضلة هيئت لهذه الألوان من العذاب ؟ انه كان يجب أن تستحقها

حتى تنبأ بها . لقد سقطت في كل الشراك التي حفرت تحت أقدامى ، واستحوذ على الغيظ والغضب والهذيان ففقدت اتزانى . لقد اضطرب عقلى ، ومن خلال غياهب الظلمات الموحشة التى لم يكفوا عن ابقائى مفرقا فيها . . لم أعد المح بصيصا من النور أهتدى به أو سندا أو متنفسا أستطيع بهما أن اظل ثابتا وان اقاوم اليأس الذى كان يشدنى اليه .

كيف يستطيع المرء أن يعيش سعيدا وهادئا في مثل هذه الحالة البشعة ؟ اننى لا أزال أعانيها ولا أزال غارقا أكثر من ذى قبل . ولقد وجدت فيها الهدوء والسلام وهانذا أعيش فيها سعيدا آمنا وهانذا أسخر مما ينسبني مضطهدى لانفسهم من عذاب مقيم ، لا يستطيع تصديقه . في حين أنا احيا في سلام مشغولا بالازهار ونصالها والهو البريء . بل ولا أفكر فيهم .

فكيف تم هذا الانتقال ؟ لقد تم ذلك طبيعيا ، دون أن أشعر وبغير مشقة . لقد كانت المفاجأة الاولى مروعة ، لقد وجدتني أنا الذى كنت أحسب نفسى جديرا بالحب والتقدير ، أنا الذى كنت أعتقد اننى مبجل معزز لاننى كنت أستحق ذلك . . لقد وجدتني فجأة في اهاب وحش مرعب لم يك له من قبل ضريب .

اننى لارى جيلا كاملا يندفع بأسره نحو اعتناق هذا الرأى العجيب دون تفسير أو شك أو خجل ، ودون أن أستطيع أن أصل قط الى معرفة عللة هذا الانقلاب الغريب . لقد ناضت في عنف ، وكأنا لم أعمل الا على احكام قيدي . لقد أردت أن اضطر مضطهدى الى التفاهم معى ، ولكنهم لم يأبهوا ، وبعد أن طال تعذيبى دون نتيجة كان لابد لى من أن استرد أنفاسى ، ومع ذلك فقد ظل الامل يراودنى دائما . وكنت أحدث نفسى قائلا : « ان خيلا على هذا القدر من التبدل . . وتمنعا على هذا القدر من السخف ، لا يستطيع أن يشتمل الجنس البشرى قاطبة ، فهناك ذوو عقول لا يسهمون فى هذا البنيان ، وهناك نفوس عدول تمقت المخاتلة والخونة . فلأبحث على القى فى نهاية المطاف انسانا فان وجدته فقد « أفحموا » لقد بحثت عينا ولكننى لم أجده مطلقا . ان التحالف شامل بغير استثناء أو رجعة واننى لوائق من أننى سأختتم حياتى فى هذا المعزل المخيف دون أن أنفذ أبدا الى خفائه .

اننى فى هذه الحالة التى تسمتتح الرثاء ، بعد مخاوف طويلة ، وجدت بدلا من اليأس الذى كأنما كان يجب أن يكون نصيبى فى نهاية الامر ، وجدت من جديد الصفاء والأمن والسلام بل السعادة ما دام كل يوم من

أيام حياتي يذكرني في غبطة بالامس الدابر حتى لا أطمع في غدى في أكثر من ذلك

من أين يأتي هذا الاختلاف ؟ من أمر واحد : ذلك انني تعلمت كيف أحمل نير الحاجة دون تدمير ، ذلك انني كنت أجهد في أن أظل متعلقا كذلك بألف شيء ، وانه حين أفلتت مني تلك الدعائم تباعا واقتصرت على نفسي وحدي لقيت الاستقرار أخيرا . أما وقد ضيق على الحناق من كل جانب فأنني أحفظ بتوازي لانني لا أعلق بشيء بعد ولا أعتمد على غير ذاتي .

انني حين كنت أثور في كثير من الحماس ضد الرأي العام كنت أحمل كذلك نيره دون أن أظن الى ذلك . ان المرء ليود أن ينال التقدير ممن يقدرهم ، وكلما استطعت أن أظن بالناس ، أو ببعضهم على الأقل خيرا لم يكن ممكنا أن أهمل آراءهم كذلك بالنسبة لي . لقد كنت أرى أن حكم الرأي العام عادل في أغلب الامر ، ولكنني لم أكن أرى أن تلك العدالة نفسها كانت نتيجة مصادفة ، وأن الأسس التي يقيم عليها الناس آراءهم ليست مستمدة الا من أهوائهم أو من معتقداتهم التي هي ثمرتها (أي الآهواء) ، وانه حتى عندما يصيبون في أحكامهم فانه غالبا ما تصدر كذلك هذه الاحكام الصائبة عن مبدأ فاسد كما يحدث عندما يتظاهرون بتشريف قدر امرئ لنجاح وصل اليه ، لا بروح من العدالة ولكن ليتخذوا مظهر عدم التحيز وهم يغتابون نفس الشخص من نواح أخرى كما يروق لهم .

ولكنني حين رأيتهم - بعد كل هذا البحث الطويل العقيم - يظنون جميعا بغير استثناء في أشد النظم ظلما وسخفا استطاعت روح الشر أن تنشق عنها . . . وحين رأيت انه عندما يتعلق الامر بن يطرد العقل من الرؤوس والعدالة من القلوب جميعا ، وحين رأيت جيلا متهورا يستسلم بأسره لغضبته قادته العمياء ضد تعس لم يرتكب أبدا ، ولم يرد ، ولم يسبب أذى لإنسان ، وحين - بعد أن جهدت عشا في البحث عن انسان ، كان من الواجب على في نهاية الامر أن أطفئ سراجي وأصبح قائلا : لم يعد هناك بعد من انسان . عندئذ بدأت أراني وحيدا على الارض وأدركت أن معاصري لم يكونوا بالنسبة لي سوى كائنات آلية لا تصرف الا بقوة الاندفاع التي لم أكن بمستطيع أن أقوم بعملية حسابية لحركتها الا عن طريق «قوانين الحركة» . ان أية نية أو أية عاطفة كنت أستطيع افتراضها في نفوسهم لم تك أبدا لتفسر لي مسلكهم نحوي في صورة أستطيع أن أدركها ، ومن ثم توقفت دخائل نفوسهم عن أن تكون شيئا ما بالنسبة لي . انني لم أعد أرى فيهم سوى كتل متساوطة الحركة مجردة أمامي من كل قيمة خلقية .

اننا ننظر أكثر ماننظر حين يصيبنا الأذى الى النية أكثر من نظرنا الى الأثر . ان قطعة من القرميد تسقط من سقف قد تكون أصابتها أشد ، ولكنها لا تسبب من الأيلام ما تسببه قطعة من الحجر تسدد عن قصد بيد شريرة . ان الضربة قد لا تصيب الهدف أحيانا ولكن القصد لا يخطئ مراما ابدا . فالآلام الحسى هو أقل ما يحسه المرء من أصابات القدر . وحين لا يعرف الاشقياء الى من يعززون ما يحسون من شقاء فانهم ينسبون الى القدر الذى يمثله شخصاً ، والذى يعبرونه عيونا وادراكا يستطيع بها الأيلامهم عن قصد . وهكذا يستشيط اللاعب غيظا حين يصيبه الغم من جراء الحسارة دون أن يدري على من يصب جام غضبه . انه يتخيل قدرا يتعمد التحرش به عامدا لا يلامه ، وحين يجد ما يغذى غضبه ، يحتد وتشتعل ثورته ضد العدو الذى توهمه . أما الرجل العاقل الذى لا يرى فى كل ما يحل به من رزايا سوى ضربات الضرورة العمياء فانه لا تقتريه هذه الاهتياجات المجنونة . انه يصرخ فى آله ولكن دون هياج وبغير غضب ، وهو لا يحس من الألم الذى غدا فريسة له بغير الإصابة المادية ، أما الضربات التى يتلقاها فمهما أصابت جسده فانها لا تصل قط الى قلبه .

انه لكثير أن يصل الامر فى ذلك الى هذا الحد ، ولكن ليس هذا كل شيء ان توقف عنده . ان فى هذا ايقانا للآلام ولكن ذلك يعنى ترك الجذور ذلك لان هذه الجذور ليست فى الكائنات الغريبة عنا بل هى فى ذاتنا وهنا يتحتم العمل على اقتلاعها نهائيا . ان ذلك هو ما استشعرته جليا منذ بدأت أعود الى نفسى . ان عقلى لا يرى سوى سخافات فى كل التفسيرات التى كنت أحاول أن أرجع اليها كل ما يحل بى . اننى أدركت أن أسباب هذا كله وأدواته ووسائله كان يجب أن تكون عدما بالنسبة لى ما دامت مجهولة لدى ولا استطاع تفسيرها ، وانه كان يتعين على أن أعد تفاصيل ماحل بى كما لو كانت من فعل القدر وحده ، وما كان على أن افترض توجيهها أو قصدا أو دافعا خلقيا ، وانه كان يجب على أن أخضع لها دون تفكير ودون تمرد لان ذلك لم يكن مجديا ، وان كل ما كان على كذلك أن أقوم بعمله فى هذه الدنيا ، اذ اعتبر نفسى فيها ككائن سلبى سلبية مطلقة ، هو اننى يجب ألا أستنفد فى مقاومة غير مجدية لقدرى ما كان باقيا لى من قوة تعيننى على احتماله . ذلك ما كنت أحدث نفسى به وكان عقلى وقلبى يؤمنان عليه ، ومع ذلك فقد كنت أحس بهذا القلب لا يزال يتذمر . . من أين جاء هذا التذمر ؟ لقد بحثت عنه ووجدته ، ان مصدره عزة النفس التى - بعد ان استثيرت ضد الناس - ظلت تقاوم العقل .

ان هذا الكشف لم يكن من السهولة بالقدر الذى قد يظنه المرء لان برينا مضطهدا يظل طويلا ينظر الى زهو فرديته الضئيلة كأنما هي حب مجرد للعدالة . ولكن ما أن يعرف كذلك النبع الحقيقى معرفة تامة حتى يغدو من اليسير انضابه أو - على الأقل - تحويله . ان احترام المرء لنفسه هو أكبر محرك للنفس العزيزة، كما أن حب الذات - الغرير فى أوهامه - يتخفى ليتبدى للمرء وكأنما هو هذا الاحترام للنفس ، ولكن بما أن ينكشف ذلك الغش فى نهاية الامر ، ولا يعود حب الذات يستطيع أن يستخفى ، حتى لا يعود هناك اذ ذاك ما يخشى منه ، ومع أن المرء يقضى عليه فى صعوبة الا أنه يقهره على الأقل فى سر .

انه لم يكن لدى أبدا ميل كبير للاعتداد بالنفس ولكن هذه العاطفة المصطنعة كانت تتوقد غي نفسى حينما كنت فى المجتمع وبخاصة حين غدوت مؤلفا . ربما كان حظى منها لا يزال أقل مما لدى غيرى ومع ذلك فقد كان لدى منها قدر هائل .

ان الدروس القاسية التى تلقيتها سرعان ما احتجزته فى حدوده الاولى انه (أى الاعتداد بالنفس) ابتدأ بالثورة ضد الظلم ولكنه انتهى بأن احتقره . وهو بانعكاسه على روحى وبقطعه للعلاقات الخارجية التى تجعله كثير المطالب وبغزوفى عن المقارنات والمفاضلات قنع بأن أكون طيبا بالنسبة لنفسى ، وعندئذ - وقد أصبح (الاعتداد بالنفس) حبا لذاتى - انتظم فى سلك الطبيعة ثانية وخلصنى من نير عرف المجتمع .

منذ ذلك الوقت استعدت سلام الروح بل وما يكاد يكون الهناء بعينه ، ذلك لانه فى أى موقف يجد المرء نفسه ، فانه لا يشقى دائما الا بسببه (الاعتداد بالنفس) وحين يصمت ، والعقل يتكلم ، فان العقل يعزينا فى نهاية الامر عن كل الآلام التى كان تجنبها يتوقف علينا بل وانه يقضى مادامت لا تؤثر علينا فورا ، ذلك انه من المؤكد عندئذ ان المرء يستطيع أن يتجنب أشد أصاباتها ايلاما بالكف عن الاهتمام بها . أنها لا شئ بالنسبة لمن لا يفكر فيها . ان الاساءات والاحن وهضم الحقوق والاهانات والمظالم ليسب شيئا لمن لا يرى فى الآلام التى يقاسيها سوى الألم نفسه ، لا النية فيه ، ولن لا تعتمد مكانته فى تقديره الشخصى على ما يروق للآخرين أن يأذنوا له به . وكيفما يود الناس رؤيتى فانهم سوف لا يستطيعون تغيير ذاتى . اننى برغم قوتهم وبرغم كل دسائسهم الدفينة سأظل - مهما فعلوا - كما انا ، بالرغم منهم . حقا ان ميولهم من ناحيتى تؤثر على مركزى الفعلى . ان الحاجز الذى أقاموه بينهم وبينى بسببى كافة موارد القوت والمعونة فى شيخوختى وعوزى . انه يجعل

من المال نفسه شيئا غير ذى نفع مادام لا يقوى على أن يوفر لى المطالب
الضرورية . أنه لم تعد هناك صلات ولا مساعدات متبادلة ولا مراسلات بينهم
وبينى . أما وقد غدوت وحيدا بينهم فانه لم يعد لى من مورد سوى ذاتى فقط .
وهذا المورد شحيح فى سنى هذه وفى الحالة التى أنا عليها . ان هذه
الآلام بالغة ولكنها فقدت كل وطأتها على منذ عرفت كيف أحتملها دون أن
أثور بسببها . ان النواحي التى نستشعر فيها الحاجة الملحة نادرة دائما ،
ويضاغف منها التبصر والخيال ، وان المرء يستشعر القلق ويشقى نفسه
بسبب استمرار هذا الاحساس . وأما بالنسبة لى فهمها أعلم أننى سأقاسى
فى الغد فانه يكفى ، لأكون هادئا ، ألا أقاسى اليوم . اننى لا أثار اطلاقا
مما أتوقعه من شر ولكن فقط مما أحس ، وذلك ما يجعله أمرا تافها ، ومادمت
وحيدا ومريضا ومهملًا على سريرى ، فأننى أستطيع أن أموت فوقه . فاقة
وبردا وجوعا دون أن يشق ذلك على أحد . ولكن ما أهمية ذلك ان لم
يشق على أنا نفسى ، وكان اهتمامى بمسيرى ، مهما يكن ، أقل من اهتمام
الآخرين به ! أليس هذا عبثا ، وعلى الاخص فى سنى هذه ؟ اننى تعلمت
أن أرى بغير اكتراث الحياة والموت والمرض والصحة ، والغنى والفقر ،
والمجد والعار على السواء . ان الشيوخ الآخرين جميعا يتوجسون من كل
شئ ، وأما أنا فلا يقلقنى أى شئ ، اذ يستوى لى كل ما يستطيع أن يحل
بى ، وليس عدم المبالاة هذا ثمرة حكمتى ولكنه من عمل أعدائى اذ هو
يصبح تعويضا عن الآلام التى يسببونها لى ، أما وقد جعلونى لا أثار
بالشدائد فانهم أحسنوا الى أكثر مما لو أنهم جنبونى رمياتها ، فقد كنت
سأظل أتهيبها مادمت لم أجربها بدلا من أن أقهرها فلا أعود أخشأها .

ان هذا الميل يسلمنى ، وأنا بين ما يعترض حياتى من صعاب ، الى
اهمال ذاتى اهمالا يكاد يكون مطلقا كما لو كنت أحيأ أحيانا حياة رضية
تماما . وفيما عدا اللحظات القصار التى يردنى فيها وجود الاشياء الى أشد
ألوان الحيرة الموجهة ، فانه فيمابقى من زمن - وقد أسلمتنى ميولى الى
المواظف التى تجتذبنى - يغتذى قلبى كذلك على المشاعر التى كان مخلوقا
من أجلها فاستمتع بها مع الكائنات الخيالية التى تخلقها ، والتى تنقاسمها
كما لو كانت تلك الكائنات موجودة فعلا . انها كائنة بالنسبة لى أنا من
خلقتها ، فانا لا أخشى أن تخوننى أو تهجرنى ، انها ستظل قائمة ، مادامت
شعوتى ، وستكون كقيلة . بأن تنسينى اياها .

ان كل شئ يعود بى الى حياتى السعيدة الحلوة التى ولدت من أجلها :
اننى أقضى ثلاثة أرباع حياتى اما مشغولا بأمور ثقافية ، لطيفة مع ذلك ،
أسلم لها فى لذة فكرى وحواسى ، أو فى صحبة بنات خيالى التى خلقتها

وفق رغبة قلبي ، والتي يفدى اتصالي بها مشاعره ، أو مع نفسي فقط راضيا عن ذاتي وقد أعممت هناء أحس أنني أستحقه . كان حبي لذاتي في هذه الامور جميعا يقوم بكل المهمة ، أما عزة النفس فليس لها دخل في ذلك . وليس الامر كذلك في اللحظات الكثيرة التي أقضيها كذلك بين الناس العوبة للملاطفاتهم الخداعة ومجاملاتهم المنتفخة الفارغة ومكرهم المعسول . وعلى أي وجه تلقيتها فانه كان للكرامة عندئذ دورها . فالكرامية والضغينة اللتان أشبههما في قلوبهم من خلال هذا الغلاف الغليظ تمزقان قلبي أسي ، هذا الى أن انسياقهم في غباء وراء فكرة اعتباري مغفلا تضيف الى هذا الاسي كذلك قدرا تافها من الفهم هو ثمرة اعتداد بالنفس ابله ، أحس بكل حماقته وان كنت لأستطيع التغلب عليه . ان الجهود التي بذلتها لاتجلب أمام نظراتهم الشامتة والهازئة لا يمكن تصورها . لقد مرت مائة مرة بالمتنزعات العامة وبالأماكن التي يكثر تردد الناس عليها وليس لي من هدف سوى رياضة نفسي على هذه المعارك المريعة ولكنني لم أعجز عن الوصول الى ذلك فحسب بل انني لم أتقدم البتة كذلك ، وقد خلقتني كل جهودى المضنية ، الفاشلة مع ذلك أيضا ، وقد أصبحت كما كنت من قبل من السهل ازعاجي واغاضتي واثارتني .

وحين كانت تسيطر على حواسي لم أكن أستطيع اطلاقا - مهما فعل - ان أقاوم انطباعاتها ، ولطالما أثر الشيء عليها (على الحواس) فان قلبي لا يفتأ يتأثر بها ، ولكن تلك العواطف العابرة لاتدوم الا بقدر ما يدوم الاحساس الذي يسببها . ان وجود الرجل الحقود يؤثر في تأثيرا عنيفا ، ولكن ما ان يختفي حتى تتوقف الانطباعة ، وحالما لا أعود أراه . لا أفكر فيه بعد ، ومهما أعلم انه سيشغل بي فلن أستطيع أن أشغل به .

ان الالم الذي لأحسه الآن مطلقا لا يؤثر في على أي وجه ، وان مضطهدا لأراه مطلقا ، هو لاشيء بالنسبة لي . انني أحس فضل ما يضيفه هذا الموقف على من يتصرفون في مصري . فليتصرفوا اذن كما يروق لهم بل انني أفضل كذلك أن يعذبوني دون مقاومة على أن أكره على التفكير فيهم لأحتمي من ضرباتهم .

ان تأثير حواسي هذا على قلبي يسبب العذاب الوحيد في حياتي . انني حيث لا يقع نظري على انسان لأفكر البتة في مصري فلا أعود أحس بهذا المصير ولا أعود أتألم . انني سعيد وراض حين لا يكون هناك شاغل أو عقبة ، ولكنني نادرا ما أفلت من ضربة محسوسة ، وحين يكون تفكيري فيه ضئيلا فانه تكفي لأزعاجي ايماءة أو نظرة حقد الملحأ أو كلمة مسمومة تلتقطها أذني أو خبيث الفأه ، وكل ما أستطيع عمله في مثل هذه الحالة

أن أنسى سريعا جدا وأن أهرب . ان اضطراب قلبى يختفى باختفاء دافع الاضطراب وأعود الى السكينة حالما أكون وحيدا . ولئن أقلقنى أمر ما فهنا الخوف من أن ألقى فى طريقى أمرا جديدا موجعا ، وعندئذ يكون عذابى الوحيد ، ولكنه يكفى ليبدل من سعادتى . اننى أقطن فى وسط باريس ، وعند خروجى من منزلى أتحتسر على الريف والوحدة ، ولكن ، على أن أبحث عنهما بعيدا حتى انه قبل أن أستطيع أن أتنفس كما أشاء أجد فى طريقى ألف شيء يعتصر قلبى . وينقضى نصف النهار فى هموم قبل أن اصل الى الملاذ الذى أسعى اليه وأكون سعيدا على الاقل اذا ما تركت أكمل طريقى . ان اللحظة التى أفلتت فيها من موكب الاشرار لى لحظة ممتعة ، وحالما أجد نفسى تحت الاشجار وسط الخضرة أحسب اننى فى جنة على الارض واتذوق متعة داخلية قوية كما لو كنت أسعد الاحياء طرا .

اننى لأذكر تماما أنه خلال فترات هنائى القصار كانت هذه الجولات الانفرادية نفسها التى أجدها اليوم بهذه المتعة ، لاطعم لها بل وتثير ضيقى وحين كنت فى زيارة أحد الناس بالريف كانت تدفعنى الحاجة الى القيام بشيء من الرياضة وتنفس الهواء الطلق الى الخروج وحيدا فى أغلب الامر فكنت أخرج للتنزه - هاربا كلس - منطلقا الى الحدائق أو الريف . ولكن بدلا من أن أجد فيها الهدوء الممتع الذى أتذوقه فيها اليوم كنت أحصل اليها ثورة الافكار التافهة التى كنت اشغل بها فى المجتمع ، وكانت تلاحقنى هناك ذكرى الرفاق الذين خلفتهم ورائى . وفى عزلتى كانت عنجهية عزة النفس وصخب الناس تطفئ فى ناظرى نضارة الأعراش وتزعج أمن الانعزال . ومهما كنت أوغل هاربا فى أعماق الغابة كانت تلاحقنى جيشما ذهبت جماعة ثقيلة فتجذب عنى الطبيعة جميعا . ولم يحدث اننى عدت فوجدتها بكل مفاتها الا بعد أن تخلصت من العواطف الاجتماعية ومن موكبها التعس .

ولما كنت مقنعا باستحالة اشتمالى لهذه الحركات البدائية غير الارادية ، فقد كففت عن بذل جهودى فى هذا المضمار . اننى أدع دى يتقد ، والغضب والاستنكار يستحوذان على حواسى لدى كل لطعة . اننى أترك للطبيعة هذا الانفجار الاول الذى لم تكن قواى جميعا لتستطيع إيقافه أو تعطيله . اننى أحاول فقط إيقاف ما يستتبعه ذلك قبل أن يكون له أى أثر . ان العيون التى يتطاير منها الشرر ، واحتقان الوجه ، وارتعاش الاطراف ، والخفقان الحائق . كل هذا يرجع الى الحس وحده ولا يملك التعقل حيالها شيئا . ولكن بعد أن يترك للسحجة أن تطلق انفجاراتها الاولى لتعمل عملها ، يستطيع المرء أن يصبح مرة أخرى سيد نفسه الحقيقى

وهو يستعيد حواسه شيئاً فشيئاً . ان ذلك هو ما حاولت عمله دهرًا طويلاً
 دون أن أنجح ، ولكن وفقت إليه . في نهاية الأمر . وبعد أن توقفت عن
 استخدام قوتي في مقاومة غير مجدية ، أراني أنتظر لحظة الانتظار تاركاً
 التصرف لعقلي ، ذلك لانه لا يتحدث الى الا حينما يستطيع أن يجعلني أصغى
 اليه . ايه ماذا أقول ؟ وأسفاه . . عفى ؟ اننى لأكون جد مخطئ . كذلك
 ان أنا نسبت اليه شرف هذا الانتصار . ذلك لانه لانصيب له فيه : ان كل
 شيء يصدر كذلك عن مزاج متقلب تهزه ريح غاتية ولكنه يعود الى الهدوء
 في اللحظة التي تكف فيها الريح . عن الهبوب . إنه طبعى المتوقد الذي
 يثيرنى ، وانه لطبعى المتراخي الذي يهدئنى . اننى لأستسلم لكل الحوافر
 الحالية . ان كل صدمة تمنحني حركة قوية وقصيرة ، وما ألا تعود هناك
 صدمة حتى تتوقف الحركة ، ولا يمكن أن يطول أمد أى من آثارها في نفسى
 ان كل احداث القدر وكل مؤامرات البشر قاما تستطيع أن تنال من امرىء
 بهذا التكوين . كان من الواجب أن تتجدد الانطباع في كل لحظة كي يدوم
 احساسى بالآلام ، ذلك لان الفترات مهما قصرت تكفى لتعيدنى الى نفسى .
 اننى مايرضاها . الناس طالما استطاعوا التأثير على حواسى ، ولكننى أصبح
 نانية ماأرادته الطبيعة بمجرد تراخيهم ، وتلك - مهما كان فى مقدورهم أن
 يفعلوا - حالى الأكثر استقرارا التى أتذوق عن طريقها - برغم القدر -
 سعادة أحس اننى خلقت لها . لقد وصفت تلك الحالة فى واحد من أحلام
 يقظتى (١) وانه ليروقنى جدا حتى اننى لا أرغب فى أمر آخر سوى دواهما
 ولا أخشى الا ان أراها تتكرر . أما الألم الذى سببه الناس لى فلا يؤثرنى
 بآية حال . ان الخوف وحده من الألم الذى لايزال فى امكانهم أن يسببوه
 لى هو الكفيل وحده بأن يثيرنى ، وأما وقد غدوت على ثقة من أنهم لم تعد
 نديهم من وسيلة جديدة للنيل منى يستطيعون عن طريقها أن يؤثروا فى
 باحساس مقيم ، فاننى لأسخر من كل مكائدهم وأستمتع بداتى بالرغم
 منهم .

(١) يقصد روسو هنا ماكتبه في معنى السعادة في الجولة الخامسة .

الرحلة التاسعة

السعادة حالة مقيمة لا تبدو وكأنها هيئت للانسان في الحياة الدنيا .
ان كل ما على الارض في مد متواصل لا يسمح لشيء بأن يتخذ سمة ثابتة .
أن كل شيء يتغير من حولنا . اننا أنفسنا نتغير وليس هناك من يستطيع
أن يطمئن الى أنه سيحب في الغد ما يحبه اليوم ، ومن ثم كانت كل
مشروعات الهناء لهذه الحياة أوهاما . فلنغتنم رضا النفس حين يقبل
ولنحذر من أن نباعد فيما بيننا وبينه بخطئنا ، ولكن لا ينبغي أن نقدم على
مشروعات تقيده لان تلك المشروعات محض جنون . اننى قلما رأيت قوما
سعداء بل ربما لم ألتق بانسان سعيد ، ولكننى طالما شهدت قلوبا راضية .
ومن بين كل ما أثر فى كان ذلك الذى أرضانى شخصيا أكثر الرضا اننى
أعتقد أن هذا تتابع طبيعى لسلطان الاحاسيس على مشاعرى الداخلية . ان
السعادة ليست لها دلالة خارجية ، ولكى نتعرف عليها يجب أن نطالع
قلب الانسان السعيد . أما الرضا فيقرأ فى العينين وفى المظهر وفى
اللهجة وفى السلوك ويبدو وكأنما ينتقل الى من يلاحظه . أهناك فرحة
أحلى من أن نرى شعبا بأكمله ينفوس فى المرح يوم عيد ، ومن أن نرى
كل القلوب تتفتح للأشعة المنتشرة ، للمتعة التى تمر سريعة ، ولكن قوية ،
فى ثنايا سحائب الحياة ؟

حدث منذ ثلاثة أيام ان جاء م.ب. M.P. فى عجلة غير عادية ليرينى
ماكتبه السيد دالامبير M. d'Alembert (١) فى مديح مدام جيوفرين
L'Eloge de Mme Geoffrin

(١) دالامبير D'Alembert (١٧١٧ - ١٧٨٣) ، كاتب وفيلسوف فرنسي أحد
مؤسسي دائرة المعارف الفرنسية L'Encyclopédie وعضو باكاديمية العلوم .
والمقصود هنا خطابان أرسلهما الى كوندورسيه Condorcet نشر عام ١٧٧٧ .
(كوندورسيه فيلسوف فرنسي كان سكرتيرا دائما لجميع العلوم) .
(Oeuvres postumes de l'Alembert, Paris. T.I. p.p. 132 - 271.)
وأما مدام جيوفرين Mme Geoffrin فهى سيدة صديقة للفلاسفة كانت تستقبلهم
فى « صالونها » =

وقد سبقت المطالعة قهقهات طويلة مدوية على الجديد المضحك مما جاء فى هذه القطعة ، وعلى التلاعب الهازل بالالفاظ الذى قال انها زحرت به . وقد بدأ القراءة وهو لا يزال يضحك وكنت أصغى اليه فى جد ساخرا منه وحين رأى اننى لا اجاربه مطلقا توقف فى نهاية الامر عن الضحك . وكانت الفقرة الأطول والاكثر تكلفا من هذه القطعة تدور حول المتعة التى كانت تحسها مدام جيوفرين عند رؤيتها للاطفال ودفعهم للحديث . وقد استقى الكاتب - عن وجه حق - دليلا على كرم الطبع من وراء هذا الميل . ولكنه لم يكن يقف عند هذا الحد فكان يتهم فى اضرار بلؤم الطبع والشر كل من لم تكن لهم نفس الميول حتى انه قال ان المرء لو سأل من يقادون الى المشنقة أو عجلة التعذيب فانهم جميعا سيجمعون على انهم لم يكونوا يحبون الاطفال . كان لهذه المزاعم أثر فريد فى المكان الذى جاءت به . وعلى فرض أن ذلك كله صحيح أفكانت تلك مناسبة قوله ؟ أو كان من الواجب أن يفسد مديح امرأة لها تقديرها بصور عن الاعدام والمذنبين ؟ لقد أدركت فى سر سبب ذلك التصنع القبيح ، وحين انتهى م.ب. M.P. من القراءة كاشفا عما ظهر لى طيبا فى المديح ، علقت بأن الكاتب حين كان يسطر ماكتب كان يحمل فى قلبه من الود أقل مما يحمل من الكراهية . وفى اليوم التالى ، وكان الجو لطيفا - ولو أنه كان باردا - قمت بجولة حتى المدرسة الحربية (1) وفى حسابانى أن أجد هناك طحالب

= وهذا بعض ما كتبه دالامير :

« كان لدام جيوفرين كل ميول روح حساسة حلوة . لقد كانت تحب الاطفال بشغف ولم تكن ترى من بينهم واحدا دون أن ترق له . كانت تهتم ببراءة وضعف هذه السن . وكانت تحب أن تلاحظ فيهم الطبيعة التى - بفضل عاداتنا - أصبحت لا ترى الا فى الطفولة . كانت تسر من التحدث معهم ومن توجيه الاسئلة اليهم وكانت تضيق بالمربيات اللواتى كن يوحين اليهم بالاجابة . وكانت تقول لهم : « اننى افضل اجاباتهم الساذجة عما تملين عليهم » . ونضيف قائلة « وددت لو وجه هذا السؤال الى كل من التفساء الذين سيلقون الموت بسبب جرائمهم : هل أحببتم الاطفال ؟ واننى لواقعة أن الاجابة ستكون نفيا » .

ويستطيع المرء أن يحكم من ذلك بأنها كانت تنظر الى الابوة كآلة متعة فى الطبيعة ولكن كلما ازدادت قداسة هذه التمة لديها ودت لو كانت ظاهرة خالية من اللبسات . ومن أجل ذلك كانت ترجو من لم يكن لديهم مال من بين اصداقها الا يتزوجوا وكانت تقول لهم « ماذا سيكون مصير اطفالكم الفقراء ان فقدوكم فى سن مبكرة ؟ فكروا فى الرعب الذى يستولى عليكم فى ساعاتكم الاخيرة حين تتركونهم اشقياء من بعدكم ... أولئك الذين كانوا أعز الناس لديكم » .

(1) المدرسة الحربية فى وسط باريس وتمتد منها الى «شان دومارس Champ de Mars

مروج خضراء لا يزال معظمها موجودا الى الآن .

مزهرة ، وأثناء زهابي ، استغرقت في حلم موضوعه زيارة الامس وما كتبه مسيو دالمبير M. d'Alembert حيث كنت أعتقد تماما أن التركيبات الإضافية لم توضع بغير هدف ، وإن مجرد التكلف لاحضار هذه الجزاة (الملزمة) لي - لي أنا من يخفون كل شيء عنه - عرفني تماما ماذا كان الهدف منها . لقد كنت وضعت صفاري في ملجأ اللقطاء (١٥) وكان هذا كافيا كي أبدو في صورة أب فاسد ، ومن ثم - فبالتمادي في هذه الفكرة واحتضانها - يستطيع المرء أن ينتزع منها تدريجيا نتيجة بدئية هي أنني كنت أكره الأطفال . وبتتبع سلسلة هذه المراحل عن طريق الفكر ، كنت معجبا بالفن الذي تستطيع به الصناعة الانسانية أن تحول الأشياء من الأبيض إلى الأسود . ذلك لأنني لا أعتقد مطلقا أن هناك انسانا أحب أكثر مني رؤية الصغار يمزحون ويلعبون معا ، وغالبا ماتوقفت في الطريق وفي نزعاتي لأشهد مداعباتهم وألعابهم الصغيرة في شغف لا أرى غيري يشاركني فيه وفي اليوم نفسه الذي قدم فيه م.ب. M.P. - قبل زيارته بساعة - كان في زيارتي صفيان من أبناء سوسوا Sousoi هما أصغر أولاد مضيفي ، وكان أكبرهما يناهز السابعة من عمره ، وقد قدما لتقبيلي في اخلاص . وبادلتها بحنان كبير ملاطفتها حتى بدأ عليهما - رغم فارق السن - سرور صادق بصحبتى . وأما بالنسبة لي فقد طرت فرحا حين أدركت أن شكلي العجوز لم ينفرهما ، بل ان الاصغر بدا وكأنما تقدم نحوي مختارا حتى أنني أحسست في طفولة تزيد عن طفولتهما بأنني قد تعلقت به مفضلا إياه ونظرت اليه وهو يبرح المكان في أسف وكأنما كان ابنا لي . أنني أدرك أن اللوم على وضع أطفالي في ملجأ اللقطاء ، انحدر في يسر مع قليل من التحوير ، الى لوم على أنني أب فاسد وعلى كراهية للأطفال ، ومع ذلك فمن المؤكد أن الخوف من مصير أسوأ ألف مرة بالنسبة لهم - ويكاد لا يمكن تحاشيه بأية وسيلة أخرى - هو أشد ماجعلني أصر على اتخاذ هذه الخطوة . وما دام لا يعنيني ماذا كان يمكن أن يصبحوا ،

(١) ملجأ اللقطاء Les Enfants Trouvés مؤسسة يرجع انشاؤها الى القرن السابع عشر ، أودع فيه روسو كما يقول اولاده الخمسة وظل ضميره يؤنبه على فعلته طيلة حياته . وقد أثار روسو بنفسه تلك المسألة الهامة عدة مرات : مرة في الجولة الرابعة في « احلام اليقظة » ، وأخرى في الاعترافات « الكتاب السابع والثامن » ، وفي كتابه « اميل » (الجزء الاول) . وفي خطاب الى مدام دوفرايكي Mme de Francueil في ٢٠ من ابريل ١٧٥١ . وكذا في خطاب الى مدام دوشونفوسه Mme de Chenonceau في ٧١ من يناير ١٧٧٠ وإلى المسيو دوسانجرمان Mr. de Saint-Germain في ٢٦ من فبراير ١٧٧٠ وفيها جميعا يحكم روسو على نفسه بناء على احساساته ومشامره لا على إفعاله .

ومادمت غير قادر على تنشئتهم بنفسى ، فانه كان من الواجب فى موقفى أن ادع أمر تنشئتهم لامهم ، التى ربما أفسدتهم ، ولأسرتها التى ربما جعلت منهم شياطين . اننى لا أزال أرتعد كلما فكرت فى ذلك . ان ما صنعه محمد بسعيد (١) ليس شيئا بجانب ما كان يمكن أن يصنع بهم حيالى وأن الشراك التى نصبت لى فيما يتصل بذلك الامر فيما بعد تؤكد لى الى حد كبير أن الخطة كانت معدة من قبل . والحقيقة أننى كنت أبعد من أن أتكهن حينئذ بهذه الدسائس الفظيعة ، ولكننى كنت أعرف أن أقل أنواع التربية خطيرة بالنسبة لهم هى تربية ملجأ اللقطاء فأودعتهم اياه . وربما كنت أعاد فعل ذلك وبقدر من التردد أقل بكثير أيضا اذا ما استوجب الامر ذلك . وانى لأعلم تمام العلم أنه ما من أب أشد حنانا منا كان من الممكن أن أكونه بالنسبة لهم مهما ضمؤل عون الاعتياد للطبيعة .

لئن كنت قد أحرزت بعض النجاح فى معرفة القلب الانسانى فإن السرور الذى كنت أحسه لدى رؤية الاطفال وملاحظتهم هو ما أكسبني هذه المعرفة ، ونفس هذا السرور فى شبابى هو الذى وضع فى طريقها نوعا من العقبات ، ذلك لاننى كنت ألهو مع الاطفال فى مروح شديد وبنفس خالصة حتى لم أكن أفكر مطلقا فى أن أدرسهم . ولكن حين تقدمت بى السن ولاحظت أن شكلى المتهدم يزعمهم امتنعت عن مضايقتهم ، وفضلت أن أحرم من متعة عن أن أكرر عليهم صفوهم . وأما وقد قنعت بارضاء نفسى بمشاهدة ألعابهم وكل تصرفاتهم الصغيرة ، فقد وجدت التعويض عن تضحيتى فى الأضواء التى يسرت لى الحصول عليها هذه الملاحظات عن الحركات الاولى والحقيقية للطبيعة ، هذه الحركات التى لايعرف كل علمائنا عنها شيئا . ولقد ضمنت كتاباتى الدليل على أننى قمت بهذا البحث فى عناية بالغه لايمكن معها أن أكون قد قمت به بغير لذة . ومن المؤكد أنه سيكون من أبعد الأمور تصديقا أن ال «هلويز» Heloise و «اميل» Emile كانا من عمل رجل لم يحب الاطفال .

انه لم يكن لى أيدا حضور البديهة ولا لاقة اللسان ، ولكن منذ أن حلت بى المصائب تزايد ارتباك لسانى وعقلى . ان الفكرة واللفظ المناسب يضيعان منى على السواء ، فما من شئ يتطلب تمييزا أفضل ، أو اختيارا لتعبيرات أدق ، أكثر من الاحاديث التى نتبادلها مع الاطفال ، وما يزيد أيضا من هذا الارتباك لدى هو اصفاء المستمعين ، وما يصفونه من تأويلات

(١) نحن لاندري مايقصده روسو هنا بما صنعه النبى محمد بشخص يدعى سعيد ، وربما كان ذلك مثلا يتداول فى ذلك الوقت دلالة على نوع من التعصب الدينى ولو أن الديانة الاسلامية تخلو تماما من مثل ذلك .

ووزن لكل ما يصدر عن شخص يفترض فيه ، وقد كتب خصيصا للأطفال،
الا يخاطبهم الا وحيا . ان هذا الحرج البالغ وما أسستشعره من عجز .
يربكني ويحيرني وربما كنت أروح نفسا أمام أحد ملوك آسيا منى أمام
طفل على أن أستدرجه الى الثرثرة !

وهناك عائق آخر يبقيني الآن أكثر بعدا عنهم . اننى منذ حلت بى
المصائب أراهم بنفس السرور دائما ، ولكن لم تعد لى بهم نفس الألفة . ان
الاطفال لا يحبون الشيخوخة . ان منظر الطبيعة الآفلة كرية فى عيونهم .
ان نفورهم الذى ألاحظه يحزننى ، واننى لأفضل أن أمتنع عن ملاقاتهم عن
أن أسبب لهم ضيقا أو اشمئزا .

ان هذا الدافع الذى لا يؤثر الا فى النفوس المحبة حقا لاقيمة له لدى
كل علمائنا وعالماتنا . ولم تكن مدام جيوفرين لتضيق الا أقل القليل بأن
يجد الاطفال متعة فى صحبتها مادامت تجد هى هذه المتعة معهم ، وأما
بالنسبة لى فان هذه المتعة تكون أسوأ من عدمها . انها سلبية حينما
تعوزها المشاركة ، فأنا لم أعد غنى مركز أو سن أرى فيهما القلب
الصغير لطفل يفتح مع قلبى . لئن أمكن حدوث ذلك لى أيضا فان هذه
المتعة - التى أضحت أشد ندرة - لاتصبح بالنسبة لى الا أكثر قوة وكنت
أحسها تماما ذلك الصباح بسبب ما لقيته من ملاطفة صفار عائلة سوسوا
Soussou لا لان الخادمة التى كانت تصحبهم لم تثر احترامى ، واننى لم أكن
أحس بالحاجة الى أن يصغى الى أمامها ، بل كذلك لان الروح المرحة التى
صاحبت اقتراحهم منى لم تبرحهم قط ، ولانهم لم يظهروا استياء أو ضيقا
وهم فى صحبتى .

آه لو كانت لاتزال لدى بضع لحظات من ملاطفات بريئة صادرة عن
القلب قد لاتصدر الا عن طفل لايزال صغيرا ! لو أمكننى أن أرى أيضا فى
بعض العيون الفرحة والرضا بوجودها معى فكم اذا من سرور وآلام كانت
تعوضنى عنها انصاحات قلبى القصيرة ، الحلوة مع ذلك ! آه اننى لئن
أكون مضطرا الى البحث بين البهائم عن نظرة العطف التى أبأها على الآدميون
منذ الآن . اننى أستطيع أن أدلل على ذلك بقليل جدا من الامثلة التى هى
دائما عزيزة بين ذكرياتى . وهالك مثلا كان حريا أن أنساه تقريبا فى أية مناسبة
أخرى يصور الأثر الذى خلفه فى كل ما أعانيه من شقاء . حدث منذ عامين
وأنا ذاهب لانتزعه فى ناحية نوفيل فرانس Nouvelle France أن توغلت
مبعدا ثم إنعطفت يسارا مستهدفا الدوران حول مونمارتر Montmartre
فاخترقت قرية « كلينيانكور Clignancourt وكنت أسير لاهيا وحالما ، دون

ان انظر الى ما حولي ، حتى أحسست فجأة بركبتي وقد أمسك بهما ، ونظرت فوجدت طفلا صغيرا بين الخامسة والسادسة يحيط بركبتي بكل قوته وهو يتطلع الى في ألفة وحنان حتى تحركت جوارتي ، فأخذت أقول لنفسي : انه كان من الممكن أن أعامل على هذا النحو من صفاري . وأخذت الطفل بين ذراعي وقبلته مرات في فرح شديد ثم تابعت مسيرى . وأحسست خلال ذلك انني أفتقد شيئا ما ، وردتني على أعقابى حاجة طارئة . لقد كنت ألوم نفسي على تركي الطفل فجأة على هذه الصورة واعتقدت انني أرى في عمله - بغير سبب ظاهر - نوعا من الوحي لا تجدر الاستهانة به . وأخيرا وقد استسلمت للاغراء ، ارتددت على أعقابى وركضت نحو الطفل وعاودت تقبيله ومنحته ما يشترى به من قطاثر نانترير Nanterre التي كان يمر بائعها هناك مصادفة . وبدأت أدفعه للثرثرة ، فسألته عن مكان أبيه فدللتني على أنه هو ذلك الذي يحزم البراميل ، وكنت أنهيها لترك الطفل لأتوجه للتحدث معه عندما وجدت أنه قد سيقتني اليه رجل عابس الوجه بدا لي وكأنما هو احدي تلك الحشرات التي يطلقها الناس في أعقابى .

وبينما كان هذا الرجل يسر اليه شيئا في أذنه إذ شاهدت عيني حازم البراميل تستقران على في انتباه بنظرة ليس فيها شيء من الود . وقد اعتصر قلبي هذا الامر على الفور . فتركت الأب والطفل في سرعة تزيد عما استغرقته فترة ارتدادى على أعقابى اليه من قبل ، ولكن في قلق - أقل بعثا للرضا - غير من مشاعري جميعا . ومع ذلك فغالبا ما أحسست بها تبعث في نفسي من جديد منذ ذلك الحين . لقد عاودت المرور كثيرا بـ « كلينيانكور Clignancourt » بأمل معاودة رؤية ذلك الطفل ، ولكن لم أعد أراه لا هو ولا أباه ولم يبق لي من تلك المقابلة سوى ذكرى حية تختلط دائما بالحلاوة والمرارة ككل الانفعالات التي لا تزال تنفذ أحيانا حتى قلبي .

ان هناك عزاء عن كل شيء : لئن كانت لحظات سرورى نادرة وقصيرة فأنني أتذوقها - حين تمر بي - في لذة أشد مما لو كانت مألوفة لدى . انني أجترها - كما يقسمال - عن طريق الذكريات الكثيرة ، رمهما تبليغ ندرتها فربما أكون أكثر سعادة - اذا كانت نقيية خالصة - متى في أسعد أوقاتي . ان المرء يحسن العنى في القليل حين تبليغ الفاقة به أشدها ، واز الصعلوك الذي يعثر على قطعة écu (١) من العملة يتأثر بذلك أكثر من تأثر غني يعثر على كيسي من الذهب . ان المرء ليضحك ان شهد في نفسى

(١) L'écu قطعة من العملة القديمة .

الانطباعة التي تخلفها أقل المسرات من ذلك النوع ، والتي أستطيع أن
اختلسها برغم يقظة مضطهدي . وقد عرضت واحدة من أمتعها منذ أربع
أو خمس سنوات لا أكاد أذكرها الا وأحس بنشوة الراحة لأننى قد
استمتعت بها تماما .

لقد توجهنا - زوجتى وأنا - ذات أحد لتناول طعام الغذاء عند بوابة
مايو Maillot واخترقنا بعد الغذاء غابة بولوني Bologne حتى لامبيت
La Muette وهناك اقتعدنا الاعشاب فى الظل فى انتظار مغيب الشمس
حتى نعود بعد ذلك الهوينا عن طريق باسى Passy . وجاءت عشرون فتاة
تشرف عليهن راهبة وجلس بعضهن وأخذ البعض الآخر يمرحن على مقربة
منا . وفى أثناء لعبهن مر بائع حلوى يحمل « طبلته واسطوانته ودولابه »
باحثا عن مشتريين ، وقد لاحظت أن الفتيات الصغيرات كن يشتبهن كثيرا
قراطيسه ، ويبدو أن اثنتين أو ثلاثة منهن كن يحملن معهن بعض الـ
« ليارات liards (١) » فسألن الاذن باللعب ، وفى حين كانت المشرفة
تتردد وتناقش . ناديت بائع الحلوى وقلت له : « دع كلا من هاتى الأنسات
تسحب بدورها وسأدفع لك عن الجميع » وقد أشاعت هذه الكلمة الفرحة
فى الجماعة كلها ، هذه الفرحة التي كانت وحدها تعدل أكثر مما فى كيس
نقودى لو اننى استخدمت كل ما به للحصول عليها . ولما رأيت كل واحدة
منهن تتعجل دورها باستعمال شيء من الفوضى ، رتبتهن جميعا - بعد
موافقة المشرفة - فى صف فى ناحية واحدة ، ثم أمرتهن الى الناحية المقابلة
الواحدة بعد الاخرى بمجرد أن يقمن بالسحب . وبرغم أنه لم تكن هناك
تذكرة بيضاء وأنه كان من نصيب كل منهن قرطاس على الأقل اذا لم يقدر
لبعضهن الفوز حتى لا تعود واحدة منهن غير راضية تماما ، فقد أسررت
الى بائع الحلوى - مستهدفا أن أزيد من فرحة المناسبة - أن يستخدم
مهارته المعتادة فى اتجاهها المضاد ، وذلك بأن يسقط بقدر المستطاع أكثر
ما يمكن من الأنصبة الطيبة ، واننى سأراعى ذلك عند محاسبته . وقد
وزع من طريق هذا التدبير ، ما يقرب من مائة قرطاس بالرغم من أن
واحدة من الفتيات لم تسحب أكثر من مرة واحدة؛ ذلك لأننى كنت اذاك
حازما بحيث لم أكن أود تحبيذ الافراط أو اظهار مفاضلات قد تبعث على
الاستياء . وقد أوحى زوجتى الى من كان من حظهن أنصبة طيبة أن يشركن
فيها زميلاتهن حتى تكون الأنصبة شبه متساوية وحتى تكون الفرحة أعم .

وقد رجوت الراهبة أن تسحب بدورها ، وأنا شديد الخشية أن
ترفض عرضى باحتقار ، ووافقت فى رقة وسحبت ، كما فعلت الطالبات ،

(١) Le liard قطعة من العملة النحاسية القديمة .

وأخذت من غير كلفة ما جاءها ، واعترفت لها بفضل بالغ ووجدت في ذلك نوعا من التهذيب شد مراقني ، وأعتقد أنه يفوق أدب تكلف الرفض . وخلال كل هذه العملية وقعت منازعات عرضت على محكمتي وجاءت هذه الفتيات تدافع كل بدورها عن قضيتها وأعطينني بذلك فرصة لألاحظ أنه برغم عدم وجود واحدة جميلة يتنهفن فان رقة بعضهن كانت تنسى المرء قبحهن .

وأخيرا افترقنا وكل راض جدا عن صاحبه . وكان عصر ذلك اليوم واحدا من تلك الايام في حياتي التي أستعيد ذكرها بأكثر قدر من الارتياح . فضلا على ذلك فان الاحتفال لم يفلسني اذ أنه مقابل ثلاثين « صليديا sols (١) » على أكثر تقدير حصلت على ما يساوي أكثر من مائة « ليار » liards من السرور ولو أن المتعة في الواقع لا تقاس بما ينفق في سبيلها ، والفرحة أشد صداقة لد « ليار » منها للجنه . لقد عدت مرات كثيرة الى المكان نفسه في الساعة نفسها أملا أن ألقى هناك مرة أخرى المجموعة الصغيرة ولكن هذا لم يحدث أبدا .

ان هذا يذكرني بتسلية أخرى من النوع نفسه تقريبا ظلت ذكرها مقيمة أمدا أطول من هذه : كان ذلك في العهد المنكود عندما كنت ، وأنا أخاطب الاغنياء والادباء ، مضطرا الى مشاركتهم متعهم الكثيرة . كنت في « لاشفريت La Chevette (٢) » في وقت عيد رب الدار وكانت أسرته بأكملها مجتمعة لأحيائه واستخدمت لهذه المناسبة كل مظاهر السرور الصاخب فلم يدخر شيء من تمثيل الى مآدب الى صواريخ نارية ، ولم يكن هناك فراغ ليلتقط المرء أنفاسه بل انه كان يسلي نفسه بدلا من أن يتمتع . وبعد الغذاء خرجنا لاستنشاق الهواء في الطريق حيث أقيم نوع من السوق هناك . وكان رقص ، وتنازل السادة فراقصوا الفلاحات ، أما السيدات فقد احتفظن بوقارهن وكانت تباع هناك فطائر حلوى des pains d'épice وخطر لشباب من الجماعة أن يشتري منها ليقذف بها الواحدة بعد الأخرى في وسط الحفل ، وقد سر الناس كل السرور برؤية كل هؤلاء الاجلاف يتدافعون ويتضاربون وينقلبون ليحصلوا عليها ، حتى ود الجميع لو يغمسون في المتعة نفسها . واستمرت الفطائر تتطاير يمنا ويسرة ، وظلت الفتيات والصبية يجرون ويتساقطون فوق بعضهم البعض ويتداهسون وكان هذا يبدو رائعا للجميع . وفعلت مثلما فعل الآخرون بدافع الاستحياء وان كنت - في قرارة نفسي - لم أتسل بقدر ما فعلوا .

(١) الصليدي le sol عملة قديمة تعول ٥ سنتيم او واحد على عشرين من الفرنك .

(٢) لاشفريت La Chevette هو قصر مدام ديبيناي d'Épinay بالقرب من مونمورنسي.

ولكن حالما تضايقت بسبب نفاد مالى فى سبيل دهس الناس ، خلفت هناك
 الصحاب وذهبت لآتجول وحيدا فى السوق . وقد أدخل تنوع المعروضات
 السرور فى نفسى طويلا ، ولاحظت من بين الموجودين خمسة أو ستة من
 أهل سفوا Savoyards يتحلقون فتاة صغيرة كان لا يزال على سقفها دسته
 من التفاح الضامر كانت تود لو أنها تخلصت منها . وكان السفواثيون من
 جانبهم يودون لو أنهم خلصوها منها . ولكن لم يكونوا يملكون جميعا
 سوى « ليارين » أو ثلاثة وهذه لم تكن مخرجا كبيرا لاستخلاص التفاح
 كان هذا السقط بالنسبة لهم حديقة هسبريد Hespérides (١) وكانت
 الفتاة هى التين الذى يحرسها . وقد تسليت طويلا بهذه المرحه ووضعت
 خاتمة لها فى نهاية الامر ، وذلك بأن دفعت ثمن التفاح للفتاة الصغيرة
 وجعلتها توزعه على الصبية الصغار . وعندئذ شهدت واحدا من أحلى
 المناظر التى تستطيع أن تبهج قلب المرء ، هو رؤية القرحة مبروجة ببراعة
 السن تنتشر من حولى . ذلك لان الشهود أنفسهم شاركون فيها حين
 رأوها ، وأما أنا الذى شاركت فى هذه القرحة بهذا الثمن الضئيل فقد
 زادت عليها لدى فرحة الاحساس بأنها كانت من صنيعى .

عند مقارنة هذه التسلية بنظائرها التى خلفتها للتو أحسست فى
 رضا بالفارق بين الميول السليمة والمتع الطبيعية وبين تلك التى تكون
 وليدة الشراء والتى ليست سوى متع ساخرة وميتول خاصة هى ثمرة
 الاحتقار . ذلك لأن أى نوع من السرور ذلك الذى يستطيع المرء أن يجده
 فى مشاهدة قطعان من البشر أذلهم البؤس ساقطين فوق بعضهم البعض
 ويختنقون ويتدهسون فى خشونة لينتزعوا فى نهم بضع لقيمات من
 الفطائر وطئتها الاقدام وغطاها الوحل ؟

وأما من ناحيتى فأننى حين فكرت جيدا فى نوع اللذة التى كنت
 أتذوقها فى هذه الانواع من المناسبات ، وجدت أنها تكمن فى عاطفة عمل
 الخير أقل منها فى متعة التطلع الى وجوه راضية . ان لهذا المشهد فى نفسى
 سحرا - برغم نفاذه الى قلبى - يبدو كأنما هو صادر عن الحب وحده .
 ولئن لم أر الرضا الذى أكون مبعثه - حتى ولو كنت مستوثقا منه - فأننى
 لا أستمتع به الا نصف استمتاع ، بل هو كذلك بالنسبة لى متعة غير
 مفرضة لا تتوقف على مبلغ نصيبى منها ، ذلك أنه من بين الاحتفالات
 الشعبية ، كان دائما أشد ما يجذبني بقوة إليها هو الاحتفال الذى أشهد
 فيه وجوها مستبشرة . ومع ذلك فإن هذه البغية طالما حرمت من تحقيقها

(١) هسبريد Hespérides هن ثلاث بنات لملك خرافي يدعى اطلس Atlas من
 يملكن حديقة تنتج اشجارها ثمار تفاح من الذهب كان يحرسها تينين له مائة رأس .

فى فرنسا ، ذلك لان هذا الشعب الذى يدعى المرح قلما يبرزه فى العابه .
اننى غالبا ما كنت اذهب فيما مضى الى المراقص الماخنة لأشهد هناك أفراد
الطبقات الدنيا من الشعب يرقصون ، ولكن رقصاتهم كانت من الكآبة ،
كما كان مظهرهم من الذبول والارتباك ، بحيث كنت أخرج محزونا أكثر
منى مستمتعا . ولكن فى جنيف وفى سويسرا حيث لا يتصاعد الضحك
باستمرار فى خبث شديد فان كل شىء يعبر عن الرضا والمرح فى الأعياد .
ان الشقاء لا يظهر هناك مطلقا بمظهره البشع كما أن التعاطف لا يبين عن
محبة . فالامن والاخوة والترابط تهىء القلوب للتفتح وكثيرا ما نشهد
فى غمرة المرح البرىء الاغراب يجلسون متجاورين متعاقبين داعين بعضهم
النبض الى الاستمتاع سويا بمباهج اليوم . ولم أكن فى حاجة الى أن
أكون واحدا منهم لأستمتع بهذه الحفلات اللطيفة ، بل كان حسبى أن
أشهدهم فأشارك فيها بمشاهدتى اياهم ، واننى لشديد الثقة بأنه من بين
كل الوجوه الضاحكة ليس هناك قلب أشد سعادة من قلبى .

وبالرغم من أن هذه ليست سوى متعة حسية فان لها من المؤكدة علة
روحية ، والدليل على ذلك أن هذا المشهد نفسه بدلا من أن يطربنى ويعجبنى
يستطيع أن يمزقنى ألما وغضبا حين أدرك أن دلائل السرور والفرح هذه
على وجوه الاشرار ليست سوى علامات على أنهم أشبعوا ما بنفوسهم من
خبث .

إن المرح البرىء هو الذى تطرب دلائله قلبى ، أما دلائل المرح
الوحشى الساخر فانها تمزقه وتحزنه برغم أنه قد لا تربطنى به أية صلة
مطلقا . ولا شك أن هذه الدلائل قد لا تكون هى نفسها تماما اذا ما صدرت
عن مبادئ على هذا النحو من التباين : ولكن على أية حال . . . سواء . . .
فى دلالتها على المرح ، وما من شك أن ما فيها من تباين محسوس لا يتناسب
وتباين الانتفاضات التى تثيرها فى نفسى .

أما دلائل الألم والعذاب فانا أشد حساسية بالنسبة لها كذلك ، حتى
أنه يستحيل على أن أتحمّلها دون أن أهتز أنا نفسى بانفعالات قد تكون
كذلك أكثر حرارة من تلك التى ترمز اليها . ان الخيال بتدعيمه للحس ،
يوحد ما بينى وبين المعضب من الناس ويسبب لى غالبا رعبا أشد مما يحس
به هو نفسه . ان وجهها سماخا هو كذلك منظر يستحيل على احتمالها
وبخاصة ان كان هناك ما يحدونى الى الظن أن هذا السخط يتعلق بى .
اننى لن أستطيع أن أقول كم من نقود ابتز منى الغلمان الذين يلوح على
سيماهم التذمر والاكتئاب وهم يقومون بالخدمة متهجمين فى المنازل التى
بلغت منى الحماسة فيما مضى حد الاستسلام لمن يقودوننى اليها ، وحيث
جعلنى الخدم دائما أدفع غاليا جدا ثمن ضيافة السادة . ولما كنت دائما

شديد التأثير بالامور الحساسة ، وبخاصة ما يحمل منها دلالة اللذة أو الألم ، العطف أو البغضاء ، فأننى أنقاد لهذه الانطباعات الخارجية دون أن أستطيع مطلقا أن أتحاسنها بغير طريق الهرب . ان اشارة أو ايماء او نظرة من مجهول تكفى لتعكر على صفو سرورى أو تسكن من آلامى اننى لا أكون ملك نفسى الا حين أكون وحيدا ، وأما فيما عدا ذلك فانا العوبة فى يد كل من يحيطون بى .

كنت فيما مضى أعيش مسرورا بين الناس حين كنت لا أرى فى كل العيون سوى عطف أو - على أسوأ احتمال - عدم مبالاة فى عيون أولئك الذين كنت مجهولا منهم . أما اليوم ، وهم لا يجدون مشقة فى تنبيه الناس الى وجهى أقل مما يجدون فى وضع قناع على طبعى ، فأننى لا أستطيع أن أخطو بقدمى فى الطريق دون أن أراى محوطا بأشياء موجعة . اننى أتعجل الوصول الى الريف بخطا واسعة وحالما أرى الحضرة أبدا فى التنفس . أمن عجب بعد ، اننى أحب العزلة ؟ اننى لا أرى على وجوه الناس سوى الضغن ، أما الطبيعة فانها تضحك لى دائما . واننى أشعر مع ذلك أيضا - ويجب أن أعترف بهذا - بمتعة فى الحياة بين الناس طالما كان وجهى مجهولا لديهم ، ولكنها متعة لا تتاح لى مطلقا . لقد كنت منذ بضع سنوات ما أزال أحب أن أجول فى القرى وأن أشهد فى الصباح المزارعين يصلحون مدقاتهم والنساء على أبوابهن مع أطفالهن . ولست أدري ماذا كان يمس شغاف قلبى فى ذلك المنظر كنت أتوقف أحيانا دون أن أنتبه لذلك لا تطلع الى ما يقوم به هؤلاء القوم من أعمال صغيرة . وكنت أجدنى أتنهد دون أن أعرف لذلك سببا . وما أعلم اذا كان أحد قد رأى شغفى بهذه المتعة المتواضعة واذا كان أحد ود لحرمنى منها كذلك ، ولكنى من التغير الذى ألحظه على الوجوه عند مرورى ومن الطريقة التى ينظر الى بها ، أراى مضطرا أن أدرك أنهم حرصوا جد الحرص على حرمانى من هذا التخفى . ولقد حدث نفس الامر لى ، وفى صسيرة أكثر وضوحا ، فى الانفصاليين Invalides (١) . ان هذه المؤسسة الجميلة كانت دائما محل اهتمامى واننى لا أشهد دائما إلا بحنان وتوقير تلك الجماعات من المسمنين الطيبين الذين يستطيعون أن يرددوا ما ردهه شسيوخ لاسيديمون Lacédémone (٢) ،

- (١) Les Invalides مبنى ائرى لى بآريس من عهد لويس الرابع عشر كان قد أقامه لأيواء مشوهى الحرب عام ١٦٧٠ م ، وقد حول فيما بعد (منذ ١٨٤٠ م) الى مكان يضم زفات كبار قواد فرنسا وعلى راسهم نابليون ،
(٢) لاسيديمون La cédémone (أو اسبرطه اسپارطة) مدينة قديمة من مستنن اليونان .

لقد كنا فى سالف الزمان

شبانا شجعانا جسورين

كانت واحدة من جولتى المفضلة جولتى المفضلة حول المدرسة الحربية وكنت أقابل مسرورا هنا وهناك بعض مشوهى الحرب وقد احتفظوا بشهامتهم العسكرية القديمة فكانوا يخوننى أثناء مرورهم . كانت هذه التحية التى يردّها قلبى مضاعفة مائة مرة تطربنى وتزيد من السرور الذى كنت أحسه لدى رؤيتهم . ولما كنت لا أعرف كيف أخفى شيئا مما يؤثر فى فاتتى غالبا ما كنت أتحدث عنهم ، وعن كيفية تأثير منظرهم فى نفسى ، ولم يكن الامر يتطلب أكثر من ذلك . وبعد فترة من الزمان لاحظت أننى لم أعد مجهولا لديهم ، أو بالأحرى اننى غدوت أكثر من ذلك بالنسبة لهم ماداموا كانوا ينظرون الى بنفس العين التى ينظر عامة الناس الى بها فلم تعد هناك لا شهامة ولا تحايا . وقد حل محل ما كانوا عليه من تهذيب فى أول الامر روح جفاء ونظرة شزراء . ولما كانت الصراحة القديمة التى تتسم بها مهنتهم لا تسمح لهم - كالأخرين - بأن يخجوا ضغنهم بقناع هازى خداع فانهم أظهروا لى بوضوح مبین أعنف كراهية ، وهذه هى قمة شقائى ، حتى لأجدنى مكرا على أن أميز ، فى تقديرى ، أولئك الذين يخفون غنى سمخطهم أقل من غيرهم .

هذه ذلك الحين وأنا أنتزه ، فى متعصة أقل ، بناحية الانفاليد ، وضع ذلك فما دامت مشاعرى نحوهم لا تعتمد على مشاعرهم نحوى فاننى لا أنظر أبدا بغير احترام وبغير اهتمام الى هؤلاء القدامى من الدائدين عن أوطالهم . ولكن من أقسى الامور على أن أجزى من ناحيتهم أسوأ الجزاء مقابل النصفى . اياهم . ولئن حدث مصادفة أن لقيت من بينهم واحدا خرج على التعليمات المشتركة ، أو أنه لعدم معرفته صورتى لم يظهر نحوى أية بغضاء ، فإن التحية الصادقة من هذا وحده تعوضنى عن مسلك الآخرين الخشن . اننى لأنسأهم حتى لا أشغل بسواه واننى لأتخيل أن له واحدة من هذه النفوس التى تشبه نفسى حيث لا تستطيع الكراهية أن تنفذ اليها .

وقد سعدت كذلك بهذه المتعة فى العام الماضى حين كنت أعبر الماء لأذهب للتنزه فى جزيرة البجع وكان هناك محسارب فقير مسن فى قارب ينتظر مرافقا للعبور ، فتقدمت وطلبت الى صاحب القارب أن يرتحل . وكان الثيار شديدا واستغرق العبور زمنا طويلا ، ولم أجد فى نفسى جرأة كافية للتحدث الى هذا المحارب ، وربما كان ذلك خوفا من أن

أرجر وأصعد كما هي العادة . ولكن هيئته البسيطة طمأننتني فتجاذبنا أطراف الحديث ، وقد بدا لي رجلا على عقل وخلق ، ودهشت وفتنت بلهجته الصريحة الودية ولم أكن معتادا على مثل هذا العطف . ولكن دهشتي توقفت حين علمت أنه وصل حديثا من الاقاليم ، وفهمت منه أن أحدا لم يرشده بعد عني ، أو يعطيه تعليماته . فاعتنمت هذا النخفي لالتحدث بضع لحظات مع انسان ، وأحسست من وراء العذوبة التي لقيتها كم تكون ندرة المتع الاكثر شيوعا قادرة على رفع قيمتها . وأثناء مبارحة القارب كان يعد « لياريه » البائسين ولكنني دفعت أجرة العبور ورجوته أن يعيد صر نقوده وأنا أرتعد خوفا من أن أستغفزه . ولكن هذا لم يحدث ، بل بالعكس فانه بدا متأثرا من لفتتي هذه ، ثم بخاصة من لفظة أخرى ، ذلك أنه لما كان أكبر مني سنا ، فقد عاونته على مغادرة القارب . من ذا يصدق أنني تصرفت كطفل حتى بكيت من الهناء ؟ لقد كنت شديد الرغبة في أن أضع في يده قطعة من ذات الاربعة والعشرين « صلديا » ليشتري تبغا ولكنني لم أجرو أبدا . كان نفس الخجل الذي ردني هو الذي كثيرا ما كان يذودني عن القيام بأطيب الاعمال التي كانت كفيلة بأن تغمرني بالبهجة والتي لم أمتنع عنها الا وأنا أندب غباثي . وفي هذه المرة - بعد أن تركت محاربي القديم - سرعان ما تعزيت وأنا أفكر في أنني - كما يقال - ربما كنت أتصرف ضد مبادئ الخاصة وأنا أخلط بالشريف من الامور ثمتنا من المال يحط من نبيلها ويدنس من نزاهتها . انه من الواجب أن يتعجل المرء مد يد المساعدة الى أولئك الذين هم في حاجة اليها ، ولكن لندع في اتصالات الحياة العادية العطف الطبيعي والتهديب يقوم كل بعمله دون أن يكون هناك مطلقا نهاز أو جشع يجرو أن يقترب من منبع بهذا الصفاء ليفسده أو يشوهه . انه يقال ان القوم في هولندا يتقاضون ثمن اخطارك بالوقت أو ارشادك الى الطريق ، ولا بد أنه شعب يستحق بالغ الاحتقار ذلك الشعب الذي يتجر على هذا النحو بأبسط الواجبات الانسانية . لقد لاحظت أنه ليست هناك سوى أوروبا وحدها التي يباع فيها كرم الضيافة . أما في كل آسيا فانهم يستضيفونك بدون مقابل . وانني أدرك أن المرء لا يجد هناك كل راحته ، ولكن ليس هذا الا كما لو قال المرء لنفسه انني انسان وهأنذا أستقبل من ذوي الانسانية ، انها الانسانية الخالصة التي تمنحني القوى ؟ ان الحرمان القليل يحتمل دون عناء اذا ما عومل القلب خيرا مما يعامل الجسد .

الجملة العاشرة

اليوم - يوم عيد الفصح المزهر - مرت خمسون سنة منذ أول معرفة لى بمدام دوفواران Mme de Warens (١) وكانت فى ذلك الوقت فى الثامنة والعشرين اذ أنها ولدت مع مولد هذا القرن (٢) ، ولم أكن شارفت عندئذ السابعة عشرة ، وكان ميلى الوليد - وان كنت لا أزال أجهله مع ذلك - يمد بحرارة جديدة قلبا مليئا بطبيعته بالحياة . ولئن لم يكن عجيبا أنها أحست بعطف نحو شاب مليء بالحياة ، وديع حنى ذى طلعة حسنة مع ذلك ، فإنه كان أقل عجباً أن امرأة فاتنة ذكية رقيقة توحى الى - الى جانب اعترافى بفضلها - بمشاعر أكثر حنانا لم أكن أميزها . ولكن ما ليس طبيعيا أيضا ، هو أن هذه اللحظة الأولى كانت حاسمة فى حياتى كلها وأنها خطت - بسحر لا يمكن الفكك منه - مصير بقية أيامى . ان روحى التى لم تكن أعضائى البتة قد أنمت أغلى ملكاتها ، لم تكن لها بعد أية صورة واضحة الحدود . انها كانت تنتظر فى نوع من القلق اللحظة التى يجب أن تعطيها اياها . وهذه اللحظة ، وقد عجلت بها هذه المقابلة ، لم تأت مبكرة برغم ذلك . ولقد لاحظت لأمد طويل - وأنا فى بساطة الطباغ التى منحتنى اياها تربيتى - هذه الجال الهائلة ، السريعة مع ذلك ، حيث يستقر الحب والبراءة فى القلب نفسه . كانت قد أبعدتنى ، وكان كل شئ يذكرنى بها فكان من الضرورى أن أعود إليها ، وقد حددت مصيرى بهذه العودة . وقبل أن تكون لى بزمان طويل كذلك لم أكن أعيش الا بها ومن أجلها . أه لو اننى أشبعت قلبها كما أشبعت همى قلبى ! كم من أيام أمانة حلوة كان من الممكن أن نمضيها معا ! لقد قضينا أمثالها ولكنها كانت قصيرة سريعة ، وأى قدر

(١) التقى روسو بمدام دو فواران de Warens فى انسى Annecy فى عام ١٧٢٨ ،
وإذن بتاريخ كتابه الجملة العاشرة الثانى من ابريل عام ١٧٧٨ وهى بذلك ترد
ما جاء بالكتيب الثالث الى السادس من « الاعترافات » .
(٢) ولدت مدام دوفواران عام ١٦٩٩ .

ذلك الذى تبعها ! ما من يوم لا أتذكر فيه بنشوة وحنان هذه المرحلة الوحيدة القصيرة من عمرى التى كنت فيها بكل كيانى خالصة لذاتى بغير شائبة أو عائق ، وحيث أستطيع أن أقول اننى عشت ، اننى أستطيع أن أقول تقريبا كما قال مدير الحكمة الذى عزل فى عهد قسبازيان (١) *Vespasien* وذهب يختم أيامه فى سلام فى الريف ، « لقد قضيت فوق الأرض سبعين سنة عشت منها سبعا » اننى بغير هذه الفترة القصيرة الثمينة مع ذلك ، ربما بقيت غير مستوثق من نفسى ، ذلك لأننى فى كل بقية حياتى ، وقد كنت ضعيفا لا أقاوم ، كانت أهواء الآخرين تهيجنى وتتقاذبنى وتتجاذبنى حتى أننى وقد غدوت شبه سلبى فى حياة عاصفة على هذه الصورة كان من الصعب أن أميز ما هو ذاتى فى سلوكى الشخصى ، من فرط ما ظلت الحاجة القاسية تبهظنى . ولكن خلال هذا العدد القليل من السنين وقد أحببتنى امرأة مليئة باللطف والرفقة فعلت ما كنت أريد فعله وكنت ما أريد أن أكون ، وعرفت - عن طريق استخدام أوقات فراغى ، تعاوننى فى ذلك دروسها والمثل الذى تقدمه - كيف أعطى لروحي التى كانت لا تزال بريئة جديدة الصورة التى كانت تناسبها أكثر من غيرها والتى احتفظت بها دائما . لقد ولد فى قلبى الميل الى العزلة والتأمل مع مولد المشاعر الفياضة الحنون التى خلقت لتكون غذاء له . ان الصخب والضجيج تحصرها وتقضى عليها أما الهدوء والسلام فيبعثان فيها الحياة وينعشانها . اننى فى حاجة الى أن أعتكف كى أحب . لقد حدثت « أمى » (٢) الى أن تعيش فى الريف ، وكان مأوانا بيت منعزل فى سفح واد ، وهنالك - مدى أربع أو خمس سنوات - استمتعت بقرن من الحياة والهناء الصافى المطلق الذى يسبغ فتنته على كل ما لحظى الحالى من بشاعة . كنت فى حاجة الى صديقة توائم قلبى ، وقد كانت لى . كنت راغبا فى الريف وقد حصلت عليه . اننى لم أكن أستطيع أن أحتمل الخضوع وقد كنت حرا تماما ، وأكثر من حر ، ذلك لأننى وقد خضعت لاهوائى وحدها لم أكن أعمل سوى ماكنت أريد عمله . كان وقتى كله مفعما برعاية تزخر بالحب أو بشواغل فى الحقول . اننى لم أكن أريد شيئا سوى استمرار حالى بهذه الهناءة ، ولكن ألى الوحيد كان الخوف من ألا تستمر طويلا ، وهذا الخوف الناشئ

(١) فسبازيان *Vespasien* أحد أباطرة الرومان حكم من ٦٩ - ٧٩ م .

(٢) لما رأى روسو مدام دوڤواران غارقة فى الديون فكر فى مورد يمينها عن طريقه فوضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى بدلا من السلم الموسيقى المعتاد ثم سافر الى باريس ليعرض مشروعه على أكاديمية الفنون .

عن حرج موقفنا لم يكن بغير أساس • وقد فكرت منذ ذلك الحين في أن
أمنح نفسي في الوقت نفسه ألوانا من التسلية تلهيني عن هذا القلق ،
وموارد تعينني على تقادى أثره • لقد فكرت في أن رصيда من المواهب هو
أكثر الموارد أهانا ضد البؤس فعزمت على أن أستغل أوقات فراغي في
اعداد نشي لاكون قادرا به ان كان ذلك ممكنا - على أن أرد يوما من الايام
الى أكرم النساء ما تقبلت منها من معونة •

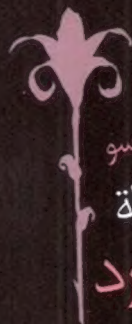
الفهرس



الصفحة	الموضوع
٣	تمهيد
١١	مقدمة وتعليق
٣٥	تقديم للجولات
٣٩	الجولة الاولى
٤٢	الجولة الثانية ..
٤٥	الجولة الثالثة
٥٠	الجولة الرابعة ..
٥٣	الجولة الخامسة
٥٧	الجولة السادسة
٦١	الجولة السابعة
٦٥	الجولة الثامنة
٦٨ ..	الجولة التاسعة
٧٣	الجولة العاشرة
٧٧ ..	طباع روسو وحالته النفسية فى آخر حياته ..
٨٣	أحلام اليقظة بين مؤلفات الكاتب الاخرى
٨٧	أصالتها وأثرها الادبى ..
٩٥	الجولة الاولى ..
١٠٣	الجولة الثانية ..

الموضوع	الصفحة
الجولة الثالثة	١١٣
الجولة الرابعة	١٢٧
الجولة الخامسة	١٤٣
الجولة السادسة	١٥٣
الجولة السابعة	١٦٣
الجولة الثامنة	١٧٧
الجولة التاسعة	١٨٧
الجولة العاشرة	٢٠١

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى : حسن كامل



چان چاك روسو أحلام يقظة جوال منفرد

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب چان چاك روسو الجولة العاشرة من "أحلام يقظة جوال منفرد"، ولم يقدر له أن يكملها، كان ذلك في الثانى عشر من أبريل عام 1778 فى يوم "عيد الفصح المزهر"، أى قبل وفاته بما يقل عن ثلاثة شهور؛ إذ إنه قضى فى شهر يوليو من العام نفسه.

هذه الجولات إذن هى مؤلفه الأخير، وآخر ما سجل من خراطر وخلجات سجلها ابتداء من ربيع عام 1776.